محمد عبد المنعم خفاجي

تفسير القرآن الحكيم

أحدث التفاسير ، وأجمعها للفكرة الإسلامية ،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(٩)

الطبعة الأولى

بسم الله الرحمن الرحيم

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح – تليفون : ٥٠٨٥٢

تصدير

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على محمد خاتم المرسلين ، صلوات الله وسلامه عليه وعلى آله أجمعين .. وبعد :

فهذا هو الجزء التاسع ، من تفسيري لكتاب الله ، الذى ضمنته شرحا جديداً للقرآن ، وأسلوبا طريفا فى فهمه وتذوقه ، وإدراك مراميه ، وتمثل معانيه ، والكشف عن حقائه وأصوله .

وسوف يصدر هذا التفسير بعون الله ورعايته فى ثلاثين جزءاً ، أرجو أن تظهر فى أمد قريب ، ووقت قصير .

والقارىء يدرك مدى ما يأخذه كتابة هـذا التفسير ونشره : من جهد مبذول ، وعمل موصول ؛ وهو وحده حرى بأن يقف على مميزات هـذا التفسير ، الذى يجعل القرآن الكريم وكل سورة منه وحدة واحدة ، متصلة الحلقات ، مباركة الهداية .

ومن الله التوفيق ، وأسأله العون والسداد ، إنه أكرم مأمول ، وأفضل مسئول . وما توفيق إلا بالله ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

تمهيد

(١)

هذا الجزء من التفسير ، كالأجزاء السابقة ، ينطق عما بذل فيه من جهود، تهدف إلى الكشف عن روح القرآن الكريم ومراميه وأسراره ومبادئه ومثله وأفكاره .

وليس من عادتنا النظر إلى كتاب الله آية آية ، ومعنى معنى . وإنما ننظر إليه فكرة فكرة ، وموضوعا موضوعا ، نصل اللاحق بالسابق ، ونتمم السابق باللاحق ؛ ونعرف أن وراء كل سورة هدفا وغاية ومرمى ترمز إليه ، وتدل عليه . . وهذا هو الفرق بيننا وبين سائر المفسرين الذين يتناولون كتاب الله كلمة كلمة ، وجملة جملة ، وآية آية ، ومعنى معنى من المعانى الجزئية ، بينما نتناوله جملة من الآيات تدل على موضوع واحد ، وننتقل منها إلى جملة أخرى ذات موضوع جديد آخر . .

نعرف بمعنى كل جملة من الآيات ، وما يكمن فيها من إشارات وأسرار ولطائف عديدة ، وما ترشد إليه من أحكام وأخلاق وآداب ، وما توحى به من مبادىء ومثل وقيم ، ناظرين فى ذلك كله بروح العلم الحديث ، والمدنية الماثلة فى كل شىء . . مع العناية بتصوير الجو الروحى الذى نزلت فيه الآيات ، وأسباب نزولها ، وصلتها بما قبلها وما بعدها ، ومع شديد الاهتمام بالجوانب الفنية العامة فى أسلوب القرآن ،والبعد ما أمكن عن الاصطلاحات والمصطلحات ، لأن القرآن هداية عامة ، فيجب أن يكون تفسيره بأسلوب حديث سهل يدركه الناس كافة ، لا فرق بين عامتهم وخاصتهم على حد سواء .

إن القرآن الكريم يجب أن تخلو تفاسيره من الغموض والإبهام ، ومن الاصطلاحات فى النحو والبيان وسواهما ، ومن كل مايعوق دون الفهم والإفهام . وهذا هو صنيعنا فى هذا التفسير ، الذى نرجو أن يكون خالصاً لوجهه الكريم . .

(٢)

وماذا نقول والموضوع كتاب الله ، والمقصود خدمة هذا الكتاب وتقريب هدايته للناس ، هذه الهداية التي هي آخر الرسالات ، ونهاية النبوات، وخاتمة الدعوات السماوية التي نزل بها جبريل من السماء إلى الأرض .

فى سبيل ذلك يكون من الحظ الأوفى أن يعمل العاملون ، ويكدح الكادحون ، ويجتهد المجتهدون . . ولى من هذا الحظ ما يملأ لسانى ثناء ونداء ، وقلبى تفرغا ودعاء ، إلى الله ، بأن يجعل هذا العمل المبرور خالصا لوجهه الكريم ، وأن يوفق لإكماله وإتمامه ، بقدرته ومشيئته ، إنه على ما يشاء قدير .

(٣)

وعندما يكمل هذا التفسير وتنتهى أجزاؤه الثلاثون ، سوف يدرك الناس بعون الله وفضله أنهم أمام موسوعة إسلامية ضخمة ، تتناول القرآن الكريم ، ومبادئه ، والإسلام وأصوله ، والحياة الإنسانية وأطوارها ، وتشريعات الرسالة المحمدية وأحكامها ، بالتفصيل والشرح والبيان . بما ليس بعده بيان .

وأسلوب العصر الحديث وروحه فى الفهم والكتابة والبيان واضحان كل الوضوح فى هذا التفسير مما يعد ميزة جديدة أخرى له .

(٤)

وإنى لأضرع إلى الله عز وجل أن يؤيد هذا المسعى ، ويبارك تلك الخطى ، إنه سميع الدعاء ، وولى العاملين ، ونصير الطائعين المخلصين . . وما توفيق إلا بالله ؟

فاتحة هذا الجزء

رسالة الدين فى الحياة هى السمو بالعواطف والمشاعر، وتهذيب الأخلاق والضمائر، وتطهير النفوس والعقائد، ورعاية كرامة الإنسان خليفة الله فى أرضه، والدفاع عن حقوق الأفراد والجماعات والشعوب.. هى النهوض بالمجتمع البشرى، والسير به قدما نحو النور والهدى، والطهر، والخير، والعزة والحرية، والأمان والسلام. والدين هو شريعة الإصلاح ينظمها قانون سماوى له فى النفوس الحب والتقديس، وهو الناموس الخالد لدعوة التجديد والبناء والنهضة والحضارة، والنبع الأزلى للحقيقة والإيمان والعدالة، فليس هو مخدراً للشعوب كما زعم كارل ماركس وأنصاره من دعاة المادية والإلحاد ومحاربة الدين باسم المدنية، ومن الذين يغالون فى إنكار الروحيات ووجود الله ومعاداة كل ما يمت بصلة إلى الدين، ويزعمون أنه يجافى العقل والعلم والتقدم. إن الأديان السماوية عامة، والإسلام من بينها خاصة، لا تعترف بأية وصاية أو حجر على العقل، ولا تقر ظلما أو عدوانا، ولا تلبس الأهواء والشهوات مسوح الدين، ولا تشرع ماينافى ناموس الارتقاء.

ولقد جاء الإسلام، فأيقظ الشعوب، وعزز فكرة الإصلاح، وحمى الحرمات والحريات وكرامة الإنسان. لم يترك حقاً إلا شرعه، ولا عدلا إلا فرضه، ولا فضيلة إلا أوجبها، ولا خيرا إلا دعا إليه. حارب الاستغلال فى شتى صوره، واعترف بشخصية الإنسان المعنوية ومكانته الأدبية فى الحياة، فجعل له حقوقا كفلها ورعاها، وحذر من يعتدى عليها من سخط الله وغضبه وعذابه الأليم. لم يقاوم الإسلام رغبة جماعة فى الإصلاح، بل أنكرته الجماعات المتأخرة لما تدعو إليه مبادئه من تجديد وتنظيم وإصلاح، وهذه المبادىء المثلى هى التى كانت تدعو بنفسها إلى الإسلام فى شتى الأقطار والأمصار، وهى التى مهدت لقيام حضارات زاهية مشرقة كانت نواة الحضارة

الحديثة ، ولا عجب فللإسلام مآثره الرائعة فى تحرير الشعوب ، والذياد عن الحقوق ، وتنظيم الواجبات ، وفرض العدالة والمساواة والإخاء ، وحماية الفكر ورعاية الثقافة . ولا ريب أن فى اتباع مبادىء الدين والسير على منهاجه ، والإيمان بمايدعو إليه من مثل ؛ عصمة من الزلل ، ومنجاة من العثار؛ فالمبادىء القوية لا تخلق الجماعات القوية إلا إذا آمنت بها ، واتبعتها ، واتخذت منها ناموساً كريماً ونظاما قويماً ، يقيها عواصف الأهواء وزيغ العبث والعدوان والشهوات . وإذا كان هناك من يتجر بالدين فى عصور التأخر الفكرى والاجتماعى ، فليس ذلك ذنب الدين نفسه ، إنما هو ذنب من يريد أن يحيل النور ناراً ، والهدى ظلاما ، ويعلم الحق ويكتمه ، ويجامل فيه ، ويحاول أن يطفىء نور الله .. ولقد حذر الله تعالى من هؤلاء ، وأنذرهم بعقاب شديد .

وبعد فليس أدل على ضلال خصوم الدين من إنكار كثير من الفلاسفة والمفكرين لآرائهم المادية الإلحادية ، وجهرهم بأن الدين شىء مقدس لاتستغنى عنه الإنسانية ولا الحياة . ففكرة الدين ، وعقيدة الله الذى ليس له نهاية ، وقدسية الروح ، وتنظيم العلاقة بين الله وعباده ، كلها أفكار صيغت فى الضمير البشرى الخفى الذى ليس له نهاية ، وإن الإنسان لا يستطيع أن يعيش على الأرض إذا فقد الإيمان بالدين والعقيدة فى وجود الله ، ومن آمن بالمادية فقد كفر بالخالق الأعظم ، وأسلم نفسه للحيرة والضلال : « أفغير دين الله يبغون ، وله أسلم من فى السموات والأرض : طوعا وكرها ، وإليه يرجعون » وإذا آمنا بديننا - الإسلام الخالد - فقد آمنا بكفر الفلسفة المادية الماركسية الإلحادية ، وبكفر ما بنى عليها من مبادىء ونظريات إلحادية شيوعية ، وفرق كبير بين الإسلام وبين غيره من المبادىء الدخيلة على العالم العربى والإسلامى ، ولو كانت هذه المبادىء تطل علينا برأسها الجديد ممثلة فيه الشيوعية .

إن كثيراً من المذاهب الحديثة والقديمة على السواء قامت على الثورة والحرب والكفاح وصراع الطبقات ، ولكن الإسلام لم يكن فى حاجة إلى شىء من هذا ، والمسلمون كانوا دعاة خير وعدل وإنصاف ورحمة وبر وتعاون ،

ولا شك فى أنه لا سبيل إلى التوفيق بين مؤمن بحرية الفكر والعقيدة ، وكافر بها لا يرحب مثله بمبادىء الخير والحق والسلام ، بل يحنق عليها ويبغضها . وإذا أردنا أن نوازن بين الإسلام والمذهب الشيوعى ـ مثلا ـ فى قيامهما وشأنهما ، هالنا الفرق بين دين شعاره الإخاء والوحدة والأمان ، ومذهب يصطنع العداء بين الناس ويعتمد على التفاوت بين الطبقات ، ليثير الحقد والبغضاء فى نفوس بنى البشر ؛ وليقول لهذا أنت غنى ولذاك أنت فقير ، والغنى شر والفقر موت ، وليدفع الفقير إلى أن يقاتل بالسيف أخاه الغنى ليستحوز على ماله وثروته ، يدلك على ذلك التاريخ ، فقد بدأت الشيوعية فى روسيا لأول مرة عام ١٨٨٣ حين شكل بليخانوف الجماعات الماركسية ، ومنها جماعة تحرير العمل التى تعتنق آراء ماركس وإنجلز الداعية إلى أن تسير الطبقة العاملة إلى أهدافها بالقوة والثورة ، وقد سبق ذلك صدور قانون تحرير رقيق الأرض عام ١٨٦١ فى عهد القيصر اسكندر الثانى بتأثير كتابات المفكرين ودعوتهم إلى الإصلاح ، من أمثال تولستوى وجوركى وبوشكين . وفى عام ١٨٩٨ نشأ حزب العمال الاشتراكى الديمقراطى فى روسيا داعيا إلى تعاليم ماركس ، وفى ١٩٠١ قام الحزب الاشتراكى الثورى . وفى عام ١٩٠٣ أنشأ لينين الحزب الشيوعى البولشفى ، ومن ذلك الحين ظهرت البولشفية مدرسة فكرية وحزبا سياسيا ينادى باستخدام القوة والعنف لخدمة أغراضه .. وخلال الحرب العالمية الأولى ـ وكانت روسيا تقاسى أهوال الحرب وويلاتها ـ أخذت الشيوعية تستخدم السخط العام لإثارة حرب الطبقات ، فقامت فى أوائل مارس ١٩١٧ ثورات وحروب أهلية مدمرة بين الطبقات ، وفى منتصف مارس قبض الشيوعيون على القيصر نقولا الثانى ، وفى اليوم الثانى أعلنوا الجمهورية ، وأخذوا بعد ذلك فى ذبح الأغنياء ، واستصفاء أراضى كبار ملاك الأرض ، وتسليم المصانع والمناجم إلى العمال ؛ وقامت الديكتاتورية الشيوعية الطاغية فى روسيا ، وأخذوا يسلبون الملاك محاصيلهم ومتاجرهم ومصانعهم باسم الثورة ، حتى

المنازل فى المدن ، ونفذوا مشاريعهم الاقتصادية بقوة السلاح والإرهاب ، وعاملوا طبقة الفلاحين الأثرياء « الكولاك » بدون شفقة أو رحمة كما يقول المؤرخون الروسيون[١] ، فحكموا عليهم بالموت أو بالتشريد فى سيبريا وغيرها . وقامت المذابح الهائلة — باسم الإصلاح — فى كل مكان ، مما انبعث عن فكرة آمن بها الشيوعيون إيمانا عميقا ، فكرة صراع الطبقات واستخدام القوة المسلحة للقضاء على خصومهم فى الرأى ؛ ويصور هذه الفكرة زعماء الشيوعية الروحيون والسياسيون ، يقول ماركس وإنجلز : إن تاريخ كافة الجماعات الحاضرة هو تاريخ الصراع بين الطبقات[٢] ، ويقول ماركس : إن صراع الطبقات يقود بالضرورة إلى ديكتاتورية الطبقة العاملة التى هى وسيلة لإلغاء جميع الطبقات[٣] ، وهذه الفكرة يحاربها الإسلام حربا شعواء ، لأنها تفسد الأمن والسلام ، وتقضى على الإخاء الإنسانى ، وتجعل بعض الناس أعداء بعض ، وتدعو إلى نهب بعضهم بعضا ، وتولد الشحناء والحقد فى المجتمع .. والنصوص على ذلك كثيرة من القرآن الكريم وكلام الرسول ، بل إن صراع الطبقات لم تؤمن به أية جماعة فى عصور الجاهلية الأولى ، ولا يدعو إليه اليوم إصلاح ، فهذا هو الإصلاح العام فى الديمقراطية ، يسير بتلك الأمم إلى المساواة والعدالة الاجتماعية دون وجود صراع طبقى ، على أن مصالح الجماعات الإنسانية لا تعارض بينها على الحقيقة ، وإنما بينها التعاون والانسجام ، والإسلام يوجب أن يعيش الفقراء والأغنياء بعضهم بجوار بعض إخوة متحابين ، وقد دعا إلى التعاون التام بين الطبقات . ولقد أعلن المؤتمر الشيوعى الأول الذى عقد فى موسكو فى ٧ مارس ١٩١٩ تأليف الدولية الشيوعية الثالثة « الكومنترن » لنشر الشيوعية فى العالم ، وتحويل العمال فيه إلى شيوعيين ، وإثارة الاضطرابات

---

(١) ٢٤ و٢٥ الدستور السوفييتى لفؤاد محمد شبل — طبع القاهرة .
(٢) ٣٨ المرجع السابق .
(٣) ص ٤٦ المرجع نفسه ، وصفحة ٧١ نقد النظرية الماركسية لأحمد جمال الدين — طبع القاهرة ١٩٤٨ .

وإيجاد القلاقل فى المحيط السياسى والاجتماعى والاقتصادى فى الدول ، تمهيداً لثورة الطبقة العاملة وسيادة الشيوعية بين الشعوب ، وقد ألغت روسيا الدولية الشيوعية فى ٢٢ مايو ١٩٤٣ ، تقربا إلى الحلفاء ، ولكن الدولية الشيوعية الثالثة استعادت نشاطها الآن ، وهذا ما يبدو بعد إنشاء مكتب الاستعلامات الشيوعى « الكومينفورم » فى أكتوبر ١٩٤٧ ، وآثار ذلك واضحة فى إثارة الطبقات فى الشرق والغرب . وكتاب « مشاكل الليفينية » ظل المرشد الأعلى فى شئون المبادىء والأفكار الشيوعية ، ولا يترك هذا الكتاب أثراً للشك فى اعتقاد « ستالين » ، مؤلفه ، فى أن من حق الكتلة العاملة المظفرة ـ الكتلة الشرقية ـ بل من واجبها المقدس أن تستخدم القوة فى إشعال نار الثورة فى البلاد الأجنبية إذا ما لاحت الفرصة لإشعالها ، وأن تستخدم القوة العسكرية إذا لزم الأمر ضد الطبقات المستقلة والدول التى تناصرها . وحكم العقل والأديان عامة والإسلام خاصة على مبادىء ونظرية صراع الطبقات واستخدام القوة الثورية لإرهاب الشعوب المسالمة ، لا يخفى على إنسان . إن الشيوعية لم تكن لتقوم لها قائمة فى بلادها لولا هذه المجازر الهائلة ، وعدد الضحايا الضخم لها فى بلادها . ولولا سجون الاعتقال والنفى إلى مجاهل سيبيريا ، والبطش بخصومها فى الرأى ، والتنكيل بمعارضيها فى الفكرة ، ثم لولا الدعاية والأموال الضخمة التى تبذل لنشرها . أما الإسلام فلا يمكن أن يشك عقل فى أنه إنما قام على السلام والمحبة والرحمة والخير والتعاون بين الناس ، وعلى الصدق فى المبادىء والإقناع بالحجة ، ونمو مبادىء الدعوة وأهدافها ، واتجاه هذه الرسالة الإلهية إلى غرس بذور الوئام والوحدة بين جميع الأمم والشعوب ، وعملها لنشر الرفاهية والسعادة بين بنى البشر كافة ...

تفسير آيات الجـــزء التاسع

من كتاب الله الـكريم

(١)

تتمة سورة الأعراف

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الربع الأول من الجزء التاسع

٨٨ — قَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِن قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ
وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا
قَالَ أَوَلَوْ كُنَّا كَٰرِهِينَ .
٨٩ — قَدِ افْتَرَيْنَا عَلَى اللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ
نَجَّىٰنَا اللَّهُ مِنْهَا وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن
يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّنَا وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا
رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنتَ خَيْرُ الْفَٰتِحِينَ .
٩٠ — وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَوْمِهِ لَئِنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا
إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ .
٩١ — فَأَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَٰثِمِينَ .
٩٢ — الَّذِينَ كَذَّبُوا شُعَيْبًا كَأَن لَّمْ يَغْنَوْا فِيهَا الَّذِينَ كَذَّبُوا
شُعَيْبًا كَانُوا هُمُ الْخَٰسِرِينَ .
٩٣ — فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَٰلَٰتِ رَبِّى
وَنَصَحْتُ لَكُمْ فَكَيْفَ ءَاسَىٰ عَلَىٰ قَوْمٍ كَٰفِرِينَ .

هذه الآيات الست هي تتمة قصة شعيب عليه السلام مع قومه من مدين ، وقد سبقت فى نهاية الجزء الثامن عدة آيات هي مطلع قصة شعيب عليه السلام ، وهي الآيات الشريفة :

٨٥ — وإلى مدين أخاهم شعيبا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ، ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين .

٨٦ — ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجا ، واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين .

٨٧ — وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين .

والآيات الشريفة التى نحن بصدد تفسيرها (٨٨ — ٩٣) هي مطلع الربع الأول من الجزء التاسع من القرآن الكريم ، وهي مطلع الربع الخامس من سورة الأعراف كذلك ، هذه السورة الشريفة ، التى تعد من طوال السور المكية ، والتى نزلت فى الدعوة إلى التوحيد ، وفى إعلان الحرب على الشرك والمشركين ، وفى تبصرة مشركى مكة والعرب المناهضين لرسالة الإسلام ، ودعوة محمد عليه السلام ، إلى حقائق الرسالات السماوية ، وإلى مصير المكذبين بها ...

وتتناول هذه الآيات البليغة الرائعة أسلوبا جديدا فى منطق الرسالات ، وفى حجج الأنبياء ودعواتهم إلى قومهم ، كما تتناول تصوير موقف الأمة التى بعث إليها شعيب عليه السلام من دعوته السماوية تصويرا رائعا جاليا مؤثرا .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة . . « قال الملأ » ، أى الجماعة « الذين استكبروا » ، أى تكبروا « من قومه » عن الإيمان بالله وبرسله

وتعاظموا عن اتباع شعيب عليه السلام « ليحزنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن » أى ترجعن « فى ملتنا » أى لا بد لك من أحد الأمرين : إما إخراجك ومن اتبعك على دينك من بلدنا أو عودكم فى الكفر ، وشعيب لم يكن من قبل على ملتهم حتى يرجع إلى ما كان عليه ، فالمراد أن أتباع شعيب كانوا على ملة أولئك الكفار، فخاطبوا شعيبا وأتباعه جميعا ، فدخل هو فى الخطاب وإن لم يكن على ملتهم قط ، لأن الأنبياء لا يجوز عليهم الكفر مطلقا ، فاستعمل العود فى حقهم على سبيل المجاز ، وذهب بعض المفسرين إلى أن العود يستعمل بمعنى (صار) كما يستعمل بمعنى (رجع) فلا يستلزم الرجوع إلى حالة سابقة ، بل هو انتقاله من حالة سابقة إلى حالة مستأنفة « قال » لهم شعيب على سبيل الاستفهام الإنكارى « أو لو كنا كارهين » ؟ أى كيف نعود فيها ونحن كارهون لها ، وقيل : لا نعود فيها وإن أكرهتمونا وأجبرتمونا على الدخول فيها « قد افترينا على الله كذبا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها » والجواب من هذا مثل ما أجيب به عن الأول ، وهو أن نقول : إن الله نجى قومه الذين آمنوا به من تلك الملة الباطلة ، إلا أن شعيبا نظم نفسه فى جملتهم ، وإن كان بريئا مما كانوا عليه من الكفر فأجرى الكلام على التغليب « وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا » أى إلا أن يشاء الله خذلاننا وارتدادنا فينفذ حكمه علينا ، وفيه دليل على أن الكفر بمشيئة الله تعالى « وسع ربنا كل شىء علما » أى وسع علمه كل شىء فلا يخفى عليه شىء مما كان وما يكون منا ومنكم « على الله توكلنا » فى أن يثبتنا على الإيمان ويخلصنا من الأشرار ، ولما أيس شعيب من إيمان قومه دعا بهذا الدعاء فقال « ربنا افتح » أى اقض وافصل واحكم « بيننا وبين قومنا بالحق » أى العدل الذى لا جور فيه ولا ظلم ولا حيف « وأنت خير الفاتحين » أى الحاكمين « وقال الملأ الذين كفروا من قومه » أى قال جماعة من أشراف قوم شعيب ممن كفر لآخرين منهم « لئن اتبعتم شعيبا » على دينه وتركتم دينكم وما أنتم عليه « إنكم إذا لخاسرون » أى مغبونون لفوات ما يحصل لكم بالبخس والتطفيف ، أو لاستبدال ضلالته بهداكم ، وجواب

القسم الذى هو « لئن اتبعتم شعيبا » ، سد مسده جواب الشرط قوله « إنكم إذاً لخاسرون » ، فهو ساد مسد الجوابين « فأخذتهم الرجفة » أى الزلزلة الشديدة « فأصبحوا فى دارهم » أى مدائنهم « جاثمين » أى باركين ميتين ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : فتح الله تعالى عليهم بابا من العذاب فأرسل عليهم حرا شديداً فأخذ بأنفاسهم ولم ينفعهم ظل ولا ماء ، فدخلوا فى الأسراب ليتبردوا فيها فوجدوها أشد حرا من الظاهر ، فخرجوا إلى البرية فبعث الله عليهم سحابة فيها ريح طيبة باردة فأظلتهم وهى الظلة فوجدوا لها بردا ونسيما، فنادى بعضهم بعضاً حتى اجتمعوا تحت السحابة : رجالهم ونساؤهم وصبيانهم ، ثم ألهبها الله عليهم نارا ، ورجفت بهم الأرض ، فاحترقوا كما يحترق الجراد وصاروا رمادا ، وروى أن الله تعالى حبس عليهم الريح سبعة أيام ثم سلط عليهم الحر سبعة أيام ، ثم رفع لهم جبل من بعيد فأتاه رجل فإذا تحته أنهار وعيون ، فأتاهم وأخبرهم فاجتمعوا تحته كلهم ، فوقع ذلك الجبل عليهم فذلك قوله تعالى : «عذاب يوم الظلة» ، وقال قتادة : بعث الله تعالى شعيباً إلى أصحاب الأيكة وأصحاب مدين: فأما أصحاب الأيكة فأهلكوا بالظلة ، وأما أصحاب مدين فأخذتهم الصيحة صاح بهم جبريل عليه السلام فهلكوا جميعا « الذين كذبوا شعيبا كأن » مخففة واسمها محذوف أى كأنهم « لم يغنوا » أى لم يقيموا وينزلوا « فيها » أى فى ديارهم يوما من الدهر ، يقال : غنيت بالمكان أى أقمت به ، والمغانى المنازل التى بها أهلها ، واحدها مغنى «الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين» أى دينا ودنيا ، أما الذين اتبعوه ، فإنهم هم الرابحون فى الدارين؛ وأكد ذلك بإعادة الموصول وغيره للرد عليهم فى قولهم السابق « فتولى » أى أعرض شعيب « عنهم » أى عن قومه « وقال : ياقوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم » أى قال ذلك لما يتقن نزول العذاب بهم تأسفا وحزنا عليهم لأنهم كانوا كثيرين ، وكان يتوقع منهم الإجابة والإيمان ، ثم أنكر على نفسه فقال : « فكيف آسى » أى أحزن « على قوم كافرين » لأنهم ليسوا ممن يحزن على مثلهم لاستحقاقهم ما نزل عليهم بسبب كفرهم ، وقيل : قال ذلك اعتذاراً عن عدم شدة حزنه عليهم ،

والمعنى : لقد بالغت فى الإبلاغ والإنذار وبذلت وسعيت فى النصح فلم يصدقوا قولى فكيف أحزن عليهم . يريد شعيب عليه السلام : إننى ياقوم قد أبلغتكم رسالات ربى ـ أى ما أرسلنى به إليكم من العقائد والمواعظ والأحكام والآداب ـ فجمع الرسالة هنا بحسب متعلقها وأفرادها فى قصة صالح بحسب معناها المصدرى ـ ونصحت لكم بما بينته من معانيها والترغيب فيها وإنذار عاقبة الكفر بها ، فكيف آسى ، أى أحزن الحزن الشديد على قوم كافرين أعذرت إليهم ، وبذلت جهدى فى سبيل هدايتهم ونجاتهم ، فاختاروا ما فيه هلاكهم ، وإنما يأسى من قصر فيما يجب عليه من النصح والإنذار .

٩٤ — وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّبِىٍّ إِلَّآ أَخَذْنَآ أَهْلَهَا بِالْبَأْسَآءِ وَالضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ .

٩٥ — ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّىٰ عَفَوا وَّقَالُوا قَدْ مَسَّ ءَابَآءَنَا الضَّرَّآءُ وَالسَّرَّآءُ فَأَخَذْنَاهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ

٩٦ — وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ السَّمَآءِ وَالْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُم بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ .

٩٧ — أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ .

٩٨ — أَوَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا ضُحًى وَهُمْ يَلْعَبُونَ .

٩٩ — أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَٰسِرُونَ .

١٠٠ — أَوَلَمْ يَهْدِ لِلَّذِينَ يَرِثُونَ الْأَرْضَ مِنۢ بَعْدِ أَهْلِهَآ أَن

لَّوْ نَشَآءُ أَصَبْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَنَطْبَعُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ .

١٠١ — تِلْكَ ٱلْقُرَىٰ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآئِهَا وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم
بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا بِمَا كَذَّبُوا مِن قَبْلُ كَذَٰلِكَ
يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِ ٱلْكَٰفِرِينَ

١٠٢ — وَمَا وَجَدْنَا لِأَكْثَرِهِم مِّنْ عَهْدٍ وَإِن وَجَدْنَا أَكْثَرَهُمْ
لَفَٰسِقِينَ .

تسع آيات كريمة جاءت عقب قصة شعيب عليه السلام، وقد خاطب فيها القرآن الكريم الرسول صلوات الله عليه ومشركي العرب الذين حدثهم حديثا رفيعا: منذرا ومحذرا ومبشرا. وهي تبين سنة الله عز وجل في معاملة الشعوب والأمم، من الإمهال والعفو والرحمة ثم الأخذ بالعذاب الشديد، والوبال الأليم والهلاك المدمر العتيد؛ ثم يطالب الله عز وجل المشركين بالإيمان لينالهم الخير وبركات السماء والأرض، ولئلا يأخذهم الله بذنوبهم، ويهلكهم جزاء تكذيبهم، ليلا أو نهارا؛ ثم يؤكد القرآن الكريم أن جميع القصص الواردة في القرآن الكريم حق، ويؤكد كفرهم ونقضهم العهود وخروجهم عن طاعة الله وشريعته، ويسجل العبرة من القصص السابقة، وهي أن هذه الأمم البائدة التي كذبت رسلها فأهلكها الله لو آمنت واهتدت واستقامت لما هلكت، ولعاشت في رضاء الله وتوفيقه، وفي رعايته وعونه، وفي بركاته وخيره. يقول الله عز وجل في هذه الآيات الكريمة «وما أرسلنا في قرية من نبي» في الكلام حذف أي فكذبوه «إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء»، قال ابن مسعود: البأساء الفقر، والضراء المرض، وقيل: البأساء الشدة وضيق العيش، والضراء سوء الحال «لعلهم يضرعون» أي فعلنا بهم ذلك لكي يتضرعوا ويتوبوا، والتضرع: التذلل والخضوع والانقياد لأمر الله، والشدائد مما يربي الناس

ويصلح من فسادهم ، فالمؤمن قد يشغله الرخاء وهناء العيش فينسيه ضعفه وحاجته إلى ربه ، والشدائد تذكره به ، والكافر بالنعم قد يعرف قيمتها بفقدها ، فينقلب شاكرا بعد عودها ، بل الكافر بالله عز وجل قد تنبه الشدائد والأهوال فيه مركز الشعور بوجود الرب الخالق المدبر لأمور الخلق ، وتذكره بما أودع في فطرته من وجود مصدر لنظام الكون وأقداره ، كما وقع كثيرا ، «ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة» أى أعطيناهم بدل ما كانوا فيه من البلاء والشدة السلامة والسعة كقوله تعالى ، وبلوناهم بالحسنات والسيئات » فأخبر الله تعالى بهذه الآية أنه يأخذ أهل المعاصى والكفار تارة بالشدة وتارة بالرخاء على سبيل الاستدراج «حتى عفوا» أى كثروا ونموا فى أنفسهم وأموالهم ، يقال : عفا الشعر إذا كثر وطال ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : «واعفوا اللحى» أى وفروها وأكثروا شعرها «وقالوا» كفرا للنعمة «قد مس آباءنا الضراء والسراء» ، أى يقول بعضهم لبعض : إن هذه عادة الدهر قديما وحديثا لنا ولآبائنا ولم يكن ما مسنا من الشدة والضر عقوبة لنا . من الله تعالى على ما نحن عليه ، فكونوا على ما أنتم عليه كما كان آباؤكم من قبل ، فإنهم لم يتركوا دينهم لما أصابهم من الضراء والسراء ، قال الله تعالى «فأخذناهم بغتة» ، أى ليكون ذلك أعظم لحسرتهم «وهم لا يشعرون» ، أى بنزول العذاب بهم ، والمراد بذكر هذه القصة وغيرها من القصص العظة والتذكير ، ليترك العصاة ما هم عليه من الذنوب ويرجعوا إلى الله تعالى ويزداد الذين آمنوا إيمانا «ولو أن أهل القرى» ، أى المكذبين «آمنوا» بالله ورسوله «واتقوا» ، أى الشرك والمعاصى «لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض» ، أى لآتيناهم بالخير من كل جهة ، وقيل : بركات السماء المطر ، وبركات الأرض النبات والثمار والأنعام وجميع ما فيها من الخيرات ، وكل ذلك من فضل الله تعالى وإحسانه على عباده «ولكن كذبوا» ، أى فعلنا لهم ذلك ليؤمنوا فما آمنوا ولكن كذبوا الرسل «فأخذناهم» ، أى عاقبناهم بأنواع العذاب «بما» ، أى بسبب ما «كانوا يكسبون» من الكفر والمعاصى «أفأمن أهل القرى» ، عطف على قوله تعالى «فأخذناهم بغتة وهم

لايشعرون ، والمعنى : أبعد ذلك يأمن أهل القرى « أن يأتيهم بأسنا ضحى » أى نهار الآن الضحى صدر النهار «وهم يلعبون» أى وهم ساهون لاهون غافلون عما يراد بهم « أفأمنوا مكر الله » تقرير لقوله تعالى «أفأمن أهل القرى» ، ومكر الله : استعارة لاستدراج العبد بالنعم فى الدنيا وأخذه من حيث لا يحتسب « فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون » أى أنه لا يأمن استدراجه إياهم بالنعم وأخذهم بغتة إلا من خسر فى أخراه وهلك مع الهالكين ، « أو لم يهد » أى يتبين « للذين يرثون الأرض » أى يسكنونها من بعد هلاك أهلها الذين كانوا من قبلهم فورثوها عنهم وخلفوهم فيها « أن لو نشاء أصبناهم » بالعذاب « بذنوبهم » كما أصبنا من قبلهم ، والهمزة للتوبيخ ، والمعنى : أو لم يهد الذين يخلفون من قبلهم فى ديارهم ويرثون أرضهم هذا الشأن ، وهو أن لو نشاء أصبناهم بذنوبهم ، أى بسببها كما أصبنا من قبلهم وأهلكنا الوارثين منهم ، كما أهلكنا المورثين « ونطبع » أى ونختم « على قلوبهم » معطوف على محذوف دل عليه «أو لم يهد» كأنه قال : يغفلون عن الهداية ونطبع على قلوبهم «فهم لا يسمعون» موعظة أى لا يقبلونها ، ومنه «سمع الله لمن حمده» . « تلك القرى» أى القرى التى ذكرنا لك يامحمد أمرها وأمر أهلها وهى قرى قوم نوح وعاد وثمود وقوم لوط وقوم شعيب « نقص عليك » يامحمد « من أنبائها » أى نخبرك عنها وعن أهلها وما كان من أمرهم وأمر رسلهم الذين أرسلوا إليهم لتعلم أننا لننصرن رسلنا والذين آمنوا معهم على أعدائهم من أهل الكفر والعناد ، وكيف أهلكناهم بكفرهم ومخالفتهم رسلهم ، وفى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم وتحذير لكفار قريش أن يصيبهم مثل ما أصاب الأمم من قبلهم « ولقد جاءتهم » أى أهل تلك القرى «رسلهم بالبينات» أى بالمعجزات الباهرات والبراهين الدالة على صدقهم « فما كانوا ليؤمنوا » أى عند مجيئهم بها « بما كذبوا » أى كفروا به « من قبل » مجىء الرسل بل استمروا على الكفر « كذلك » أى كما طبع الله على قلوب كفار الأمم الخالية وأهلكهم « يطبع الله على قلوب الكافرين » الذين كتب عليهم أنهم لا يؤمنون من قومك « وما وجدنا لأكثرهم » أى

لأكثر الناس على الإطلاق أو لأكثر الأمم الخالية والقرون الماضية الذين قصصنا خبرهم عليك ، وأكد الاستغراق فقال «من عهد» أى من وفاء بالعهد الذى عهدناه إليهم وأوصيناهم به يوم أخذ الميثاق ، «وإن» أى وإنا «وجدنا» أى فى علمنا فى عالم الشهادة «أكثرهم لفاسقين» أى خارجين عن شرائع الله وعباداته وطاعاته .

فى هذه الآيات التسع بين الله عز وجل أخذه الشديد لأهل القرى الذين كذبوا الرسل بما كان من كفرهم وظلمهم لأنفسهم وللناس ، ثم بين لأهل أم القرى مكة ولسائر الناس ما كان يكون من إغداق نعمه تعالى عليهم لو آمنوا بالرسل ، واعتبروا بالسنن ؛ والإيمان الصحيح بالدين الحق دائماً سبب لسعادة الدنيا ونعمتها . ثم أنذر الله عز وجل أمة الدعوة الإسلامية عربها وعجمها من عصر النور الأعظم إلى يوم القيامة لتعتبر بما نزل بغيرها ، وأهل القرى المراد بهم الجنس أى الأمم ، ويحتمل أن يكون المراد بهم أهل أم القرى مكة عاصمة الدعوة المحمدية وموطن الوحى ، وسائر قرى الأمم التى بعث الرسول الأعظم صلوات الله عليه إلى أهلها من حيث إن بعثته صلى الله عليه وسلم عامة .. ثم وجه الله عز وجل الخطاب فى الآيتين الأخيرتين إلى النبى صلى الله عليه وسلم لأجل تسليته وتثبيت فؤاده بما فى قصص أولئك الرسل مع أقوامهم من العبر والسنن ، التى فيها عظة وعبرة للمعتبرين ، مما شرحه الله عز وجل فى الآيات السبع الأولى . إن هذه الآيات التسع ذكرت فاصلة بين قصص الأنبياء التى سبق ذكرها ، وقصة موسى مع فرعون ومع قومه لتبيين موضع العبرة منها ، وهى أن الأمم لو آمنت برسالات الأنبياء لاهتدت وفازت برضاء الله وخيراته وبنعيمه ، ولكنها كفرت وضلت . فأخذها الله بعذاب شديد .. وفى هذه الآيات كذلك تحذير لمشركى العرب الذين قاوموا الرسالة ، وكفروا بمحمد ودعوته . ما بعده من تحذير .

وقوله تعالى فى آخر هذه الآيات «وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن

وجدنا أكثرهم لفاسقين » ، فسر العهد فى الآية بالوصية ، أى بإنشائها ، أى بالموصى به من الأوامر والطاعات ، قال تعالى « وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم » أى أوفوا بما عهدت به إليكم أوف لكم بما وعدتكم به من الجزاء على ذلك ، وكل منهما يسمى عهد الله ، وقال الراغب : عهد الله تارة يكون بما ركزه فى عقولنا وتارة يكون بما أمرنا به فى الكتاب وبألسنة رسله ، وتارة بما نلتزمه وليس بلازم فى أصل الشرع كالنذور وما يجرى مجراها ، والمراد من الأول العهد الذى تقتضيه فطرة الله التى فطر الناس عليها فهى عهد منه يطالب الناس به ويحاسبهم عليه ، ومنه الحنيفية وأصلها الميل عن جانب الباطل والشر إلى جانب الحق والخير ، فقد فطر الله أنفس البشر على الشعور بسلطان غيبى فوق جميع قوى العالم وعلى حب الكمال وكراهة النقص . ولكنهم يخطئون فى تحديد هذه المعانى ويحتاجون إلى بيانها بوحى من الله تعالى وهو عهد الله المفصل الذى يرسل به رسله لمساعدة الفطرة على تزكية النفس وإزالة ما يطرأ عليها من الفساد بالجهل وسوء الاختيار . ومن الأصول العامة لعهد الله العام ، على ألسنة الرسل عليهم السلام ، ما بينه تعالى فى أوائل هذه السورة من تلك المناداة التى نادى بها بنى آدم فى الآيات العشر (٢٥ - ٣٤) ، ومنها التحذير من فتنة الشيطان وهو ما عهده إليهم بقوله « ألم أعهد إليكم يا بنى آدم ألا تعبدوا الشيطان » ، وقد فسر بعض السلف العهد بالميثاق الفطرى العام الذى يأتى بيانه فى هذه السورة « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم ألست بربكم ؟ قالوا بلى » ، وروى أبو الشيخ عن قتادة قال : لما ابتلاهم بالشدة والجهد والبلاء ثم أتاهم بالرخاء والعافية ذم الله أكثرهم عند ذلك فقال « وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين » ، ويعنى ما تقدم من شأن الفطرة فى الرجوع إلى الله عند الشدة وكون هؤلاء لم تؤدبهم البأساء والضراء . وهذا فرع من فروع العهد الفطرى ، وقيل : إنه أراد به أنهم كانوا يعاهدون الله تعالى عند الضيق بأن يشكروا له ويوحدوه إذا أنجاهم كما حكى عن بعضهم فى عدة سور . وروى عن ابن مسعود تفسير

العهد بالإيمان أخذا من قوله تعالى « إلا من اتخذ عند الرحمن عهدا » وهو يتفق مع القول الأول وإن لم يصرح به كما قال الحافظ ابن كثير فى تفسير الجملة : وما وجدنا لأكثرهم أى لأكثر الأمم الماضية من عهد ، والعهد الذى أخذه هو الذى جبلهم عليه وفطرهم عليه وأخذ عليهم فى الأصلاب أنه ربهم ومليكهم وأنه لا إله إلا هو ، وأقروا بذلك وشهدوا على أنفسهم به ، وخالفوه وتركوه وراء ظهورهم وعبدوا مع الله غيره بلا دليل ولا حجة لا من عقل ولا من شرع ، وفى الفطر السليمة خلاف ذلك ، وجاءت الرسل الكرام من أولهم إلى آخرهم بالنهى عن ذلك كما جاء فى صحيح مسلم « يقول الله : إنى خلقت عبادى حنفاء فجاءتهم الشياطين فاجتالتهم عن دينهم وحرمت عليهم ما أحللت لهم » ، وفى الصحيحين « كل مولود يولد على الفطرة فأبواه يهوّدانه أو ينصرانه أو يمجسانه » والصواب أن العهد يعم هنا كل ما يصلح له من عهد فطرى وشرعى وعرفى مما يلتزمه الناس بعضهم مع بعض فى تعاهدهم وتعاقدهم .

١٠٣ — ثُمَّ بَعَثْنَا مِنْ بَعْدِهِم مُّوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦ فَظَلَمُوا۟ بِهَا ۖ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ .

١٠٤ — وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرْعَوْنُ إِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

١٠٥ — حَقِيقٌ عَلَىٰٓ أَن لَّآ أَقُولَ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِىَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

١٠٦ — قَالَ إِن كُنتَ جِئْتَ بِـَٔايَةٍ فَأْتِ بِهَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ .

١٠٧ — فَأَلْقَىٰ عَصَاهُ فَإِذَا هِىَ ثُعْبَانٌ مُّبِينٌ .

١٠٨ — وَنَزَعَ يَدَهُۥ فَإِذَا هِىَ بَيْضَآءُ لِلنَّٰظِرِينَ .

١٠٩ — قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَـٰذَا لَسَـٰحِرٌ عَلِيمٌ .

١١٠ — يُرِيدُ أَن يُخْرِجَكُم مِّنْ أَرْضِكُمْ فَمَاذَا تَأْمُرُونَ .

١١١ — قَالُوا أَرْجِهْ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى ٱلْمَدَآئِنِ حَـٰشِرِينَ

١١٢ — يَأْتُوكَ بِكُلِّ سَـٰحِرٍ عَلِيمٍ .

١١٣ — وَجَاءَ ٱلسَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ ٱلْغَـٰلِبِينَ .

١١٤ — قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ .

١١٥ — قَالُوا يَـٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِىَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ .

١١٦ — قَالَ أَلْقُوا فَلَمَّآ أَلْقَوْا سَحَرُوٓا أَعْيُنَ ٱلنَّاسِ وَٱسْتَرْهَبُوهُمْ وَجَآءُو بِسِحْرٍ عَظِيمٍ .

أربع عشرة آية كريمة بدأ الله عز وجل بها قصة موسى عليه السلام ، وتناولت هذه الآيات الأربع عشرة رسالة موسى إلى فرعون ، وكفر فرعون وقومه بها ، وإظهار الله عز وجل المعجزات على يدى موسى عليه السلام ، ورمى فرعون وقومه لموسى بالسحر ، وصنيع السحرة أمام الشعب ، وكان موسى إزاء ذلك رابط الجأش ، ثابت الجنان ، قوى الحجة ، مؤيدا برعاية الله وعونه .. واسم موسى مختلف فيه ، فيروى عن ابن عباس أنه قال : إنما سمى موسى لأنه ألقى بين ماء وشجر ، فالماء بالقبطية « مو » والشجر « سى » . وذلك أن أمه وضعته بعد ولادته فى تابوت (صندوق) أقفلته إقفالا محكما وألقته فى اليم ، وهو نهر النيل ، خوفا من فرعون وحكومته أن يعلموا به فيقتلوه إذ كانوا يذبحون ذكور بنى إسرائيل عند ولادتهم ، ويتركون إناثهم ، وقالت لأخته : قصيه أى تتبعيه لتعلم أين ينتهى ومن يلتقطه ، حتى لايخفى عليها

أمره ، فما زالت أخته تراقب التابوت على ضفاف اليم ، حتى رأت آل فرعون ملك مصر يلتقطونه إلى آخر ماقصه الله تعالى من خبره فى سورة القصص

وقد ذكرت قصته فى عدة سور مكية بين مطولة ومختصرة : أولها هذه السورة وهى « الأعراف » ، فهى أول السور المكية فى ترتيب المصحف التى ذكرت فيها قصته ، ومثلها فى استقصاء قصته : طه ، والشعراء ، ويليها سائر الطواسين الثلاثة :- الشعراء والنمل والقصص- وقد ذكرت بعض العبر من قصته فى سور أخرى كيونس وهود والمؤمنين ،وذكر اسمه فى سور كثيرة غيرها بالاختصار ولا سيما المكية ؛ وتكرر ذكره فى خطاب بنى إسرائيل من سورة البقرة المدنية ، وذكر فى غيرها حتى زاد اسمه فى القرآن على ١٣٠ مرة فلم يذكر فيه نبى ولا ملك كما ذكر اسمه ؛ وسبب ذلك أن قصته أشبه قصص الرسل عليهم السلام بقصة خاتمهم محمـــد صلوات الله وسلامه عليه وآله ، من حيث إنه أوتى شريعة دينية دنيوية ، وكون الله تعالى به أمة عظيمة ذات ملك ومدنية ، وسنبين مافيها وفى غيرها من حكم التكرار ، واختلاف التعبير ، فى مواضعها إن شاء الله تعالى .

وفرعون لقب لملوك مصر القدماء كلقب قيصر لملوك الروم . وكسرى لملوك الفرس الأولين ، والشاه لملوك الإيرانيين فى هذا العصر ، وكانوا يطلقون على فرعون لقب الملك أيضاً ،وأما ملؤه فهم أشراف قومه ورجال دولته ، ولم يقل الله عز وجل (إلى فرعون وقومه) لأن الملك ورجال الدولة هم الذين كانوا مستعبدين لبنى إسرائيل وبيدهم أمرهم وليس لسائر المصريين من الأمر شىء ولأنهم كانوا مستعبدين أيضاً ، ولكن الظلم على بنى إسرائيل الغرباء كان أشد ، وإنما بعث الله تعالى موسى لإنقاذ قومه بنى إسرائيل من فرعون ورجال دولته وإقامة دين الله تعالى بهم فى بلاد أجدادهم ، ولو آمن فرعون وملؤه لآمن سائر قومهم لأنهم كانوا تبعاً لهم بل كان هذا شأن جميع الأقوام مع ملوكهم المستبدين الجائرين ،وقد علم الله تعالى أن فرعون وملأه لا يؤمنون

بموسى وأن قومه تبع له ، لا اختيارلهم ، وأكثرهم مقلدون ، ولذلك قتل السحرة لما آمنوا بموسى ، وإنما آمنوا لأنهم كانوا علماء مستقلى العقل أصحاب فهم ورأى ، وكان السحر من علومهم وفنونهم الصناعية التى تتلقى بالتعليم . وليس كالآيات التى جاء بها موسى ، فإنها من خوارق العادات التى لا يقدر عليها إلا الله تعالى ، وقد أقام الله تعالى الحجة بآيات موسى على فرعون وملئه .

والمرجح عند المتأخرين من المؤرخين الواقفين على العاديات المصرية أن فرعون موسى هو الملك (منفتاح) وكان يلقب بسليل الإله (رع) وقد جاء فى آخر الأثر المصرى الوحيد الذى ذكر فيه بنو إسرائيل (وهو المعروف برقم ٣٤٠٢٥ المحفوظ فى متحف مصر) أن مصر هى السليلة الوحيدة للمعبود (رع) منذ وجود الآلهة وأن « منفتاح » سليله أيضاً وهو الجالس على سدة المعبود « شو » وإن الإله « رع » التفت إلى مصر فولد « منفتاح » ملك مصر ، وشىء له أن يكون مناضلا عنها فتخنع له الولادة ولا يرفع أحد من البدو رأسه ، تخضع له القيروانيون والحيثيون والكنعانيون وعسقلان وحزال وينعام . وانفك الإسرائيليون فلا بزر لهم[1] ، وأصبحت فلسطين خلية لمصر والأراضى كلها مضمومة فى حفظه ، (منفتاح) سليل الشمس معطى المعيشة كل نهار مثل الشمس ، وما ذكر لا ينافى ادعاءه الانفراد بالألوهية والربوبية العليا بعد .

وقد بدأت قصة موسى هنا بذكر العبرة منها ، وهى أنهم ظلموا بآيات الله ، وأفسدوا ، وكفروا وعاندوا ، ولجوا فى العناد والطغيان ، فعاقبهم الله ، وأهلكهم ودمرهم ، فانظر يا محمد كيف كان عاقبة المفسدين الطغاة الظالمين المتكبرين على الله وعلى رسالاته .

وحكمة بدء القصة بذكر نتيجتها والعبرة المقصودة منها ، هى أن تكون متصلة بما يناسبها من العبرة فى القصص التى قبلها ، من حيث إهلاك معاندى

---

(١) أى انقطع دابرهم .

الرسل عليهم السلام جحودا واستكبارا ، وقد ذكرت هـذه العبرة بعد جملة تلك القصص لتشابهها مبدأ وغاية كما تقدم ، وقصة موسى طويلة فهى تساويها فى هذا من حيث رسالته إلى فرعون وملئه فقط ؛ وفيها عبر أخرى فيما تشابه به أمر خاتم الرسل صلوات الله عليه من حيث إرساله إلى بنى إسرائيل وإرسال محمد خاتم النبيين إلى العرب وسائر البشر وتوفيق الله قومهما للإيمان ونشر شريعتهما فيمن أرسلا إليهم .

وقد بلغ موسى فرعون وملأه أصول الإيمان الثلاثة : التوحيد والرسالة والبعث والجزاء ، وفى كل سياق من قصة موسى المكررة فى عدة سور فوائد فى ذلك وفى غيره لاتوجد فى الأخرى ؛ وأبسطها وأوسعها بيانا هذه السورة ، الأعراف ، وطه والشعراء والقصص ، وإنما جاء التكرار لجملة القصة لا للتفصيل لها .

وقـد اشتهرت مصر القديمة بالسحر والسحرة ، ولذلك كانت معجزة موسى إلى فرعون شيئا يشبه السحر وإن كان ليس بسحر ، وكانت آياته من جنس ما كان يصنع قوم فرعون وما نبغوا فيه ، وكان السحر ، كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : فنا من فنون قدماء المصريين يتعلمونه فى مدارسهم العالية مع سائر علوم الكون ، وكان كذلك عند أقرانهم من البابليين ، وكذا الهنود وغيرهم ، ولا يزال يؤثر عن الوثنيين منهم أعمال سحرية غريبة ، والمعنى الجامع للسحر أنه أعمال غريبة من التلبيس والحيل تخفى حقيقتها على جماهير الناس لجهلهم بأسبابها ، فمتى عرف سبب شىء منها بطل إطلاق اسم السحر عليه ، ولذلك كان الأقوام الجاهلون يعدون آيات الرسل الكونية التى يؤيدهم الله تعالى بها من قبيل السحر ، ويجعلون هذا مانعا من دلالتها على صدقهم وتأييد الله تعالى لهم ، لأن السحر صنعة تتلقى بالتعليم والتمرين ، فيمكن لكل أحد أن يكون ساحرا إذا أتيح له من يعلمه السحر . ومن المعلوم فى التاريخ القديم والحديث أن السحر لايروج إلا بين الجاهلين ، وله المكانة المهيبة المخيفة بين

أعرق القبائل فى الهمجية ، ولا يكاد يوجد فى البلاد التى ينتشر فيها العلم والعرفان والسحر ، ثلاثة أنواع :ـ كما يقول الشيخ رشيد رضا .

١ ـــ مايعمل بالأسباب الطبيعية من خواص المادة المعروفة للعامل المجهولة عند من يسحرهم بها ، ومنها الزئبق الذى قيل إن سحرة فرعون وضعوه فى حبالهم وعصيهم . ولو شاء علماء الطبيعة والكيمياء فى هذا العصر أن يجعلوا أنفسهم سحرة فى بلاد أواسط أفريقية الهمجية وأمثالها من البلاد الجاهلة التى يروج فيها السحر العتيق لأروهم من عجائب الكهرباء وغيرها مايخضعونهم به لعبادتهم لو ادعوا الألوهية فيهم .

٢ ـــ الشعوذة التى مدار البراعة فيها على خفة اليدين فى إخفاء بعض الأشياء وإظهار بعض ، وإراءة بعضها بغير صورها ، وغير ذلك مما هو معروف فى هذه البلاد وغيرها من بلاد الحضارة بكثرة المكتسبين بها من الوطنيين والغرباء . ولم يبق أحد فى هذه البلاد يسميها سحرا .

٣ ـــ ما مداره على تأثير الأنفس ذوات الإرادة القوية فى الأنفس الضعيفة ذات الأمزجة العصبية القابلة للأوهام والانفعالات ، وهذا النوع هو الذى قيل: إن أصحابه يستعينون على أعمالهم بأرواح الشياطين ، ومنهم الذين يكتبون الأوفاق والطلسمات للحب والبغض وغير ذلك . ومن يقول : إن للحروف خواص وتأثيرات ذاتية يخرج عمل الأوفاق والنشرات ومافى معناها من السحر . ومن هذا النوع ما استحدث فى هذا العصر من التنويم المغناطيسى.

ويقول ابن فارس فى السحر : هو إخراج الباطل فى صورة الحق . وقال الراغب الأصفهانى فى مفرداته لغريب القرآن مانصه : تعريف السحر ومأخذه من اللغة : السحر بالفتح طرف الحلقوم والرئة ، وقيل: انتفخ سحره ، وبعير سحر ، عظيم السحر ، وقيل منه اشتق السحر وهو إصابة السحر . والسحر يقال على معان :

١ ـــ خداع وتخييلات لاحقيقة لها نحو مايفعله المشعوذ بصرف الأبصار

عما يفعله لخفة يد ، وما يفعله النمام بقول مزخرف عائق للأسماع ، وعلى ذلك قوله تعالى «سحروا أعين الناس واسترهبوهم» ، وقال «يخيل إليه من سحرهم» وبهذا النظر سموا موسى عليه السلام ساحراً فقالوا «ياأيها الساحر ادع لنا ربك».

٢ — استجلاب معاونة الشياطين بضرب من التقرب إليهم كقوله تعالى «هل أنبئكم على من تنزل الشياطين ؟ تنزل على كل أفاك أثيم» ، وعلى ذلك قوله تعالى «ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» .

٣ — مايذهب إليه الرعاع وهو اسم لفعل يزعمون أنه من قوته يغير الصور والطبائع ، فيجعل الإنسان حمارا ولا حقيقة لذلك عند المحصلين . وقد تصوروا من السحر تارة حسنه فقيل «إن من البيان لسحراً» ، وتارة دقة فعله حتى قالت الأطباء : الطبيعة ساحرة ، وسموا الغذاء سحراً من حيث أنه يدق ويلطف تأثيره .

وقد عقد الرازى المعروف بالجصاص بابا خاصا من تفسيره «أحكام القرآن» لبيان معنى السحر وحكم الساحر عند كلامه على قوله تعالى «واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر» ، قال فى أوله السحر على ضروب مختلفة .

١ — فمنه سحر أهل بابل الذين ذكرهم الله تعالى فى قوله «يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت» ، وكانوا قوما صابئين يعبدون الكواكب السبعة ويسمونها آلهة . ويعتقدون أن حوادث العالم كلها من أفعالها ، وهم معطلة لا يعترفون بالصانع الواحد المبدع للكواكب وجميع أجرام العالم ، وهم الذين بعث الله تعالى إليهم إبراهيم خليله صلوات الله عليه فدعاهم إلى الله تعالى وحاجهم بالحجاج الذى بهرهم به وأقام عليهم به الحجة من حيث لم يمكنهم دفعه ، ثم ألقوه فى النار فجعلها الله بردا وسلاما . ثم أمره الله تعالى بالهجرة إلى الشام . وكان أهل بابل وإقليم العراق والشام ومصر والروم على هذه المقالة إلى أيام بويوراسب الذى تسميه العرب الضحاك .

وأن افريدون وكان من أهل دنباوند استجاش عليه بلاده وكاتب سائر من يطيعه وله قصص طويلة حتى أزال ملكه وأسره . وجهال العامة والنساء عندنا يزعمون أن افريدون حبس بيوراسب فى جبل دنباوند العالى على الجبال وأنه حى هناك مقيد ، وأن السحرة يأتونه هناك فيأخذون عنه السحر، وأنه سيخرج فيغلب على الأرض ، وأنه هو الدجال الذى أخبر به النبى وحذرناه منه ، وأحسبهم أخذوا ذلك عن المجوس . وصارت مملكة إقليم بابل للفرس ، فانتقل بعض ملوكهم إليها فى بعض الأزمان فاستوطنوها ، ولم يكونوا عبدة أوثان ، بل كانوا موحدين مقرين بالله وحده ، إلا أنهم مع ذلك يعظمون العناصر الأربعة : الماء والنار والأرض والهواء لما فيها من منافع الخلق . وأن بها قوام الحيوان ، وإنما حدثت المجوسية فيهم بعد ذلك ، ولما ظهر الفرس على هذا الإقليم كانت تتدين بقتل السحرة وإبادتها ، ولم يزل ذلك فيهم ومن دينهم بعد حدوث المجوسية فيهم وقبله إلى أن زال عنهم الملك . وكانت علوم أهل بابل قبل ظهور الفرس عليهم الحيل وأحكام النجوم ، وكانوا يعبدون أوثانا قد عملوها على أسماء الكواكب السبعة وجعلوا لكل واحد منها هيكلا فيه صنمه ، ويتقربون إليها بضروب من الأفعال على حسب اعتقاداتهم من موافقة ذلك للكوكب الذى يطلبون منه بزعمهم فعل خير أو شر ، فمن أراد شيئا من الخير والصلاح بزعمه يتقرب إليه بما يوافق المشترى من الدخن والرقى والعقد والنفث عليها ومن طلب شيئا من الشر والحرب والموت والبوار لغيره تقرب بزعمه إلى زحل بما يوافقه من ذلك ، ومن أراد البرق والحرق والطاعون تقرب بزعمه إلى المريخ بما يوافقه من ذلك من ذبح بعض الحيوانات . وجميع تلك الرقى بالنبطية تشتمل على تعظيم تلك الكواكب إلى ما يريدون من خير أو شر ومحبة وبغض، فيعطيهم ما شاءوا من ذلك فيزعمون أنهم عند ذلك يفعلون ماشاءوا فى غيرهم من غير مماسة ولا ملامسة سوى ما قدموه من القربات للكوكب الذى طلبوا ذلك منه . فمن العامة من يزعم أنه يقلب الإنسان حماراً أو كلبا ثم إذا شاء أعاده ، ويركب البيضة والمكنسة والخابية

ويطير فى الهواء فيمضى من العراق إلى الهند وإلى ما شاء من البلدان ثم يرجع من ليلته ؛ وكانت عوامهم تعتقد ذلك لأنهم كانوا يعبدون الكواكب وكل ما دعا إلى تعظيمها اعتقدوه . وكانت السحرة تحتال فى خلال ذلك بحيل تموه بها على العامة إلى اعتقد صحته ، بأن يزعم أن ذلك لا ينفذ ولا ينتفع به أحد ولا يبلغ ما يريد إلا من اعتقد صحة قولهم وتصديقهم فيما يقولون . ولم تكن ملوكهم تعترض عليهم فى ذلك بل كانت السحرة عندها بالمحل الأجل لما كان لها فى نفوس العامة من محل التعظيم والإجلال ، ولأن الملوك فى ذلك الوقت كانت تعتقد ما تدعيه السحرة للكواكب ، إلى أن زالت تلك الممالك . ألا ترى أن الناس فى زمن فرعون كانوا يتبارون بالعلم والسحر والحيل ، ولذلك بعث إليهم موسى عليه السلام بالعصا والآيات التى علمت السحرة أنها ليست من السحر فى شىء . وأنها لا يقدر عليها غير الله تعالى ، فلما زالت تلك الممالك وكان من ملكهم بعد ذلك من الموحدين يطلبونهم ويتقربون إلى الله بقتلهم .

ومن ضروب السحر كثير من التخيلات التى مظهرها على خلاف حقائقها: فمنها ما يعرفه الناس بجريان العادة بها وظهورها ومنها ما يخفى ويلطف ، ولا يعرف على حقيقته ومعنى باطنه إلا من تعاطى معرفة ذلك ، لأن كل علم لا بد أن يشتمل على جلى وخفى وظاهر وغامض ، فالجلى منه يعرفه كل من رآه وسمعه من العقلاء والغامض الخفى لا يعرفه إلا أهله ومن تعاطى معرفته وتكلف فعله والبحث عنه ، وذلك نحو ما يتخيل راكب السفينة إذا سارت فى النهر فيرى أن الشط بما عليه من النخل والبنيان سائر معه ، وكما يرى القمر فى مهب الشمال يسير للغيم فى مهب الجنوب .

ومنها ما يلطف فلايعرفه إلا من تعاطاه وتأمله كخيط السحارة الذى يخرج مرة أحمر ومرة أصفر ومرة أسود . ومن لطيف ذلك ودقيقه ما يفعله المشعوذون من جهة الحركات وإظهار التخيلات التى تخرج على غير حقائقها حتى يريك عصفوراً معه أنه قد ذبحه ثم يريكه وقد طار بعد ذبحه وإبانة رأسه وذلك لخفة حركته .

ومنها الصور التى يصورها مصورو الروم والهند حتى لا يفرق الناظر بين الإنسان وبينها ، ومن لم يتقدم له علم أنها صورة لا يشك فى أنها إنسان ، وحتى تصورها ضاحكة أو باكية وحتى يفرق فيها بين الضحك من الخجل والسرور ، وضحك الشامت .

فهذه الوجوه من لطيف أمور التخاييل وخفيها ، وما ذكرناه قبل من جليها وكان سحر سحرة فرعون من هذا الضرب على النحو الذى بينا من حيلهم فى العصى والحبال .

٢ — ضرب آخر من السحر وهو ما يدعونه من حديث الجن والشياطين وطاعتهم لهم بالرقى والعزائم ، ويتصلون إلى ما يريدون من ذلك بتقدمة أمور ومواطأة قوم قد أعدوهم لذلك ، وعلى ذلك كان يجرى أمر الكهان من العرب فى الجاهلية .

٣ — ضرب آخر من السحر ، وهى السعى بالنميمة والوشاية بها والبلاغات والإفساد والتضريب من وجوه خفية لطيفة ، وذلك عام شائع فى كثير من الناس .

٤ — وضرب آخر من السحر ، وهو الاحتيال فى إطعامه بعض الأدوية المبلدة المؤثرة فى العقل .

والفرق بين معجزات الأنبياء وبين ما ذكرنا من وجوه التخييلات ، إن معجزات الأنبياء عليهم السلام هى على حقائقها ، وبواطنها كظواهرها ، وكلما تأملتها ، ازددت بصيرة فى صحتها ، ولو جهد الخلق كلهم على مضاتها ومقابلتها بأمثالها ظهر عجزهم . ومخاريق السحرة وتخييلاتهم إنما هى ضرب من الحيلة والتلطف لأظهار أمور لاحقيقة لها ، وما يظهر منها على غير حقيقتها ، يعرف ذلك بالتأمل والبحث ، ومتى شاء أن يتعلم ذلك بلغ فيه مبلغ غيره ، ويأتى بمثل ما أظهره سواء .

ولنبدأ بتحليل الآيات الأربع عشرة الكريمة التى نحن بصدد تفسيرها

هنا فى هذا المقام ، يقول الله عز وجل فى هذه الآيات . . «ثم بعثنا من بعدهم» أى الرسل المذكورين وهم نوح وهود وصالح ولوط وشعيب عليهم الصلاة والسلام ، أو من بعد الأمم المهلكين «موسى» عليه السلام «بآياتنا» أى بحجتنا الدالة على صدقه كاليد والعصا «إلى فرعون» هو كما سبق علم لملوك مصر ككسرى كملوك فارس وقيصر لملوك الروم ، والنجاشى لملوك الحبشة «وملئه» أى عظماء قومه ، وخصهم لأنهم إذا أذعنوا أذعن من دونهم فكأنهم المقصودون بالذكر ، والإرسال إليهم إرسال إلى الكل «فظلموا» أى كفروا «بها» أى بسبب رؤيتها خوفا على رياستهم ودولتهم أن تخرج من أيديهم «فانظر» أى أيها المخاطب بعين البصيرة «كيف كان عاقبة المفسدين» أى آخر أمرهم ، أى كيف فعلنا بهم وكيف أهلكناهم «وقال موسى» لما دخل على فرعون «يا فرعون» خاطبه بما يعجبه امتثالا لأمر الله له أن يلين فى خطابه وذلك لأن فرعون لقب مدح لمن ملك مصر «إنى رسول» أى مرسل إليك وإلى قومك «من رب العالمين» أى الإله الذى خلق الخلق وهو سيدهم ومالكهم «حقيق على أن لا أقول على الله إلا الحق» جواب لتكذيب فرعون إياه فى دعواه الرسالة ، وإن لم يذكره ، لدلالة قوله «فظلموا بها» . . والحق هو الثابت الدائم ، والحقيقة مبالغة فيه ، وكأن المعنى : أنا ثابت مستمر على أن لا أقول على الله إلا الحق «قد جئتكم ببينة» أى معجزة «من ربكم» على صدقى فيما أدعى من الرسالة ، وهى العصا واليد البيضاء . . ثم أن موسى عليه السلام لما فرغ من تبليغ رسالته رتب على ذلك الحكم قوله «فأرسل معى بنى إسرائيل» أى تخلهم حتى يرجعوا معى إلى الأرض المقدسة التى هى وطن آبائهم وكان قد استعبدهم واستخدمهم فى الأعمال الشاقة من ضرب اللبن ونقل التراب ونحوهما «قال» فرعون مجيبا لموسى عليه السلام «إن كنت جئت بآية» أى علامة ومعجزة على صحة رسالتك «فأت بها إن كنت من الصادقين» أى فى عداد أهل الصدق لتصح دعواك عندى وتثبت «فألقى عصاه فإذا هى» أى العصا «ثعبان مبين» أى ظاهر أمره لاشك فيه أنه ثعبان ، والثعبان الذكر

العظيم من الحيات . وقد قال الله تعالى : فى موضع « كأنها جان » ، والجان الحية الصغيرة . ولكن المراد أنها كانت كالجان فى الخفة والحركة وهى فى حقيقتها حية عظيمة ، روى أنه لما ألقاها صارت حية عظيمة فاغرة فاها ، وتوجهت نحو فرعون لتأخذه فوثب فرعون عن سريره هاربا ، وحملت على الناس فانهزموا وصاحوا ومات منهم خمسة وعشرين ألفا ، ودخل فرعون البيت وصاح : يا موسى أنشدك الله الذى أرسلك أن تأخذها وأنا أؤمن بك وأرسل معك بنى إسرائيل فأخذها موسى فعادت عصا كما كانت ثم قال : هل معك آية أخرى قال : نعم « ونزع يده » أى أخرج يده من جيبه ، وقيل : من تحت إبطه « فإذا هى بيضاء » نورانية « للناظرين » لها شعاع غلب شعاع الشمس ، قال ابن عباس : كان لها نور ساطع يضىء ما بين السماء والأرض ، ولها لمعان مثل لمعان البرق فخروا على وجوههم ثم ردها إلى جنبه فإذا هى كما كانت ، ولما كان البياض المفرط عيبا فى الجسد وهو البرص قال الله تعالى فى آية أخرى : « من غير سوء » ، أى من غير برص ، والمعنى : فإذا هى بيضاء للنظارة ولا تكون بيضاء للنظارة إلا إذا كان بياضها بياضاً عجيبا خارجا عن العادة يجتمع الناس للنظر إليه كما يجتمع النظارة للعجائب ، وأحد هذين الأمرين إما العصا وإما اليد كان كافيا ، ولكن فائدة الجمع بينهما هو أن كثرة الدلائل توجب القوة فى اليقين وزوال الشك ، وقال بعض الناس : إن المراد بالثعبان وباليد البيضاء شىء واحد ، وهو أن حجة موسى عليه السلام كانت قوية ظاهرة من حيث إنها أبطلت أقوال المخالفين وأظهرت فسادها كانت كالثعبان العظيم الذى يتلقف حجج المبطلين ، ومن أنها كانت ظاهرة فى نفسها وصفت باليد البيضاء كما يقال فى العرف : لفلان يد بيضاء فى العلم الفلانى أى قوية كاملة ومرتبة ظاهرة وهذا مردود لأن حمل هذين المعجزتين على هذا الوجه يجرى مجرى التواتر « قال الملأ » أى السادة والعظماء « من قوم فرعون إن هـذا » أى موسى « لساحر عليم » أى عالم بالسحر ماهر فيه ، قد أخذ بأعين الناس ، ويريهم الشىء بخلاف ما هو عليه حتى يخيل إليهم أن العصا صارت حية ؛ كما أراهم يده بيضاء

وهو آدم اللون ، وإنما قالوا ذلك لأن السحر كان هو الغالب فى ذلك الزمان ، وقد أخبر الله تعالى فى هذه السورة أن هذا الكلام من قول الملأ لفرعون ، وقال فى سورة الشعراء : وقال فرعون للملأ حوله : إن هذا لساحر عليم ، فكيف الجمع بينهما ؟ وقد أجيب عن ذلك بجوابين :

الأول لا يمتنع أن يكون قاله فرعون ، ثم إنهم قالوه بعده فأخبر الله عنهم هنا وأخبر عن فرعون فى سورة الشعراء .

الثانى أن فرعون قال هذا القول ثم إن الملأ من قومه وهم خاصته سمعوه منه ثم إنهم بلغوه إلى العامة ، فأخبر الله تعالى هنا عن الملأ وأخبر هناك عن فرعون « يريد » أى موسى « أن يخرجكم » أيها القبط « من أرضكم » أى من أرض مصر « فماذا تأمرون » أى أى شىء تشيرون أن نفعل به ، فقوله « فماذا تأمرون » من قول فرعون وإن لم يذكره ، وقيل : هو من قول الملأ ، وتم كلام فرعون عند قوله « يريد أن يخرجكم من أرضكم » فقال الملأ مجيبين له « فماذا تأمرون ؟ » وإنما خاطبوه بلفظ الجمع وهو واحد على عادة الملوك فى التعظيم والتفخيم : والمعنى فماذا ترون أن نفعل به ؟ والقول الأول أصح لسياق الآية التى بعدها « قالوا أرجه » أى موسى « وأخاه » أى هارون عليهما السلام أى أخر أمرهما ولا تعجل فيه حتى تنظر فيه فى أمرهما ، والإرجاء فى اللغة : التأخير ، وقيل : الحبس أى احبسه وأخاه ، ورد بأن فرعون ما كان يقدر على حبس موسى بعد ما رأى من أمر العصا ما رأى « وأرسل فى المدائن » جمع مدينة من مدن بالمكان أى أقام به أى مدائن صعيد مصر « حاشرين » أى أرسل رجالا من أعوانك وهم الشرط طائفة من أعوان الولاة يحشرون إليك السحرة من جميع مدائن الصعيد، وكان رؤساء السحرة بأقصى مدائن الصعيد فإن غلبهم موسى صدقناه وتبعناه وإن غلبه السحار علمنا أنه ساحر « يأتوك » أى هؤلاء الجند « بكل ساحر عليم » أى ماهر بصناعته ، والساحر الذى يعلم السحر ولا يعلم ، والسحار من يريهم السحر ، وقد بعث فرعون فى مملكته فلم يترك فى سلطانه ساحرا إلا أتى به وهذا يدل على أن السحرة كانوا

كثيرين فى ذلك الزمان، وهو يدل على صحة مايقول المتكلمون ، وهو أنه سبحانه وتعالى يجعل معجزة كل نبى من جنس ما كان غالبا على أهل ذلك الزمان ، فلما كان السحر غالبا على أهل زمان موسى كانت معجزته مشبهة بالسحر وإن كانت مخالفة للسحر فى الحقيقة ، ولما كان الطب غالبا على أهل زمان عيسى كانت معجزته من جنس الطب ، ولما كانت الفصاحة غالبا على أهل زمان محمد صلى الله عليه وسلم كانت معجزته من جنس الفصاحة ، واختلفوا فى عدد السحرة الذين جمعهم فرعون فمن مقل ومن مكثر، وليس فى الآية مايدل على المقدار والكيفية والعدد ولذلك اختلف فى عددهم ، فقال مقاتل كانوا اثنين وسبعين : اثنان من القبط وهم رؤساء القوم ،وسبعون من بنى إسرائيل ، وقال الكلبى : كان الذين يعلمونهم رجلين مجوسيين من أهل نينوى بلدة يونس عليه السلام وكانوا سبعين غير رئيسهم ، وجاء السحرة فرعون ، بعد ماأرسل الشرط فى طلبهم ،قالوا أئن لنا لأجرا، أى جعلا وعطاء تكرمنا به ،إن كنا نحن الغالبين، لموسى ، وهذا الأسلوب على تقدير سائل سأل : ماذا قالوا إذ جاءوا ؟ فأجيب بقوله ، أئن لنا لأجرا إن كنا نحن الغالبين ، ، ، قال ، لهم فرعون ،نعم ، أى لكم الأجر والعطاء ، وإنكم لمن المقربين ، أراد : إنى لاأقتصر على الثواب بل أزيدكم عليه ، وتلك الزيادة أنى أجعلكم من المقربين عندى ، وقال الكلبى: تكونون أول من يدخل وآخر من يخرج من عندى ، والآية تدل على أن كل الخلق كانوا عالمين بأن فرعون كان عاجزا وإلا لما احتاج إلى الاستعانة بالسحرة فى دفع موسى ، والمقصود من هذه الآيات تنبيه الإنسان لهذه الدقائق وأن لايغتر بكلمات أهل الأباطيل والأكاذيب ، قالوا ، أى السحرة ، إما أن تلقى ، أى عصاك ، وإما أن نكون نحن الملقين ، أى عصينا وحبالنا ، فراعوا مع موسى عليه السلام حسن الأدب حيث قدموه على أنفسهم فى الإلقاء، فمن عليهم الله تعالى حيث تأدبوا مع نبيه عليه السلام بالإيمان والهداية ، ولما راعوا الأدب أولا وأظهروا مايدل على رغبتهم ، قال، لهم موسى ، ألقوا ، أنتم فقدمهم على نفسه فى الإلقاء ، وجاز لنبى الله تعالى موسى عليه السلام أن يأمر بالإلقاء، وقد

علم أنه سحر وفعل السحر حرام أو كفر لأن معناه: إن كنتم محقين فى فعلكم فألقوا وقيل: أذن لهم فى التقديم ازدراء لشأنهم وقلة مبالاة بهم وثقة بما وعده الله تعالى من التأييد والتقوية وإن المعجزة لا يغلبها سحر أبدا، وقيل: كان موسى عليه السلام يريد إبطال ما أتوا به من السحر وإبطاله ما كان يمكن إلا بتقديمهم فأذن لهم فى الإتيان بذلك السحر ليمكنه الإقدام على إبطاله، فلهذا المعنى أمرهم بالإلقاء أولا «فلما ألقوا» حبالهم وعصيهم «سحروا» أى صرفوا «أعين الناس» عن إدراك حقيقة ما فعلوه من التمويه والتخييل، وهذا هو الفرق بين السحر الذى هو فعل البشر وبين معجزة الأنبياء الذى هو فعل الله تعالى، وذلك لأن السحر ليس فيه قلب الأعيان، وإنما فيه صرف أعين الناس عن إدراك ذلك الشىء بسبب التمويهات، والمعجزة قلب ذلك الشىء حقيقة كقلب عصا موسى عليه السلام فإذا هى حية تسعى «واسترهبوهم» أى أرهبوهم وقال الزجاج: استدعوا رهبة الناس حتى رهبهم الناس: وذلك بأن بعثوا جماعة ينادون عند إلقاء ذلك: أيها الناس احذروا فهذا هو الاسترهاب «وجاءوا» أى السحرة «بسحر عظيم»، روى أن السحرة قالوا: قد علمنا سحرا لا تطيقه سحرة أهل الأرض إلا أن يكون أمرا من السماء فإنه لا طاقة لنا به، وذلك أنهم ألقوا حبالا غلاظا ونشبا طوالا فإذا هى حيات تسعى مثل الحبال قد ملأت الوادى يركب بعضها بعضا. ويقال: إن الأرض كان سعتها ميلا فى ميل فصارت كلها حيات وأفاعى، ففزع الناس من ذلك وأوجس فى نفسه خيفة موسى، وهذه الخيفة لم تحصل لموسى عليه السلام لأجل سحرهم، لأنه كان على ثقة ويقين من الله تعالى أنهم لن يغلبوه وهو غالبهم، وكان عالما بأن ما أتوا به على وجه المعارضة لمعجزته، فهو من باب السحر والتخييل وذلك باطل، ومع هذا الجزم يمتنع حصول الخوف لموسى عليه السلام، وإنما كان خوفه لأجل فزع الناس واضطرابهم مما رأوا من أمر تلك الحيات، فخاف موسى عليه السلام أن يتفرقوا قبل معجزته وحجته فلذلك أوجس فى نفسه خيفة موسى.

هذه هى أطراف من قصة موسى عليه السلام؛ وهى تتناول رسالته

ومعجزاته ، وموقف فرعون منهما ، وقد جاء فى سفر الخروج (الاصحاح ١ — ٤٠) ، وسفر للاويين (١ — ٢٧) وسفر العدد (١ - ٣٦) ، وسفر التثنية (١ — ٣٤) وهى كلها من أسفار العهد القديم ذكر لموسى وحياته وتاريخه ورسالته . . وفى الإصحاح الرابع من سفر الخروج ذكر لمعجزات موسى : « قال له الرب : ماهـذه فى يدك ؟ فقال : عصا ، فقال : اطرحها إلى الأرض ، فطرحها إلى الأرض فصارت حية ، فهرب موسى منها ، ثم قال الرب لموسى : مد يدك وأمسك بذنبها ، فمد يده وأمسك به ، فصارت عصا فى يده . . . ثم قال له الرب أيضاً : أدخل يدك فى عبك ، فأدخل يده فى عبه ، ثم أخرجها ، وإذا يده برصاء مثل الملح ، ثم قال له رد يدك إلى عبك ، فرد يده ، ثم أخرجها ، وإذا هى قد عادت مثل جسده . . وفى الإصحاح السابع : من سفر الخروج أيضاً : « وكلم الرب موسى . وهارون قائلا : إذا كلمكما فرعون قائلا : هاتيا عجيبة تقول لهرون : خذ عصاك واطرحها أمام فرعون فتصير ثعبانا ، فدخل موسى وهارون إلى فرعون ، وفعلا هكـذا كما أمر الرب ، طرح هرون عصاه أمام فرعون وأمام عبيده ، فصارت ثعبانا ، فدعا فرعون الحكماء والسحرة ، ففعل عرافو مصر أيضاً بسحرهم كـذلك ، طرح كل واحد عصاه ، فصارت العصى ثعابين ، ولـكن عصا هرون ابتلعت عصيهم[1]

وبذلك ينتهى الربع الأول من هـذا الجزء التاسع ، وقد احتوى على ما احتوى عليه من ذكر قصة شعيب ، وذكر أطراف من قصة موسى عليه السلام ، وتوسط بين القصتين ذكر مواطن العبرة والعظة من كفر الأمم الخالية بأنبيائها ورسلها ، ومن جدى الإيمان بالرسالات على هذه الأمم وعلى الإنسانية عامة لو أنها آمنت برسلها وبالرسالات التى نزلت عليهم .

---

(١) هنا يبدو الخلط بين موسى وهرون فى أمر المعجزة .

الربع الثانى

١١٧ — وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِىَ تَلْقَفُ
مَا يَأْفِكُونَ .

١١٨ — فَوَقَعَ ٱلْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١١٩ — فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَٱنقَلَبُوا صَٰغِرِينَ .

١٢٠ — وَأُلْقِىَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ .

١٢١ — قَالُوٓا ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ .

١٢٢ — رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ .

١٢٣ — قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّ هَٰذَا
لَمَكْرٌ مَّكَرْتُمُوهُ فِى ٱلْمَدِينَةِ لِتُخْرِجُوا مِنْهَآ أَهْلَهَا
فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ .

١٢٤ — لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ ثُمَّ لَأُصَلِّبَنَّكُمْ
أَجْمَعِينَ .

١٢٥ — قَالُوٓا إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ .

١٢٦ — وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنْ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتْنَا رَبَّنَآ
أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ .

« وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك » فألقاها فصارت حية عظيمة ، قد سدت الأفق، قال ابن زيد : كان اجتماعهم بالاسكندرية « فإذا هى تلقف » أى تبتلع « ما يأفكون » أى ما يزورونه ، من الإفك وهو الصرف وقلب الشيء عن وجهه ، روى أنها ابتلعت كل ما أتوا به من السحر فكانت تبتلع حبالهم

وعصيهم واحداً واحدا حتى ابتلعت الكل ثم أقبلت على الذين حضروا ذلك المجمع ففزعوا ووقع الزحام عليهم فمات منهم بسبب ذلك الزحام الكثيرون ؛ ثم أخذها موسى عليه السلام فصارت فى يده عصا كما كانت أول مرة فلما رأى السحرة ذلك عرفوا أنه أمر من السماء ، وليس بسحر ، وعرفوا أن ذلك ليس من قدرة البشر وقوتهم ، فعند ذلك خروا سجدا لله ، وقالوا آمنا برب العالمين « فوقع الحق » أى فظهر الحق الذى جاء به موسى « وبطل ما كانوا يعملون » أى من السحر ، وذلك أن السحرة قالوا : لو كان ما صنع موسى سحرا لبقيت حبالنا وعصينا فلما فقدت وتلاشت فى عصا موسى علموا أن ذلك من أمر الله تعالى وقدرته « فغلبوا » أى فرعون وجموعه « هنالك » أى عند ذلك الأمر العظيم العالى الرتبة « وانقلبوا صاغرين » أى رجعوا إلى المدينة أذلاء مقهورين « وألقى السحرة ساجدين » أى أن الله تعالى ألهمهم ذلك وحملهم عليه حتى ينكسر فرعون بالذين أراد بهم كسر موسى وينقلب الأمر عليه ، قال الأخفش : من سرعة ما سجدوا كأنهم ألقوا « قالوا آمنا برب العالمين » قال فرعون : إياى تعنون ؟ قالوا : لا ، بل « رب موسى » فقال : إياى تعنون لأنى أنا الذى ربيت موسى ، فلما قالوا « وهرون » زالت الشبهة وعرف الكل أنهم كفروا بفرعون وآمنوا بإله السماء ، قال مقاتل : قال موسى لكبير السحرة : تؤمن بى إن غلبتك ؟ فقال : لآتين بسحر لا يغلبه سحر ، ولئن غلبتنى لأؤمنن بك وفرعون ينظر إليهما ويسمع كلامهما ، فهذا قوله « إن هذا لمكر مكرتموه » ولما ابتلعت عصا موسى عليه السلام الحبال والعصى قال بعضهم لبعض : هذا أمر خارج عن هذا السحر وما هو إلا أمر من السماء فآمنوا وصدقوا ، وكان يجب أن يأتوا بالإيمان قبل السجود ، ولكن فائدة تقديم السجود على الإيمان هو أن الله تعالى لما قذف فى قلوبهم الإيمان والمعرفة خروا سجداً لله تعالى شكرا على ما هداهم إليه وألهمهم من الإيمان بالله وتصديق رسوله ، ثم أظهروا بعد ذلك إيمانهم ، وقال قتادة : كانوا أول النهار كفارا سحرة وفى آخره شهداء بررة ؛ وعن الحسن : نرى من ولد فى الإسلام ونشأ بين المسلمين

يبيع دينه بكذا وكذا وهؤلاء كفار نشأوا في الكفر ثم بذلوا أنفسهم لله تعالى «قال فرعون» للسحرة منكرا عليهم وموبخا لهم «آمنتم» أى صدقتم «به» أى بموسى أو بالله ، والاستفهام فيه للإنكار والتوبيخ «قبل ان آذن لكم» أى قبل أن آمركم بذلك وآذن لكم فيه «إن هذا لمكر مكرتموه» اى إن هذا الصنيع لحيلة احتلتموها أنتم وموسى فى «المدينة» أى مصر قبل خروجكم إلى هذا الموضع ، وذلك أن فرعون رأى موسى يحدث كبير السحرة فظن فرعون أن موسى وكبير السحرة قد تواطأوا عليه وعلى اهل مصر ليستولوا على مصر ، كما قال «لتخرجوا منها أهلها» أى القبط وتخلص لكم ولبنى إسرائيل «فسوف تعلمون» فيه وعيد وتهديد أى فسوف تعلمون ماأفعل بكم «لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف» ، هذا تفسير الوعيد ، أى يخالف الطرف الذى تقطع منه اليد الطرف الذى تقطع منه الرجل ، قال الكلبي: لأقطعن أيديكم اليمنى وأرجلكم اليسرى «ثم لأصلبنكم» أى أعاقبكم بممدودة أيديكم لتصير على هيئة الصليب «أجمعين» أى لا أترك منكم أحدا تفضحا لكم وتنكيلا لأمثالكم ، قال ابن عباس : أول من صلب وقطع الأيدى والأرجل فرعون ، أى أنه أول من سن ذلك فشرعه الله تعالى للقطاع تعظيما لجرمهم ولذلك سماه محاربة الله ورسوله ولكن على التعاقب لفرط رحمته «قالوا» أى السحرة مجيبين لفرعون حين أوعدهم بما ذكر «إنا إلى ربنا» بعد موتنا بأى وجه كان «منقلبون» أى راجعون إليه فى الآخرة «وما تنقم» أى تنكر «منا» أى فى فعلك ذلك بنا وتعيب علينا «إلا أن آمنا» أى إلا ماهو أصل المفاخر كلها وهو الإيمان «بآيات ربنا لما جاءتنا» لم نتأخر عن معرفة الصدق وهذا موجب الإكرام لا الانتقام، ثم فزعوا إلى الله تعالى فقالوا «ربنا أفرغ علينا صبرا» عندما توعدهم فرعون به أى أصبب علينا صبرا كاملا تاما ، ولهذا أتى بلفظ التنكير، أى وأى صبر عظيم «وتوفنا مسلمين» أى واقبضنا على دين الإسلام وهو دين خليلك عليه السلام ، قال ابن عباس : كانوا فى أول النهار سحرة ، وفى آخر النهار شهداء ، وقال الطيبي : إن فرعون قطع أيديهم وأرجلهم وصلبهم وقال

غيره: إنه لم يقدر عليهم لقوله تعالى «أنتما ومن اتبعكما الغالبون» وفي الآية فوائد جمة:

الأولى ـ قولهم: أفرغ علينا صبرا، أكمل من قولهم: أنزل علينا صبرا، لأن إفراغ الإناء هو صب مافيه بالكلية، فكأنهم طلبوا من الله تعالى كل الصبر لا بعضه.

الثانية ـ أن قولهم صبرا مذكورة بصيغة التنكير وذلك يدل على تمام الكمال أي صبرا تاما كاملا.

الثالثة ـ أن ذكر الصبر من قبلهم ومن أعمالهم، ثم أنهم طلبوه من الله تعالى وذلك يدل على أن فعل العبد لا يحصل إلا بخلق الله تعالى وقضائه.

الرابعة ـ احتج القاضي بهذه الآية على أن الإيمان والإسلام واحد، فقال إنهم قالوا «إلا أن آمنا بآيات ربنا» ثم قالوا ثانيا: «وتوفنا مسلمين» فوجب أن يكون ذلك الإيمان هو ذلك الإسلام، وذلك يدل على أن أحدهما هو الآخر، واعلم أن فرعون بعد وقوع هذه الواقعة لم يتعرض لموسى لأنه كان كلما رأى موسى خافه أشد الخوف، فلهذا لم يتعرض له، ولم يكن القوم يعرفون ذلك، فقالوا: أتذر موسى وقومه ليفسدوا الخ.

ومعنى: «ربنا أفرغ علينا صبراً وتوفنا مسلمين» أي ربنا هب لنا صبراً واسعاً تفيضه وتفرغه علينا إفراغا بتثبيتك إيانا على الإيمان وتأييدنا بروحك فيه كما يفرغ الماء من القرب، حتى لا يبقى في قلوبنا شيئاً من خوف غيرك، ولا من الرجاء فيما سوى فضلك ونوالك. وتوفنا إليك حال كوننا مسلمين لك مذعنين لأمرك ونهيك، مستسلمين لقضائك، غير مفتونين بتهديد فرعون وغير مطيعين له في قول ولا فعل، جمعوا بدعائهم هذا بين كمال الإيمان والإسلام.. ويدل على ما قررناه من المبالغة في طلب كمال الصبر ـ تنكيره والتعبير عن إيتائه بالإفراغ وهو صب الماء الكثير من الدلو ونحوه، وأما تصويرنا لحصول ذلك بقوة الإيمان فأخذه من العقل والتجارب أن الصبر من صفات النفس وهو عبارة عن قوة فيها على احتمال الآلام والمكاره بغير تبرم ولا حرج يحملها على مالا ينبغي من ترك الحق أو اجتراح الباطل، ولا شيء

كالإيمان بالله والخوف منه والرجاء فيه يقوى هذه الصفة فى النفس ، ومأخذه من النقل آيات كقوله تعالى ، فى بيان المؤمنين الذين عملوا الصالحات فوجبت لهم الجنة «الذين صبروا وعلى ربهم يتوكلون» ، وقوله فيهم : «وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر» ، ومما يناسب المقام قوله : «فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين» .

ولدينا من نقول التاريخ القديم والحديث ما يؤيد ذلك ، وقد صرح الذين كتبوا أخبار الحروب الأخيرة بعللها وفلسفتها أن المؤمنين بالله وباليوم الآخر من جميع الملل أعظم شجاعة وأشد صبرا على مشاق الحروب من غيرهم ، ولذلك يحرص أوسع الناس علما بسنن الخلق ، وأشدهم عناية بفنون الحرب ، بالمحافظة على الدين فى جيشهم .

١٢٧ — وَقَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَىٰ وَقَوْمَهُۥ لِيُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْىِۦ نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَٰهِرُونَ .

١٢٨ — قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ

١٢٩ — قَالُوٓا۟ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ .

١٣٠ — وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ .

١٣١ — فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ

يَطَّيَّرُوا بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .

١٣٢ — وَقَالُوا۟ مَهْمَا تَأْتِنَا بِهِۦ مِنْ ءَايَةٍ لِّتَسْحَرَنَا بِهَا فَمَا نَحْنُ لَكَ بِمُؤْمِنِينَ .

١٣٣ — فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ .

١٣٤ — وَلَمَّا وَقَعَ عَلَيْهِمُ ٱلرِّجْزُ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ .

١٣٥ — فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ ٱلرِّجْزَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ هُم بَٰلِغُوهُ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ .

١٣٦ — فَٱنتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَٰهُمْ فِى ٱلْيَمِّ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ .

١٣٧ — وَأَوْرَثْنَا ٱلْقَوْمَ ٱلَّذِينَ كَانُوا۟ يُسْتَضْعَفُونَ مَشَٰرِقَ ٱلْأَرْضِ وَمَغَٰرِبَهَا ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُوا۟ وَدَمَّرْنَا مَا كَانَ يَصْنَعُ فِرْعَوْنُ وَقَوْمُهُۥ وَمَا كَانُوا۟ يَعْرِشُونَ .

إحدى عشرة آية ، ذكر الله عز وجل فيها قصة موسى مع فرعون بعد أن بين له ولقومه المعجزة ، وأقام لهم الدليل الحق على أنه رسول من عند الله ،

وهنا يذكر الله عز وجل ائتمار فرعون وقومه بموسى ، ودعوة موسى قومه إلى الاستعانة بالله والصبر قائلا : إن الأرض له يورثها من يشاء من عباده ، والعاقبة للمتقين ، ويبين الله عز وجل ضجر بنى إسرائيل من شدة العذاب الذى نزل بهم ، وانتقام الله عز وجل من فرعون وقومه بالآيات البينات ، وقد جاء فى سورة الإسراء - أو بنى إسرائيل - أن الله تعالى أعطى موسى تسع آيات بينات ، وقد عد هنا منها خمسا وهى مذكورة فى التوراة على غير هذا الترتيب وهو غير مراد، وعطف بعضها على بعض بالواو لا يقتضيه :

فأما الطوفان فمعناه فى اللغة ماطاف بالشىء وغشيه ، وغلب فى طوفان الماء سواء كان من السماء أو الأرض وكذا كل ماينزل من السماء بكثرة تغشى الأرض . قال ابن كثير اختلفوا فى معناه فعن ابن عباس فى روايات كثيرة : الأمطار المغرقة المتلفة للزرع والثمار ، وبه قال الضحاك بن مزاحم ، وعن ابن عباس رواية أخرى هو كثرة الموت ، وكذا قال عطاء ، وقال مجاهد الطوفان : الماء والطاعون على كل حال. وعن عائشة قالت قال رسول الله «الطوفان الموت» وقال ابن عباس فى رواية أخرى: هو أمر من الله طاف بهم ثم قرأ « فطاف عليها طائف من ربك وهم نائمون » أقول : أما حديث عائشة المرفوع فهو ضعيف لا يثبت بمثله قول مخالف للمتبادر من اللغة ، وأولى الآثار بالقبول قول ابن عباس الأول: الموافق المتبادر من اللغة أى طوفان المطر ، وما عدا ذلك فمن الإسرائيليات وأولاها بالقبول مالا يخالف القرآن من أسفار التوراة نفسها وهو ما ننقله عنها . جاء فى الإصحاح التاسع من سفر الخروج : ثم قال الرب لموسى بكر فى الغداة وقف بين يدى فرعون وقل له : كذا قال الرب إله العبرانيين أطلق شعبى ليعبدونى فإنى فى هذه المرة منزل جميع ضرباتى عن قلبك وعلى عبيدك وشعبك لكى تعلم أنه ليس مثلى فى جميع الأرض ، وأنا الآن أمد يدى وأضربك أنت وشعبك بالوباء فتضمحل من الأرض ، غير أنى لهذا أبقيك لكى أريك قوتى ولكى يخبر باسمى فى جميع الأرض ، وأنت لم تزل مقاوما لشعبى ، هاأنا ممطر فى مثل هذا الوقت من غد برداً عظيما جداً لم يكن مثله فى

مصر منذ يوم أسست إلى الآن » ، ثم ذكر وقوع البرد مع نار من السماء ووصف عظمته وشموله لجميع بلاد مصر ، وأن فرعون طلب موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما أن يشفعا إلى الرب ليكف هذه النكبة عن مصر ، ووعدهما بإطلاق بنى إسرائيل وقال فى ختام ذلك: فخرج موسى من المدينة من لدن فرعون وبسط يديه إلى الرب فكفت الرعود والبرد ولم يعد المطر يهطل على الأرض، ولم يذكر المطر عند الوعيد بل ذكر هنا عند كف النكبة.

وأما الجراد فهو معروف وقد ذكر فى التوراة بعد الطوفان ، ففيها بعد ما تقدم أن فرعون قسا قلبه فلم يطلق بنى إسرائيل، فأخبر الرب موسى كما فى الفصل العاشر بأنه قسا قلبه وقلوب عبيده ليريهم آياته ولكى يقص موسى على ابنه وابن ابنه ما فعل بالمصريين ، وأمره بأن ينذره بإرسال الجراد عليهم فيأكل ما سلم من النبات والشجر فلم يحسه البرد ويملأ بيوته وبيوت عبيده وسائر بيوت المصريين ففعل ، فرضى فرعون أن يذهب الرجال من بنى إسرائيل ليعبدوا ربهم دون النساء والأولاد والمواشى ، فمد موسى عصاه بأمر الرب على أرض مصر فأرسل الرب ريحاً شرقية ساقت الجراد على أرض مصر ، فغطى جميع وجه الأرض حتى أظلمت الأرض وأكل جميع عشبها وجميع ما تركه البرد من ثمر الشجر حتى لم يبق شيء من الخضرة فى الشجر ولا فى عشب الصحراء فى جميع أرض مصر ، وفيه أن فرعون استدعى موسى وهارون واعترف لهما بخطئه وطلب منهما الصفح والشفاعة إلى الرب إلههما أن يرفع عنه هذه التهلكة ففعلا فأرسل الله ريحا غربية ، فحملت الجراد كله فألقته فى بحر القلزم . . وأما القمل – بضم القاف وتشديد الميم المفتوحة – فعن ابن عباس هو السوس الذى يخرج من الحنطة ، وعنه أنه الدبى وهو الجراد الصغار الذى لا أجنحة له . وبه قال مجاهد وعكرمة وقتادة ، وعن الحسن وسعيد بن جبير أنه دواب سود صغار ، وعن ابن جرير : أنها دابة تشبه القمل تأكل الإبل ، ونقل عن بعض علماء اللغة البصريين أن القمل عند العرب الحنان واحدتها حنانة وهى صغار القردان ، ذكر هذا كله ابن كثير .

وجزم الراغب بأن القمل صغار الذباب ، وهو موافق لما فى التوراة ، ففيها أن البعوض والذبان كان من الضربات العشر التى ضرب الرب بها فرعون وقومه ليرسلوا بنى إسرائيل مع موسى ، فى الإصحاح الثامن من سفر الخروج أن موسى أنذر فرعون أن الذبان سيدخل بيوته وبيوت عبيده وسائر قومه فيفسدها ولا يدخل فى بيوت بنى إسرائيل المقيمين فى أرض جاسان وأن ذلك وقع وفسدت الأرض من تأثير الذبان .. وأما الضفادع فهى المعروفة لا خلاف فيها ، وفى أول الإصحاح الثامن من سفر الخروج : وقال الرب لموسى : ادخل على فرعون وقل له : كذا قال الرب أطلق شعبى ليعبدونى ، وإن أبيت أن تطلقهم فها أنا ضارب جميع تخومك بالضفادع ، فيفيض النهر ضفادع فتصعد وتنتشر فى بيتك وفى مخدع فراشك وعلى سريرك وفى بيوت عبيدك وشعبك وفى تنانيرك ومعاجنك الخ وكذلك كان . ولكن فيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك وأصعدوا الضفادع ، وإن فرعون طلب من موسى أن يشفع له عند ربه برفع الضفادع فأجابه إلى ذلك . قال : ففعل الرب كما قال موسى وماتت الضفادع من البيوت والأقبية والحقول ، فجمعوها أكواما وأنتنت الأرض منها . وأما الدم ففسره زيد بن أسلم بالرعاف وأكثر أهل التفسير المأثور أنه دم كان فى مياه المصريين وهو موافق لما جاء فى التوراة ، وهو فيها أول الضربات العشر التى أنزلها الله على فرعون وقومه بعد انقلاب العصا ثعبانا . فى الفصل السابع من سفر الخروج : أن الرب أمر موسى أن ينذر فرعون ذلك ففعل ، ثم قال الرب لموسى : قل لهارون خذ عصاك ومد يدك على مياه المصريين وأنهارهم وخلجهم ومناقعهم وسائر مجامع مياههم فتصير دما ويكون دم فى جميع أرض مصر وفى الخشب وفى الحجارة ، وفيه أن موسى وهارون فعلا ذلك وأن سمك النهر مات وأنتن النهر فلم يستطع المصريون أن يشربوا منه ، وفيه أن سحرة مصر فعلوا مثل ذلك ، وأن الدم دام سبعة أيام .. هذه الخمس جملة ما ذكره القرآن من الآيات التسع التى أيد بها عبده ورسوله موسى عليه السلام ، وليس فيها شىء من المبالغات

التي في التوراة فلا هو ينفيها ولا يؤيدها ، ومقتضى أصول الإسلام الوقف فيها إلا ما دل دليل من القرآن على نفيه كما تقدم . وفيها أن من تلك الآيات أو الضربات : البعوض ، وذلك أن هارون ضرب بأمر الرب تراب الأرض « فكان البعوض على الناس والبهائم ، وكل تراب الأرض صار بعوضاً في جميع أرض مصر » ، وفيها أن السحرة فعلوا مثل ذلك ومنها الوباء ، وقع على دواب المصريين وأنعامهم فماتت كلها من دون مواشي الإسرائيليين فإنه لم يمت منها شيء . ومنها البثور والقروح المنتفخة ، أصابت الناس والبهائم ، ومنها الظلام غشى جميع المصريين ثلاثة أيام كان الإسرائيليون يتمتعون فيها بالنور وحدهم ، ومنها إماتة جميع أبكار الناس والبهائم كما جاء في سفر الخروج أيضا .
ثم تذكر هذه الآيات الكريمة عدم جدوى شيء من النذر مع فرعون وقومه ، وأن الله عز وجل أغرق فرعون وملأه في اليم بسبب تكذيبهم بآيات الله وبُعدهم عنها وتركهم لها ، وورث المستضعفون والعبيد من قوم فرعون وقوم موسى مشارق الأرض ومغاربها التي بارك الله فيها ، وأصبحوا سادة أعزاء ، وتمت كلمة الله الحسنى على بني إسرائيل ، ودمر الله ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون من القصور والحدائق وسواها والتدمير إدخال الهلاك على السالم والخراب على العامر ، والعرش رفع المباني والسقائف للنبات . والشجر المتسلق كعرائش العنب ، ومنه عرش الملك والمراد بما كان يصنع فرعون وقومه أولا وبالذات ماله تعلق بظلم بني إسرائيل والكيد لموسى عليه السلام ، فالأول كالمباني التي كانوا يبنونها للمصريين أو يصنعون اللبن لها ، ومنها الصرح الذي أمر هامان ببنائه له ليرقى به إلى السماء فيطلع إلى إله موسى . والثاني كالمكائد السحرية والصناعية التي كان يصنعها السحرية لإبطال آياته أو التشكيك فيها كما قال تعالى : « إنما صنعوا كيد ساحر » ، « وقال فرعون يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب ـ أسباب السموات ـ فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً ، وكذلك زين لفرعون سوء عمله وصد عن السبيل وما كيد فرعون إلا في تباب » والتباب بمعنى الدمار . وأما أسباب هذا التدمير لذلك

الصنع والعروش فأولها الآيات التى أيد الله تعالى بها موسى عليه السلام من الطوفان والجراد وغيرهما ، وتسمى فى التوراة الضربات ؛ ويليها إنجاء بنى إسرائيل وحرمان فرعون وقومه من استعبادهم فى أعمالهم ، وثالثها هلاك من غرق من قوم فرعون وحرمان البلاد وسائر الأمة من ثمرات أعمالهم فى العمران ، هذا هو المعروف منها ، وما ظلمهم الله تعالى بذلك ولكنهم ظلموا أنفسهم ، فقد أنذرهم موسى عليه السلام كل ذلك ليتقوا سوء عاقبته، فكذبوا بالآيات وأصروا على الجحود والإعنات . يقول الشيخ رشيد رضا :إن العبرة هذه الآيات . أن يتفكر تالى القرآن فى تأثير الإيمان والوحى فى موسى وهارون فى عليهما السلام إذ تصديا لأعظم ملك فى أعظم دولة فى الأرض قاهرة لقومهما ومعبدة لهم فى خدمتها منذ قرون كثيرة فدعواه إلى الرجوع عن الكفر والظلم والطغيان وتعبيد بنى إسرائيل وأنذراه وهدداه ، وما زالا يكافحانه بالحجج والآيات البينات حتى أظفرهما الله تعالى به وأنقذا قومهما من ظلمه وظلم قومه. فجدير بالمؤمنين بالله تعالى ورسله من المسلمين أن ينتقلوا من التفكر فى هذا إلى التفكر فى وعد الله تعالى للمؤمنين بالنصر كما وعد المرسلين إذا هم قاموا بما أمرهم الله تعالى به على ألسنتهم - وأن لا يستعظموا فى هذه السبيل قوة الدول الظالمة لهم ، فإن قوة الحق التى نصرها الله تعالى برجل أو رجلين على أعظم الدول لا تغلب ، إذا نصرناها الله ونحن مئات الملايين ، والله تعالى يقول « إن تنصروا الله ينصركم » ، ويقول « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .

ويلاحظ أن فى العهد القديم مبالغة ومخالفة لما جاء من هذه الأخبار فى القرآن الكريم ، والقرآن كما قال الله تعالى : مصدق لكون تلك الكتب من عند الله تعالى ، أى فى الأصل ، وفى القرآن أن أهل التوراة أوتوا نصيبا منها ونسوا حظا ونصيباً آخر، وأنهم حرفوا بعض ما عندهم منها ، وأنه هو أى القرآن مهيمن عليها . فما أقره منها فهو الذى لا شك فيه ، وما صححه بإيراده مخالفا لما عندهم فهو الصحيح ، سواء كان بإيراده إياه مخالفا لما فيها من بعض

الوجوه ، ككون موسى هو الذى ألقى العصا فإذا هى حية وإذا هى تلقف ما يأفكون لاهارون كما فى التوراة . أو دلت قواعده أن نصوصه على امتناعه كما جاء فى أول الإصحاح الثامن من سفر الخروج من أن الرب جعل موسى إلها لفرعون ويكون أخوه هارون نبيه !! فأصول القرآن وكذا التوراة تمنع أن يكون إله غير الله عزوجل . وقد ثبت فى تواريخ أهل الكتاب وغيرهم أن التوراة التى كتبها موسى عليه السلام قد فقدت، وأن عزرا الكاتب هو الذى كتب الأسفار المقدسة بعد السبى البابلى فى القرن الخامس قبل الميلاد ، وهو الذى استبدل الحروف الكلدانية بالعبرانية ، على أن ما كتبه عزرا قد فقد أيضاً ، ولكن جميع نسخ التوراة الموجودة فى العالم مستمدة مما كتبه ، وفيها تحريف كثير لا يمكن أن يكون من الأصل ، ويسمونه مشكلات يتكلفون الأجوبة عنها . ومما يوضح معجزة القرآن فيما أخبر به عن التوراة ويؤكدها : خطأ المفسرين الكثيرين من المتقدمين والمتأخرين فى تفسير بعضه وتعيين المراد منه لعدم اطلاعهم على ما عند أهل الكتاب منها ومن سائر كتبهم المقدسة وغيرها من التواريخ والعاديات المستخرجة من آثار قدماء المصريين والبابليين، وإنما كان جل ما يعرفون عن بنى إسرائيل ما سمعوه ممن أسلم منهم ، وما كل من أسلم منهم بحفيظ عليم ، ولا بصادق أمين ثم ما أخذوه عن كتب تاريخية غير موثوق بها ، فكان أكثر ما كتبوه فى التفسير منها مشوها له وحجة لأهل الكتاب علينا ، فإذا كان هذا حال علمائنا فى أخبار أهل الكتاب بعد انتشار العلوم فى الإسلام ، فكيف حال أهل مكة عند ظهوره ، ولم يكن فيها كتاب يقرأ ولا أحد يقرأ ويكتب ، قيل: إلا ستة نفر من التجار كانوا ممن يقال فيهم اليوم « يفكون الخط » فأنى لمن كان أبعدهم عن ذلك وهو محمد بن عبد الله أن يعرف هذه الدقائق المفصلة السالمة من الشوائب التى لا يصدقها العقل أولا تتفق مع توحيد الأنبياء وفضائلهم لولا ما أنزل عليه من الوحى الإلهى ؟

وقوله تعالى « وقال الملأ » أى الأشراف « من قوم فرعون » له « أتذر » أى تترك « موسى وقومه » من بنى إسرائيل « ليفسدوا فى الأرض » أى أرض مصر وأرادوا بالفساد فيها أنهم يأمرونهم بمخالفة فرعون وهو قولهم «ويذرك»

وآلهتك، أى معبوداتك أى فلا يعبدك ولا يعبدها. وكان فرعون اتخذ لقومه أصناما وكان يأمرهم بعبادتها ، وقال : أنا ربكم ورب هذه الأصنام وذلك قوله: أنا ربكم الأعلى ، وكان فرعون منكرا لوجود الصانع ، وكان يقول: مدبر هذا العالم السفلى هو الكواكب ، واتخذ أصناما على صورة الكواكب ، وكان يعبدها ويأمر بعبادتها ، وكان يقول فى نفسه : إنه المطاع المخدوم فى الأرض ، ولهذا قال: أنا ربكم الأعلى « قال» فرعون مجيبا للملأ من قومه حين قالوا : أتذر موسى وقومه « سنقتل أبناءهم» أى المولودين « ونستحيي نساءهم » أى نتركهم أحياء كما كنا نفعل من قبل ليعلم أنا على ما كنا عليه من القهر والغلبة ، ولا يتوهم أنه المولود الذى حكم المنجمون والكهنة بذهاب ملكى على يده « وإنا فوقهم قاهرون» أى غالبون وهم مقهورون تحت أيدينا فأعادوا عليهم القتل فشكت بنو إسرائيل لموسى فأمرهم بالصبر « قال موسى لقومه » أى بنى إسرائيل « استعينوا بالله واصبروا » أى استعينوا بالله على فرعون وقومه فيما نزل بكم من البلاء ، فإن الله تعالى هو الكافى لكم واصبروا على ما نالكم من المكاره فى أنفسكم وأبنائكم « إن الأرض » أى أرض مصر وإن كانت الأرض كلها لله تعالى لأن الكلام فيها « يورثها من يشاء من عباده » وفى هذه تسلية لهم وتقرير للأمر بالاستعانة بالله عز وجل والتثبت فى الأمر « والعاقبة » المحمودة « للمتقين » لان الله وعدهم بالنصر وتذكير لما وعدهم به من إهلاك القبط وتوريثهم ديارهم وتحقيق له . ولما سمع بنو إسرائيل ما قال فرعون من توعده لهم بالقتل مرة ثانية « قالوا » لموسى « أوذينا من قبل أن تأتينا » بالرسالة وذلك أن بنى إسرائيل كانوا مستضعفين فى يد فرعون وقومه وكان يأخذ منهم الجزية ، وكان يستعملهم فى الأعمال المشقة إلى نصف النهار ، ويمنعهم من الترفه والتنعم ، ويقتل أبناءهم ويستحيي نساءهم ، فلما جاء موسى بالرسالة . وجرى له ما جرى شدد فرعون فى استعمالهم ، فكان يستعملهم جميع النهار بلا أجر ، وأراد أن يعيد القتل عليهم ، فقالوا : أوذينا من قبل أن تأتينا « ومن بعد ما جئتنا » أى بالرسالة ، وظاهر هذا يوهم أن بنى إسرائيل

كرهوا مجيء موسى بالرسالة ، وكان موسى عليه السلام قد وعدهم بزوال ما كانوا فيه من الشدة والمشقة فظنوا أن ذلك يكون على الفور، فلما رأوا أن المشقة قد زادت عليهم قالوا ذلك، أي فمتى يكون ماوعدتنا به من زوال مانحن فيه «قال» موسى عليه السلام «عسى ربكم أن يهلك عدوكم» أى فرعون وقومه «ويستخلفكم فى الأرض» أى يجعلكم تخلفونهم فى أرضهم بعد هلاكهم، وهذا الإيذاء مبين فى الإصحاح الخامس من سفر الخروج من التوراة، ففيه أن موسى وهارون لما طلبا من فرعون إطلاق بنى إسرائيل لكى يعبدوا ربهم ويعيدوا له فى البرية ويذبحوا له ، قال لهما : لماذا تعطلان الشعب عن أعماله ، وأمر فرعون فى ذلك اليوم مسخرى الشعب ومدبريه أن يمتنعوا من إعطائه التبن الذى كانوا يعطونه إياه ليعمل به اللبن(١) الذى كان مفروضا عليهم كل يوم ، وأن يكلفوه جمع التبن من البلاد ولا ينقصوا من عدد اللبن المفروض عليهم شيئاً ، فتفرق الشعب فى جميع أرض مصر ليجمعون جذامة(٢) عوض التبن فعجزوا عن تمام المقدار المفروض عليهم من اللبن والمسخرون يلحون عليهم : أكملوا فريضة كل يوم كما كانت عندما كنتم تعطون التبن ، فجاء مدبرو بنى إسرائيل الذين ولاهم عليهم المسخرون لهم من قبل فرعون واستغاثوا فرعون نفسه قائلين : لماذا تصنع بعبيدك هكذا ؟ إنه لا يعطى لعبيدك تبن وهم يقولون لنا : اعملوا لبنا ، وها أن عبيدك يضربون وشعبك يعاملون كمذنبين ، قال : إنما أنتم مترفهون ولذلك تقولون نمضى ونذبح للرب . والآن فامضوا اعملوا ، وتبن لا يعطى لكم ، ومقدار اللبن تقدمونه ، فرأى مدبرو بنى إسرائيل نفوسهم فى شقاء إذ قيل لا تنقصوا من لبنكم شيئاً بل فريضة كل يوم فى يومها، وصادفوا موسى وهارون وهما واقفان للقائهم عند خروجهم من عند فرعون فقالوا لهما ينظر الرب ويحكم عليكما كما أفسدتما أمرنا عند فرعون وعند عبيده وجعلتما فى أيديهم سيفا ليقتلونا . وفى الإصحاح الخامس من سفر الخروج أيضاً :

---

(١) الطوب النى (٢) الجذامة بالضم : ما بقى من الزرع فى الأرض بعد الحصد .

فرجع موسى إلى الرب وقال : يارب لماذا ابتليت هؤلاء الشعب لماذا بعثتنى ؟ فإنى منذ دخلت على فرعون لأتكلم باسمك أساء إلى هؤلاء الشعب وأنت لم تنقذ شعبك . . وفى الإصحاح السادس من سفر الخروج : فقال الرب لموسى : الآن ترى ما أصنع بفرعون إنه بيد قديرة سيطلقهم وبيد قديرة سيطردهم من أرضه ـ وأعلمه بأنه أعطى إبراهيم واسحاق عهدا بأن يعطيهم أرض كنعان، وأنه سمع أنين إسرائيل الذين استعبدهم المصريون فذكر عهده ـ ثم قال : لذلك قل لبنى إسرائيل أنا الرب لأخرجنكم من تحت أثقال المصريين وأخلصكم من عبوديتهم وأفديكم بذراع مبسوطة وأحكام عظيمة ، وأتخذكم لى شعبا وأكون لكم إلها وتعلمون أنى أنا الرب إلهكم المخرج لكم من تحت أثقال المصريين، وسأدخلكم الأرض التى رفعت يدى مقسما أن أعطيها لإبراهيم وإسحق ويعقوب فأعطيها لكم ميراثا أنا الرب ، فكلم موسى بذلك بنى إسرائيل فلم يسمعوا لموسى لضيق أرواحهم وعبوديتهم الشاقة . فننظر « كيف تعملون » أى يعاملكم معاملة المختبر وهو فى الأزل اعلم بما تعملون منكم بعد إيقاعكم للأعمال ، ولكنه يفعل ذلك لتقوم الحجة عليكم على ما جرت به عاداتكم ، وروى عن عبيد الله أنه دخل على المنصور قبل الخلافة وعلى مائدته رغيف أو رغيفان فطلب زيادة لعمرو فلم يجد فقرأ عمرو هذه الآية ، ثم دخل عليه بعد ما استخلف فذكر له ذلك وقال قد بقى « فننظر كيف تعملون » ، « ولقد أخذنا آل فرعون » أى فرعون وقومه « بالسنين » أى بالقحط والجوع سنة بعد سنة ، فإن السنة تطلق بالغلبة على ذلك ، كما تطلق على العام ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعلها عليهم سنين كسنين يوسف « ونقص من الثمرات » أى بالعاهات ، قال قتادة : أما السنين فلأهل البوادى وأما نقص الثمرات فلأهل الأمصار ، وعن كعب : يأتى على الناس زمان لا تحمل النخلة إلا ثمرة « لعلهم يذكرون » أى يتعظون فيؤمنون ويرجعون عما هم عليه من الكفر والمعاصى ، لأن الشدة ترقق القلوب وترغب فيما عند الله تعالى من الخيرات ، والدليل على ذلك قوله تعالى « وإذا مسكم الضر فى البحر ضل من

تدعون إلا إياه » ، وقوله تعالى « وإذا مسه الشر فذو دعاء عريض » ، « فإذا جاءتهم الحسنة » قال ابن عباس : المراد بالحسنة الزرع والثمار والمواشي والسعة في الرزق والعافية في السلامة « قالوا لنا هذه » أي نحن مستحقوها على العادة التي جرت من كثرة نعمتنا وسعة أرزاقنا ولم يعلموا أنه من الله تعالى فيشكرونه على إنعامه « وإن تصبهم سيئة » أي قحط وجدب ومرض وبلاء ورأوا مايكرهونه في أنفسهم « يطيروا » أي يتشاءموا وأصله يتطيروا « بموسى ومن معه » من المؤمنين ويقولون : ما أصابنا هذا إلا بشؤمهم ، وهذا إغراق في وصفهم بالغباوة والقساوة ، فإن الشدائد ترقق القلوب لا سيما بعد مشاهدة الآيات وهي لم تؤثر فيهم ، بل زادوا عندها عتوا وتماديا كافي البغي ، وإنما عرف الحسنة وذكرها بعد أداة التحقيق لكثرة وقوعها وتعلق الإرادة بإحداثها بالذات ، ونكر السيئة وأتى بها مع حرف الشك لندورها وعدم القصد لها إلا بالتبع « ألا إنما طائرهم عند الله » أي بسبب خيرهم وشرهم عنده وهو حكمه ومشيئته ، أو سبب شؤمهم عند الله تعالى وهو أعمالهم المكتوبة عنده فإنها التي ساقت إليهم ما يسوءهم « ولكن أكثرهم لا يعلمون » أي إن ما يصيبهم من الله تعالى ، وذلك لأن كثرة الخلق يضيفون الحوادث إلى الأسباب المحسوسة ويقطعونها عن قضاء الله تعالى وتقديره ، والحق أن الكل من الله تعالى لأن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته ، والواجب لذاته واحد وما سواه ممكن لذاته ، والممكن لذاته لا يوجد إلا بإيجاد الواجب لذاته ، وبهذه الطريق يكون الكل من الله تعالى وإسناده إلى غير الله تعالى يكون جهلا بكمال الله تعالى « وقالوا » أي فرعون وقومه القبط لموسى عليه السلام « مهما تأتنا به من آية » أي علامة ، بيان لمهما ، « لتسحرنا بها » أي لتصرفنا عما نحن عليه من الدين « فما نحن لك بمؤمنين » أي بمصدقين ، قال ابن عباس : إن القوم لما قالوا مهما تأتنا به من آية من ربك فهي عندنا من باب السحر ونحن لا نؤمن بها البتة ، وكان موسى عليه السلام رجلا حديدا فعند ذلك دعا عليهم فاستجاب الله تعالى له ، فقال تعالى : « فأرسلنا عليهم الطوفان » وقال سعيد بن جبير :

لما آمنت السحرة ورجع فرعون مغلوبا أبى هو وقومه إلا الإقامة على الكفر والتمادى فى الشرفتابع الله تعالى عليهم الآيات فأخذهم أولا بالسنين وهو القحط ونقص الثمرات وأراهم قبل ذلك معجزات اليد والعصا فلم يؤمنوا ، فدعا عليهم موسى ، وقال : يارب إن عبدك فرعون علا فى الأرض وتكبر وإن قومه قد نقضوا العهد فخذهم بعقوبة تجعلها عليهم نقمة ولقومى عظة ولمن بعدهم آية وعبرة ، فبعث الله تعالى عليهم الطوفان وهو الماء ، وأرسل الله تعالى عليهم المطر من السماء وبيوت بنى إسرائيل وبيوت القبط مشتبكة مختلطة ، فامتلأت بيوت القبط ولم يدخل من ذلك الماء فى بيوت بنى إسرائيل شىء على ماقيل (١) وطفا ذلك الماء على أرضهم فلم يقدروا أن يحرثوا ولم يعلموا شيئاً ، ودام على ذلك سبعة أيام من السبت إلى السبت حتى كان الرجل منهم لايرى شمسا ولا قمرا ولا يستطيع الخروج من داره، فصرخوا إلى فرعون واستغاثوا به فأرسل إلى موسى عليه السلام ، فقال : اكشف عنا العذاب فقد صار بحرا واحدا وإن كشفت هذا العذاب آمنا بك فأزال الله تعالى عنهم الطوفان المطر وأرسل الرياح فجفت الأرض وخرج من النبات ما لم ير مثله قط فقالوا: هذا الذى جزعنا منه خير لنا لكنا لم نشعر، فلا والله لانؤمن بك ولا نرسل معك بنى إسرائيل ، وقيل : أراد بالطوفان الجدرى بضم الجيم وفتح الدال ، وقيل هو الموتان وهو - بضم الميم - موت فى الماشية ، وقيل هو الطاعون، فنكثوا العهد (و) لم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله عليهم الجراد فأكل النبات والثمار وأوراق الشجر حتى كان يأكل الأبواب وسقوف البيوت ومسامير الأبواب من الحديد ، وابتلى الجراد بالجوع فكانت لا تشبع حتى أنت على كل شىء يخصهم ، وعظم الأمر عليهم حتى صارت عند طيرانها تغطى الشمس ووقع بعضها على بعض فضجوا من ذلك ، وقالوا يا موسى : ادع لنا ربك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك ، فأعطوه عهد الله وميثاقه، فدعا موسى

(١) هذا غير مألوف ولا معقول ، وإنما الأصح أن الطوفان ملأ أرض مصر كلها ، وأنه عم السادة والعبيد .

عليه السلام فكشف الله تعالى عنهم الجراد بعدما أقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت فدعا موسى فذهب الجراد . ويقال إن موسى عليه الصلاة والسلام برز إلى الفضاء وأشار بعصاه نحو المشرق والمغرب فرجعت الجراد من حيث جاءت وقيل : أرسل الله تعالى ريحا فاحتمل الجراد فألقاه فى البحر وكان قد بقى من زرعهم بقية فقالوا : قد بقى لنا ما يكفينا فما نحن بتاركى ديننا « و » لم يؤمنوا وأقاموا شهرا فى عافية وعادوا إلى أعمالهم الخبيثة ، فأرسل الله تعالى عليهم « القمل » اختلفوا فى القمل : فعن ابن عباس أنه السوس الذى يخرج من الحنطة وعن قتادة أنه أولاد الجراد قبل نبات أجنحتها ، وعن عكرمة أنه الحنان وهو ضرب من القراد ، وعن عطاء القمل المعروف . فأكل ما أبقاه الجراد وكان يدخل بين ثوب أحدهم وبين جلده وقميصه ، وكان أحدهم يأكل طعاما فيمتلىء قملا ، ومنعهم النوم والقرار فصاحوا وصرخوا هم وفرعون إلى موسى عليه السلام وقالوا : إنا نتوب فادع لنا ربك يكشف عنا هذا البلاء ، فدعا موسى فرفع الله القمل عنهم بعدما قام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، فنكثوا وعادوا إلى أخبث أعمالهم وقالوا : ما كنا أحق أن نستيقن أنه ساحر منا اليوم جعل الرمل دواب « و » لم يؤمنوا فدعا موسى عليه السلام عليهم بعد ماقاموا شهرا فى عافية ، فأرسل الله تعالى عليهم « الضفادع » فامتلأت منها بيوتهم وأطعمتهم وآنيتهم فلا يكشف أحدهم عن ثوب ولا طعام ولا شراب إلا وجد فيه الضفادع ، وكان يثب فى قدورهم فيفسد عليهم طعامهم ويطفىء نيرانهم ، فلقوا منها أذى شديدا فشكوا إلى موسى عليه السلام ، وقالوا : ارحمنا هذه المرة فما بقى إلا أن نتوب التوبة النصوح ولا نعود ، فأخذ عهودهم ومواثيقهم ثم دعا ربه فكشف عنهم الضفادع بأن أماتها وأرسل المطر والريح فاحتملها إلى البحر بعد ماأقام عليهم سبعة أيام من السبت إلى السبت ، ثم نكثوا العهد « و » لم يؤمنوا وعادوا إلى كفرهم وأعمالهم الخبيثة ، فدعا عليهم موسى بعد ماأقاموا شهرا فى عافية فأرسل الله تعالى عليهم « الدم » فصارت مياههم كلها دما فما يستقون فى بئر ولا نهر إلا وجدوه دما أحمر فشكوا إلى فرعون وقالوا : ليس

لنا شراب فقالوا: إنه سحركم، فقال من أين سحرنا ونحن لانجد فى أوعيتنا شيئا من الماء إلادما، وكان فرعون على مايروى من أساطير يجمع بين القبطى والإسرائيلى على الإناء الواحد فيكون مايلى الإسرائيلى ماء ومايلى القبطى دما، ويقومان إلى الجرة فيها الماء فيخرج الإسرائيلى ماء والقبطى دما ، حتى كانت المرأة من آل فرعون تأتى المرأة من بنى إسرائيل حين جهدهم العطش فتقول: اسقينى من مائك فتصب لها من قربتها فيعود فى الإناء دما ، حتى كانت تقول اجعليه فى فيك ثم مجيه فى فىّ فتأخذها فى فيها ماء وإذا مجته فى فيها صار دما ، واعترى آل فرعون العطش حتى إنه ليضطر إلى مضغ الأشجار الرطبة فإذا مضغها صار ماؤها دما فمكثوا فى ذلك سبعة أيام لايشربون إلا الدم، فأتوا موسى وشكوا إليه مايلقونه ، وقالوا: ادع لنا ربك يكشف عنا هذا الدم فنؤمن بك ونرسل معك بنى إسرائيل فدعا موسى عليه السلام ربه فكشف عنهم. وقيل: الدم الذى سلط عليهم هو الرعاف « آيات مفصلات » أى مبينات لاتشكل على عاقل أنها آيات الله تعالى ونقمته عليهم ، أو مفصلات لامتحان أحوالهم إذ كان بين كل آيتين منها شهر وكان امتداد كل آية واحدة أسبوعا ، وقيل : إن موسى عليه السلام لبث فيهم بعد ماغلب السحرة وآمنوا به عشرين سنة يريهم هذه الآيات على مهل «فاستكبروا » عن الإيمان فلم يؤمنوا « وكانوا » أى فرعون وقومه «قوما مجرمين» أى كافرين « ولما وقع عليهم الرجز » أى نزل بهم العذاب وهو ماذكره الله تعالى من الطوفان ومابعده ، وقال سعيد بن جبير : الرجز الطاعون فنزل الطاعون فمات به من القبط فى يوم واحد سبعون ألفا وتركوا غير مدفونين، قال الرازى : والقول الأول أقوى وأولى « قالوا ياموسى ادع لنا ربك » ولم يقولوا (ربنا) عتوا وتكبرا (بما عهد عندك) أى بعهده عندك وهو النبوة وسميت عهدا لأن الله تعالى عهد أن يكرم النبى وهو عهد أن يستقل بأعبائها أو بالذى عهده إليك أن تدعوه به فيجيبك كما اجابك به فى آياتك والمعنى: أسعفنا إلى مانطلب منك من الدعاء لك بحق ماعندك من عهد الله وكرامته بالنبوة ، أو ادع الله متوسلا إليه بعهده عندك ، ويصح أن يكون (بما عهد) قسما جوابه هو قوله لئن كشفت عنا

الرجز لنؤمنن لك ، أى أقسمنا بعهد الله تعالى عندك لئن كشفت عنا الرجز لنؤمنن لك « ولنرسل معك بنى إسرائيل » أى لنصدقنك بما جئت به ولنخلين بنى إسرائيل ليذهبوا حيث شاءوا « فلما كشفنا عنهم الرجز » أى بدعاء موسى عليه السلام « إلى أجل هم بالغوه » أى إلى حد من الزمان هم بالغوه لامحالة فمعذبون فيه لاينفعهم ماتقدم إليهم من الإمهال وهوقت إهلاكهم بالغرق فى اليم « إذا هم ينكثون » جواب لما أى فلما كشفنا عنهم فاجأوا بالنكث من غير توقف وتأمل فيه، والله قد علم أن هؤلاء لايؤمنون بتلك المعجزات ، فالفائدة من تواليها عليهم وإظهار الكثير منها هو الله تعالى يفعل مايشاء ويحكم مايريد لايسأل عما يفعل «فانتقمنا منهم» أى كافأناهم على سوء صنيعهم، وأصل الانتقام فى اللغة سلب النعمة بالعذاب لأنه تعالى لما كشف عنهم العذاب مرات فلم يؤمنوا ولم يرجعوا عن كفرهم وبلغوا الأجل الذى أجل لهم انتقم منهم بأن أهلكهم كما قال تعالى « فأغرقناهم فى اليم » أى فى البحر الذى لايدرك قراره ، وقيل: هو لجة البحر ومعظم مائه قال الأزهرى : ويقع اليم على البحر المالح والعذب، ويدل على ذلك قوله تعالى « فاقذفيه فى اليم » والمراد : نيل مصر وهو عذب ؛ وإغراقهم «بأنهم» أى بسبب أنهم «كذبوا بآياتنا » الدالة على وحدانيتنا وصدق رسولنا « وكانوا عنها » أى الآيات « غافلين » أى لايتدبرونها ، وقيل الضمير فى عنها للنقمة التى دل عليها قوله تعالى (انتقمنا) أى وكانوا عن النقمة قبل حلولها غافلين ، والغفلة ليست من فعل الإنسان ولاتحصل باختياره فكيف جاء الوعيد على الغفلة ؟ يصح أن يكون المراد بالغفلة هنا الإعراض عن الآيات وعدم الالتفات إليها فهم أعرضوا عنها حتى صاروا كالغافلين عنها ، وقد ضموا إلى التكذيب والغفلة معاصى كثيرة فالانتقام بهذين دون غيرهما، لأنه ليس فى بيان أنه تعالى انتقم منهم بهذين دلالة على نفى ماعداهما . قال الرازى : والآية تدل على أن الواجب فى الآيات النظر فيها فلذلك ذمهم بأن غفلوا عنها ، وذلك يدل على أن التقليد طريق مذموم ، ولما بين تعالى هلاك القوم بالغرق على وجه العقوبة بين تعالى مافعله بالمؤمنين من الخيرات وهو أنه تعالى أورثهم أرضهم

وديارهم فقال تعالى «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون» أى بالاستعباد وذبح الأبناء وأخذ الجزية والأعمال الشاقة وهم بنو إسرائيل «مشارق الأرض ومغاربها» أى أرض الشام وهى من الفرات إلى الموضع الذى خرجوا منه من البحر وغرق فيه فرعون وآله ، وقيل : المراد جملة الأرض لأنه خرج من جملة بنى إسرائيل داود وسليمان عليهما السلام ، وقد ملكا الأرض «التى باركنا فيها» أى بالخصب وسعة الأرزاق ، والأرض المباركة هى أرض الشام «وتمت كلمة ربك الحسنى» وهى قوله تعالى «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض» ، والحسنى تأنيث الأحسن صفة للكلمة ؛ ومعنى تمت «على بنى إسرائيل» أى مضت عليهم واستمرت ، وهى قوله تعالى «ونريد أن نمن على الذين استضعفوا فى الأرض» ، وإنما كان الإنجاز تماما للكلام لأن الوعد بالشىء يبقى كالشىء المعلق فإذا حصل الموعود به فقد تم ذلك الوعد .. وإنما حصل لهم ماذكر «بما صبروا» أى بسبب صبرهم ، وحسبك بهذا حاثا على الصبر ودالا على أن من قابل البلاء بالجزع وكله الله تعالى إليه ، ومن قابله بالصبر وانتظار النصر كتب الله تعالى له الفرج «ودمرنا» أى أهلكنا قال الليث : الدمار الهلاك التام «ما كان يصنع فرعون وقومه» فى أرض مصر من القصور والعمارات «وما كانوا يعرشون» أى من الجنان وما كانوا يرفعون من البنيان كصرح هامان ، وقرأ شعبة بضم الراء والباقون بالجر ، وهذا آخر ما اقتص الله من نبأ فرعون والقبط وتكذيبهم بآيات الله وظلمهم ومعاصيهم ، ثم ذكر الله عز وجل بعد ذلك نبأ بنى إسرائيل وما أحدثوه بعد إنقاذهم ونجاتهم من فرعون واستعباده .

١٣٨ — وَجَاوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَآءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْا۟ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْ قَالُوا۟ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ .

١٣٩ — إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ .

١٤٠ – قَالَ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ .

١٤١ – وَإِذْ أَنجَيْنَٰكُم مِّنْ ءَالِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوٓءَ
ٱلْعَذَابِ يُقَتِّلُونَ أَبْنَآءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَآءَكُمْ وَفِى ذَٰلِكُم
بَلَآءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ .

هذه الآيات الأربع فيها ذكر لصنيع بنى إسرائيل فى الكفر بعدما منّ الله عليهم بالنجاة من فرعون وقومه ، وفيها تذكير لهم بنعم الله عز وجل عليهم . . . وفى هذه الآيات يقول الله عز وجل وتبارك وتعالى : « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » أى قطعناه بهم « فأتوا على قوم » أى مروا عليهم « يعكفون على أصنام لهم » أى يقيمون على عبادتها ؛ قال ابن جريج : كانت تماثيل بقر ؛ وذلك أول شأن عبادة العجل ، قيل : كانوا قوما من لخم وكانوا نزولا بالرقة وقيل كانوا من الكنعانيين الذين أمر موسى بقتالهم ، وكان مع موسى السبعون المختارون وكان فيهم من يرتفع عن مثل هذا السؤال الباطل وهو قولهم « يا موسى » سموه كما ترى باسمه جفاء وغلظة « اجعل لنا إلها » أى صنما نعكف عليه ، وهذا يدل على غاية جهلهم ، وذلك أنهم توهموا أنه يجوز عبادة غير الله تعالى بعد ما رأوا الآيات الدالة على وحدانية الله تعالى وكمال قدرته ، وهى الآيات التى توالت على قوم فرعون حتى أغرقهم الله تعالى فى البحر بكفرهم وعبادتهم غير الله سبحانه وتعالى ، فحملهم جهلهم إلى أن قالوا لنبيهم موسى عليه السلام : اجعل لنا إلها « كما لهم آلهة » فى ذلك تسلية للنبى صلى الله عليه وسلم مما رأى من بنى إسرائيل بالمدينة « قال » موسى ردا عليهم « إنكم قوم تجهلون » وصفهم بالجهل المطلق ، وأكده لبعد ما صدر عنهم بعد ما رأوا من الآيات العظمى والمعجزة الكبرى لأنه لا جهل أعظم مما رأى منهم وأشنع « إن هؤلاء » أى القوم « متبر » أى هالك مدمر « ماهم فيه » أى أن الله تعالى يهدم دينهم الذى هم عليه ويحطم أصنامهم « وباطل » أى مضمحل « ما كانوا يعملون » من عبادتها وإن قصدوا بها التقرب إلى الله

تعالى ، قال ، موسى عليه السلام مجيبا لهم على سبيل الإنكار عليهم والتعجب « أغير الله أبغيكم إلها ، وأصله أبغى لكم أى أطلب لكم معبودا ، وهو ، أى والحال أنه وحده ، فضلكم على العالمين ، إن الإله ليس شيئا يطلب ويلتمس ويتخذ بل الإله هو الذى يكون قادرا على الإنعام بالإيجاد وإعطاء الحياة وجميع النعم ، وهذا الموجود هو الإله الذى يجب على الخلق عبادته، فكيف يجوز العدول عن عبادته إلى عبادة غيره؟ . . وفى تفضيلهم على العالمين قولان : الأول أنه تعالى فضلهم على عالمى زمانهم إلا ما يخصه العقل من الأنبياء والملائكة ، والثانى أنه خصهم بتلك الآيات القاهرة ولم يحصل مثلها لأحد من العالمين وإن كان غيرهم فضلهم بسائر الخصال ، وإذ أنجيناكم من آل فرعون ، أى واذكروا صنعه معكم فى ذلك الوقت ، يسومونكم ، أى يكلفونكم ويذيقونكم ، سوء العذاب ، أى أشده ، ، يقتلون أبناءكم ويستحيون نساءكم ، أى يستبقونهن ، وفى ذلكم ، أى الإنجاء ، بلاء ، أى نعمة أو محنة ، من ربكم عظيم ، أى أفلا تتعظون وتنتهون عما قلتم .

ومعنى النظم الكريم — كما يقول الشيخ رشيد رضا — ، وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر ، أنهم تجاوزوه بعنايته سبحانه وتأييده إياهم بفلق البحر ، وتيسير الأمر ، حتى كأنه كان معهم بذاته فجاوزه مصاحبا لهم ؛ أو المعنى :إننا أيدناهم ببعض ملائكتنا ، فجاوز بهم البحر بأمرنا ، فمن المعهود فى اللغة أن ينسب إلى الملوك ورؤساء القواد ما ينفذه بعض أتباعهم بأمرهم ، وما يقع بجاههم وقوة سلطانهم ، ويجوز الجمع بين المعنيين ، ففرق البحر بهم كان بعناية الله وقدرته . وفى آخر الإصحاح الثالث عشر من سفر الخروج ذكر خبر ارتحال بنى إسرائيل وقال : وكان الرب يسير أمامهم نهارا فى عمود من غمام ليهديهم الطريق وليلا فى عمود من نار ليضىء لهم ليسيروا نهارا وليلا ، لم يبرح عمود الغمام نهارا وعمود النار ليلا من أمام الشعب ، ، ثم جاء فى الإصحاح الرابع عشر منه بعد ذكر أتباع فرعون ومن معه من بنى إسرائيل : فانتقل ملاك الله السائر أمام عسكر بنى إسرائيل فصار وراءهم وانتقل عمود الغمام

من أمامهم فوقف وراءهم ، ودخل بين عسكر المصريين وعسكر إسرائيل . فكان من هنا غماما مظلما ، وكان من هناك ينير الليل ، فلم يقترب أحد من الفريقين طول الليل . هذا بعض ما جاء فى التوراة مما يصح أن يكون تفسيرا لقوله تعالى فى القرآن « وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر » ، فالباء هنا للمصاحبة كقولك: سافرت به وجئت به ، وإسناد المسير فى عمود الغمام إلى الرب مجازى كقوله تعالى « هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله فى ظلل من الغمام والملائكة » ، « فأتوا » عقب تجاوزهم إياه ودخولهم فى بلاد العرب من البر الآسيوى « على قوم يعكفون على أصنام لهم » يعبدونها ، فماذا كان من شأنهم إذ رأوهم يعبدون غير الله تعالى كآل فرعون الذين أنقذهم الله تعالى منهم ، وأراهم آياته على وحدانيته فيهم ؟ هل استهجنوا شركهم وأنكروه كما هو الواجب عليهم والمعقول ممن رأى ما رأوا من سوء مصير المشركين ، وحسن عاقبة الموحدين ؟ الجواب أنهم لم ينكروه بألسنتهم ولا بقلوبهم ، بل « قالوا يا موسى اجعل لنا إلها كما لهم آلهة » حنينا منهم إلى ما ألفوا فى مصر من عبادة آلهة المصريين وتماثيلها وأنصابها وقبورها ، فعلم بهذا الطلب أنهم لم يكونوا فهموا التوحيد الذى جاء به موسى كما فهمه من آمن من سحرة المصريين ، لأن السحرة كانوا من العلماء، فأمكنهم التمييز بين آيات الله تعالى التى لا يقدر عليه غيره وبين السحر الذى هو من صناعات البشر وعلومهم ، وأما هؤلاء الإسرائيليون فكانوا من العامة الجاهليين الذين بلد الذل أفهامهم . وإنما اتبعوا موسى لإنقاذه إياهم من ظلم فرعون وتعبيده لهم ، لا لفهمهم حقيقة التوحيد بالآيات الدالة عليه ، ولذلك قيل: إنهم بعض القوم لا جميعهم ، فالتوحيد المحض الخالص من شوائب الشرك والوثنية هو غاية ما يرتقى إليه عرفان البشر ، وهو المراد من قوله تعالى « وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون » على القول بأن اللام للغاية ، وهو لا يقتضى حصوله لكل فرد منهم ، ولو عقل جميع بنى إسرائيل كنه التوحيد لما واح من تبرمهم بالتكاليف وتمردهم على ما قصه الله تعالى علينا فى كتابه ، وفى التوراة التى لديهم من الزيادة عليه والتفصيل له ما هو من

مواطن العجب ، وقد ابتلاهم الله تعالى ورباهم بالحسنات والسيئات ، وحرم الأرض المقدسة عليهم أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، حتى انقرض ذلك الجيل الذى نشأ فى حجر الوثنية ، وشب أو اكتهل أو شاخ فى ذل العبودية الفرعونية ؛ ولم يبين لنا كتاب الله تعالى ولا رسوله صلى الله عليه وسلم شيئا من أمر القوم الذين أتى عليهم بنو إسرائيل عقب خروجهم من مصر إلى أرض العرب ، والظاهر أنهم من العرب الذين كانوا يقيمون بقرب حدود مصر . روى عن قتادة أنهم من عرب لخم ، وعن أبى عمران : لخم وجذام . وعن ابن جريج أن أصنامهم كانت تماثيل بقر من نحاس ، فلما كان عجل السامرى شبه لهم أنه من تلك البقر ، فذاك كان أول شأن العجل لتكون لله عليهم حجة فينتقم منهم بعد ذلك ، ولم يكن ابن جريج يعلم أن قدماء المصريين كانوا يعبدون عجلا اسمه « أبيس » ، وكان بنو إسرائيل يعبدونه معهم كغيره من معبوداتهم ، ويرون تماثيله منصوبة فى معابدهم ، وأن السامرى لم يصنع لهم العجل بعد ذلك إلا لما كان من إلفهم لعبادته ، وتأثر أعصابهم بما ورثوا من مظاهر روعته ، ولذلك قال تعالى فيهم « وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم » والمراد عجل السامرى ، وقد علل إشرابهم إياه فى قلوبهم بما كان من كفرهم السابق أى بالوراثة المتغلغلة فى النفس بطول الزمان وتعاقب الأجيال فذلك الذى يطول تأثيره فى الأعقاب والأنسال .

وبهذا ينتهى الربع الثانى من هذا الجزء الكريم . وقد تضمن ماتضمن: من إظهار لمعجزات موسى عليه السلام ، ومن استعباد فرعون وقومه لبنى إسرائيل ، وإباء فرعون الإيمان برسالة موسى . . ومن إمهال الله عز وجل لفرعون وقومه ، ثم أخذه لهم بالعذاب شيئاً فشيئاً ، ومن عناد فرعون وكفره ، وطغيانه ، ومن انتقام الله عز وجل من فرعون وقومه بأن أغرقهم فى اليم ، ونجى موسى وقومه ، وجعلهم سادة بعد أن كانوا عبيدا ، وأورثهم أمبراطورية فرعون فى الشرق إذ أصبحوا أصحاب النفوذ فى الشام التى بارك الله عز وجل فيها . . وفى هذا الربع كذلك يذكر الله عز وجل الدمار الذى

لحق بقصور فرعون وحدائقه ومزارعه .. ويذكر بنى إسرائيل وكيف قابلوا نعمة الله عليهم بالكفر والوثنية والفساد ، شأنهم فى كل وقت ، لقد كفروا بموسى وبإله موسى ، وضلوا وأضلوا عن سواء السبيل .

وفى العهد القديم ، الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج أن بنى إسرائيل كانوا حين خروجهم من مصر ستمائة ألف من الرجال عدا الأولاد ، وأنه خرج معهم كثيرون من المصريين ، وأن إقامتهم بمصر كانت ٤٣٠ عاما ، وخرج بنو إسرائيل من مصر بأمر الله ، وكانت ليلة عيد وسرور ، « هى ليلة تحفظ للرب لإخراجه إياهم من أرض مصر ، هذه الليلة هى للرب تحفظ من جميع بنى إسرائيل فى أجيالهم » ، كما جاء فى الإصحاح الثانى عشر من سفر الخروج ، وفى الإصحاح الرابع عشر أن ملك مصر لما علم بهرب بنى إسرائيل شد مركبته وأخذ قومه معه ، وتبعه ٦٠٠ مركبة منتخبة وسائر مركبات مصر عليها الجيش ، وسعى وراء بنى إسرائيل ، وأدركهم ، ففزع بنو إسرائيل وصرخوا وأخذوا يوبخون موسى ، وموسى يقول لهم : لا تخافوا وانتظروا معجزة الرب التى يصنعها لكم ، فكما رأيتم المصريين اليوم لا تعودون ترونهم أيضاً بعد ذلك . الرب يقاتل عنكم وأنتم تصمتون .. وأمر الله موسى أن يشق البحر بعصاه ، ودخل بنو إسرائيل وسط البحر على اليابسة ، ودخل فرعون وقومه وراءهم وشقت مركبات فرعون وفرسانه الطريق إلى وسط البحر . . وعاد البحر فأطبق عند إقبال الصبح على فرعون وقومه ، ورجع إلى حالته الدائمة ، وغرق فرعون وقومه ، حتى لم يبق منهم أحد ، وأما بنو إسرائيل فمشوا على اليابسة وسط البحر والماء سور لهم عن يمينهم وعن يسارهم ، وخلص الله بنى إسرائيل من أيدى فرعون ، ونظر بنو إسرائيل المصريين أمواتا على شاطىء البحر ، ثم ارتحل موسى بإسرائيل من بحر سوف وخرجوا إلى برية شور . . وصاغ موسى الأناشيد تمجيدا لله ، وفرح قومه بهذا النصر العظيم .

لقد كان انشقاق البحر معجزة عظيمة لموسى ، وكان حدثا جيولوجيا ضخما ، صادف موعده وقت مناجاة موسى لله ليصنع معه المعجزة ، ولينجى بنى إسرائيل من فرعون وملئه ومن بطشهم واستعبادهم وطغيانهم الشديد .

وحادثة إغراق فرعون ونجاة بنى إسرائيل من المعجزات الكبيرة للرسل، ولذلك امتن بها الله عز وجل على اليهود فى القرآن الكريم فى أكثر من موضع ، مذكرا لهم بفضل هذه النقمة وخطرها وجلالها ، وبأنها جديرة أن يتدبروها ويعوها ويشكروها ، وهم حريون أن يؤمنوا ويسلموا وجوههم لله ، وأن يتركوا اللجاج والعناد والعصيان .. ولكنهم لم يفعلوا ولم يشكروا ، وباءوا بغضب الله وسخطه ، واستحقوا عذابه ونقمته .. وتدل الآيات الكريمة السابقة على حضارة مصر القديمة وعظمتها ومجدها فى أيام الفراعنة إذ يقول الله عز وجل « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون » .. والمصانع هى من القصور والمعابد الضخمة والتماثيل الكبيرة ، وقد كان المصريون القدماء لهم شهرة فى هذا الضمار ، وحسبنا أهراماتهم ومعابدهم ومقابرهم الباقية على مر الزمان ، وتوالى الأيام ، وقوله تعالى «وما كانوا يعرشون» تدل على حذقهم فى الزراعة وغرس الأشجار والفاكهة ، وهذا جانب من جوانب حضارة مصر ، والزراعة ركن من أركان الاقتصاد الذى له أهمية فى بناء الحضارة ، ثم هى فيها سداد لحاجات الشعب من الطعام . ولا تقوم حضارة إلا بعد استيفاء حاجة الإنسان من الغذاء ، ثم هى التى خلقت الفراغ أمام المصريين ، والفراغ له أهميته فى بناء الحضارة . وهكذا ينطق القرآن الكريم بعظمة مصر وحضارتها القديمة ، وهو أروع تصوير ، وأوجز تعبير .. وما أتعس حظ فرعون الذى أغرقه الله . لقد كان حظه وحظ شعبه سيئا غاية السوء ، ولو كان قد آمن وترك الفساد أمام رسالة السماء لما أهلكه الله .. ولا بد أن تكون مصر وشعبها قد امتحنت امتحانا شديدا بعد غرق فرعون ، فذهب نفوذها ، وصار النفوذ فى أيدى اليهود إبان ذلك العهد السحيق ، وذلك مصداق قوله تعالى «وأورثنا القوم الذين كانوا يستضعفون مشارق الأرض ومغاربها التى باركنا فيها ، وتمت كلمة ربك الحسنى على بنى إسرائيل بما صبروا » .. إنه معجزة لموسى ، وآية لمن يعتبر ، وعبرة لمن يتعظ . . وهى جديرة بأن يتأملها الجاحدون والمعاندون ، دليلا على قدرة الله وعظمته .

الربع الثالث

١٤٢ — وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ
رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً وَقَالَ مُوسَىٰ لِأَخِيهِ هَٰرُونَ ٱخْلُفْنِى فِى
قَوْمِى وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ ٱلْمُفْسِدِينَ .

١٤٣ — وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ قَالَ رَبِّ أَرِنِىٓ أَنظُرْ
إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ
مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا
وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠
أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ .

١٤٤ — قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّى ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِى وَبِكَلَٰمِى
فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ .

١٤٥ — وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِى ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَىْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا
لِّكُلِّ شَىْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا
سَأُو۟رِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ .

١٤٦ — سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ
ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ
ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ
سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ .

١٤٧ — وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَلِقَآءِ ٱلْءَاخِرَةِ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ

هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٤٨ — وَٱتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَىٰ مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَداً لَّهُ خُوَارٌ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلاً ٱتَّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ .

١٤٩ — وَلَمَّا سُقِطَ فِي أَيْدِيهِمْ وَرَأَوْا أَنَّهُمْ قَدْ ضَلُّوا قَالُوا لَئِن لَّمْ يَرْحَمْنَا رَبُّنَا وَيَغْفِرْ لَنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَاسِرِينَ .

١٥٠ — وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفاً قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِي وَكَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ ٱلْأَعْدَاءَ وَلَا تَجْعَلْنِي مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّالِمِينَ .

١٥١ — قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ .

١٥٢ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا ٱلْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَكَذَٰلِكَ نَجْزِي ٱلْمُفْتَرِينَ .

١٥٣ — وَٱلَّذِينَ عَمِلُوا ٱلسَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِن بَعْدِهَا وَآمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِن بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٥٤ — وَلَمَّا سَكَتَ عَن مُوسَى ٱلْغَضَبُ أَخَذَ ٱلْأَلْوَاحَ وَفِي نُسْخَتِهَا هُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ هُمْ لِرَبِّهِمْ يَرْهَبُونَ .

١٥٥ — وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَٰتِنَا فَلَمَّآ أَخَذَتْهُمُ ٱلرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّٰىَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآ إِنْ هِىَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهْدِى مَن تَشَآءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْغَٰفِرِينَ .

هذه الآيات الأربع عشرة هي كلها الربع الثالث من هذا الجزء الكريم ، وتصور قصة موسى مع قومه ، كيف ذهب لتلقى التوراة من الله عز وجل مستخلفا أخاه هرون فى قومه ، وكيف وقف على جبل الطور يناجى الله ، وكيف نزلت عليه الألواح وقد نقشت عليها التوراة موعظة وتفصيلا لكل شيء ، وكيف كفر قوم موسى من بنى إسرائيل بالله فى غيبة موسى ، وصنعوا التماثيل وعبدوها من دون الله ، وكيف رجع موسى وشاهد ما شاهد ، وعتابه لأخيه ولومه له وغضبه عليه . . كما تبين كذلك تبليغ موسى قومه التوراة ، وكيف أخذ النقباء من قومه وذهب بهم إلى جبل الطور لمناجاة الله وتلقى أوامره والتوبة إليه ، وكيف أخذت الجبل وأخذتهم الرجفة ، ومناجاة موسى لربه طلبا للصفح والمغفرة الرضاء الإلهى الكريم .

وتذكر التوراة أن موسى بعد أن نجاه الله وقومه ، وأغرق فرعون وملأه صنع الأناشيد تسبيحا لله ، وأنه ارتحل ببنى إسرائيل ، من بحر سوف ، إلى برية شور ، ثم إلى إيليم[1] ، ثم إلى برية « سين » التى بين إيليم وسيناء[2] . . وتذكر تمرد بنى إسرائيل على موسى فى برية شور إذ لم يجدوا ماء[1] ؛ وتمردهم فى برية سين على موسى وهرون لعدم وجود الخبز واللحم[2] ، فرزقهم الله

---

(١) الإصحاح ١٥ من سفر الخروج .
(٢) « ١٦ » » » .

السلوى فى المساء ، والخبز فى الصباح[١] ؛ وفى الإصحاح السابع عشر أن بنى إسرائيل ارتحلوا من برية سين إلى رفيديم ، وأنهم تذمروا إذ لم يجدوا ماء ، فقال الرب لموسى : « عصاك التى ضربت بها النهر خذها فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب[٢] » . وفى الإصحاح الثامن عشر تذكر التوراة أن « يثرون » كاهن « مديان » وهو حمو موسى سمع كل ما صنعه الله إلى موسى وإلى إسرائيل شعبه فأخذه « صفورة » امرأة موسى وابنيها وأتى بهم إلى موسى فى البرية حيث كان نازلا عند جبل الله ، وتذكر أيضاً تعليم يثرون لموسى كيف يقضى بين الناس[٣] وتكليم الله لموسى فى الجبل ، وما أمر الله به موسى من وصايا وشرائع[٤] ، وطلب قوم موسى من هرون أن يصنع لهم آلهة[٥] . وهنا تذكر التوراة أن هرون صنع لهم من أقراط الذهب التى كانت فى آذان نسائهم عجلا مسبوكا ، فقال: هذه آلهتك يا إسرائيل[٣] ، وهذا ولا ريب كذب على الأنبياء وافتراء على الحقيقة ، إنما صنعه لهم السامرى ، وقد غضب موسى على هرون ، وتاب هرون إلى الله عز وجل وأناب[٦] . .

وفى سفر اللاويين تذكر التوراة شريعة الله إلى موسى بالتفصيل وهو سبعة وعشرون إصحاحا ، وتحتوى كلها على وصايا الرب إلى موسى وبنى إسرائيل فى جبل سيناء ، وفى سفر العدد تذكر التوراة شعوب بنى إسرائيل ، وتفاصيل أخرى لشريعة الله إلى موسى وقومه ، وصنيع بنى إسرائيل مع موسى ، والوصايا والأحكام التى أوصى بها الرب إلى بنى إسرائيل فى مؤاب بالأردن ؛ وسفر العدد ستة وثلاثون إصحاحا . وفى سفر التثنية ذكر لكلام الرب إلى موسى فى عبر الأردن فى البرية . وفى الإصحاح الرابع والثلاثين من سفر التثنية ، وهو آخر إصحاحات هذا السفر ذكر لموت موسى فى أرض « مؤاب » عن

---

(١) الإصحاح ١٦ من سفر الخروج . (٢) الإصحاح ١٧ .
(٣) الإصحاح ١٨ . (٤) الإصحاح ١٩ — ٣١ :
(٥) الإصحاح ٣٢ . (٦) الإصحاح ٣٢ .

مائة وعشرين سنة . . وفى الإصحاح الحادى عشر من سفر التثنية أن بحر سوف هو الذى غرق فيه فرعون وقومه . وفى الإصحاح التاسع والعشرين يذكر موسى لبنى إسرائيل أنه سار بهم أربعين سنة فى البرية .

* * *

وهذا الربع الكريم من سورة الأعراف ، الذى نحن بصدد تفسيره نزل فى شرح بيان بدء وحى الشريعة إلى موسى عليه السلام ، شريعة التوراة ، وبيان ذكر نزولها عليه . . أما الرسالة والوحى العام فقد كلف بها موسى وهو فى جانب الطور الأيمن من سيناء إثر إنصرافه من مدين إلى مصر . . وقد نزلت التوراة على موسى بعد أن أنجى الله قومه من عبودية فرعون وملئه ، وبعد أن صاروا أحرارا مستقلين قادرين على القيام بما يشرعه الله عز وجل لهم من عبادات وأحكام معاملات .

وقد بدىء هذا الربع بذكر وعد الله لموسى «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة» ، وهذه القصة معطوفة على القصة قبلها وهى «وجاوزنا ببنى إسرائيل البحر» ، والمواعدة هنا بمعنى الوعد ، أو أن صيغة المفاعلة باعتبار أن الله ضرب لموسى موعدا لمكالمته وإعطائه الألواح المشتملة على أصول الشريعة فقبل ذلك ، ثم صعد جبل سيناء فى أول الموعد ، وهبط فى آخره .

وقد جاء فى سفر الخروج عن موضوع صعود موسى إلى الجبل لتلقى التوراة مانصه : «وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم ، فقام موسى ويشوع خادمه وصعد موسى إلى جبل الله ، وأما الشيوخ فقال لهم : اجلسوا ههنا ، وهوذا هارون وحور معكم ، فمن كان صاحب دعوى فليتقدم إليهما ، فصعد موسى إلى الجبل فغطى السحاب الجبل ، وحل مجد الرب على جبل سيناء وغطاه السحاب ستة أيام وفى اليوم السابع دعى موسى من وسط السحاب ، وكان منظر مجد الرب كنار آكلة على رأس الجبل أمام عيون إسرائيل ، ودخل موسى فى وسط السحاب وصعد إلى الجبل ،وكان موسى فى الجبل أربعين نهاراً وأربعين ليلة» .

وفى الإصحاح الرابع والثلاثين منه مانصه أيضا : « وقال الرب لموسى اكتب لنفسك هذه الكلمات قطعت عهداً معك ومع إسرائيل ، وكان هناك عند الرب أربعين نهاراً وأربعين ليلةلم يأكل خبزا ولم يشرب ماء ، فكتب على اللوحين كلمات العهد ، الكلمات العشر » .

يقول الله تعالى فى هذه الآيات الكريمات: «وواعدنا موسى ثلاثين ليلة، أى أن نكلمه عند انتهائها .. وكان يصوم أيامها ، روى أن موسى عليه السلام وعد بنى إسرائيل بمصر أن يأتيهم بعد مهلك فرعون بكتاب من الله تعالى فيه بيان مايأتون وما يذرون ، فلما هلك سأل ربه فأمره بصوم ثلاثين وهو شهر ذى القعدة فصامه ، فلما تمت أيام صيامه أنكر خلوف فمه فتسوك فقالت الملائكة: كنا نشم منك رائحة المسك فأفسدته بالسواك ، وقيل : أوحى الله تعالى إليه : أما علمت أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك ، فأمره الله تعالى بعشرة أخرى ليكلمه بخلوف فمه ، كما قال تعالى « وأتممناها بعشر » أى من ذى الحجة « فتم ميقات ربه » وقت وعده بكلامه إياه « أربعين ليلة » ؛ وقيل : أمره أن يتحلى بالصوم والعبادة ثم أنزل عليه التوارة فى العشر ، وكلمه فيها ، ولقد أجمل ذكر الأربعين فى سورة البقرة وفصلها هنا ؛ وفائدة قوله « فتم ميقات ربه أربعين ليلة » مع أن كل واحد يعلم أن الثلاثين مع العشر تكون أربعين ، أنه تعالى إنما قال « اربعين ليلة إزالة لتوهم أن ذلك العشر من الثلاثين لأنه يحتمل: أتممناها بعشر من الثلاثين ، كأنه كان عشرين ثم أتمه بعشر فصار ثلاثين فأزال هذا الإيهام .. والفرق بين الميقات والوقت . أن الميقات ماقدر فيه عمل من الأعمال والوقت وقت للشىء قدره مقدر أم لا ، وقوله تعالى « أربعين » منصوب على الحال ، أى تم بالغا هذا العدد ، وليلة نصب على التمييز « وقال موسى لأخيه هرون » أى قال له عند ذهابه إلى الجبل للمناجاة « اخلفنى » أى كن خليفتى «فى قومى وأصلح» مايجب أن يصلح من أمورهم أو كن مصلحا «ولا تتبع سبيل المفسدين » أى ومن دعاك منهم إلى الإفساد فلا تتبعه ولا تطعه ، وهرون كان

شريك موسى عليهما السلام في النبوة فكيف جعله خليفته لنفسه ، مع أن شريك الإنسان أعلى حالا من خليفته ؟ ، ومع أن رد الإنسان من منصبه الأعلى إلى الأقل يكون إهانة له .. والجواب أن الأمر وإن كان كما ذكر إلا أن موسى عليه السلام كان الأصل في تلك النبوة . ولما كان هرون نبيا والنبي لايفعل إلا الإصلاح ، فكيف قال له موسى « ولا تتبع الخ » ، والجواب أن المقصود من هذا الأمر التأكيد كقول الخليل . ولكن ليطمئن قلبي « ولما جاء موسى لميقاتنا » أى للوقت الذى وعدناه للكلام فيه «وكلمه ربه» دلت الآية الكريمة على أنه تعالى كلم موسى عليه السلام ، والناس مختلفون في كلام الله تعالى . قال الزمخشري في كشافه : كلمه ربه من غير واسطة كما يكلم الملك ، وتكليمه أن يخلق الكلام منطوقا به في بعض الأجرام كما خلقه مخطوطا في اللوح ، وهذا مذهب المعتزلة .. ولا شك في بطلانه وفساده لأن ذلك الجرم كالشجرة لايقول « أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكرى » فثبت بذلك بطلان ماقالوه . وذهب بعض الحنابلة أن كلام الله تعالى حروف وأصوات متقطعة ، وأنه قديم ، ورده الرازى ، والذى عليه أكثر السنة والجماعة أن كلام الله تعالى صفة مغايرة لهذه الحروف والأصوات . وأن موسى سمع تلك الصفة الحقيقية الأزلية ، وقالوا إنه كما لايبعد رؤية ذاته وليست جسما ولا عرضا كذلك لايبعد سماع كلامه ولايكون حرفا ولا صوتا ، وفيما روى أن موسى عليه السلام كان يسمع ذلك الكلام من كل جهة ، واتفق على أن سماع كلامه تعالى القديم ليس من جنس كلام المحدثين ، وهل كان سبحانه وتعالى كلم موسى وحده أو مع أقوام آخرين ؟ إن ظاهر الآية يدل على أن الكلام كان مع موسى وحده لأن قوله تعالى « وكلمه ربه » يدل على تخصيص موسى عليه السلام بهذا التشريف ، والتخصيص بالذكر يدل على نفي الحكم عما عداه .. وقيل : بل السبعون المختارون سمعوا أيضاً كلام الله تعالى لأن الغرض من إحضارهم أن يخبروا قوم موسى عليه السلام عما يجرى هناك ، وهذا المقصود لا يتم إلا عند سماع الكلام ، وأيضاً فإن تكليم الله تعالى موسى على هذا الوجه معجزة ولما

سمع عليه السلام كلام ربه اشتاق إلى رؤيته سبحانه وتعالى ، قال رب أرنى أنظر إليك ، أى أرنى نفسك أنظر إليك .. والرؤية عين النظر فكيف قيل أرنى أنظر إليك ؟ والجواب أن معنى أرنىْ نفسك اجعلنى متمكناً من رؤيتك بأن تتجلى لى فانظر إليك وأراك ، فى هذا دليل على أن رؤيته تعالى جائزة فى الجملة لأن طلب المستحيل من الأنبياء محال ، قال ، له ، لن ترانى ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى ، هذا كلام على سبيل الاستدراك ، يريد أن يبين به أنه لا يطيق الرؤية ، وفى تعليق الرؤية على الاستقرار دليل على جوازها لأن استقرار الجبل عند التجلى ممكن بأن يجعل الله تعالى له قوة على ذلك ، وقيل : لما سأل موسى ربه الرؤية أرسل الله الضباب والصواعق والرعد والبرق حتى أحاطت بالجبل الذى عليه موسى أربعة فراسخ من كل جانب وأمر الله تعالى ملائكة السموات أن يعرضوا على موسى عليه السلام فمرت به ملائكة السماء الدنيا تمتلىء أفواههم بالتسبيح والتقديس بأصوات عظيمة كصوت الرعد الشديد ، ثم مرت به ملائكة السماء الثانية كأمثال الأسود لهم لجب بالتسبيح والتقديس ففزع مما رأى واقشعرت كل شعرة فى جسده ورأسه ، ثم قال لقد ندمت على مسألتى فقال له رئيس الملائكة :ياموسى اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم مرت به ملائكة السماء الثالثة كأمثال النسور لهم لجب شديد وأفواههم تضج بالتسبيح والتقديس كلجب الجيش العظيم ، ففزع موسى عليه السلام واشتد فزعه وأيس من الحياة ، فقال له رئيس الملائكة : مكانك يا ابن عمران حتى ترى مالا صبر لك عليه ، ثم مرت به ملائكة السماء الرابعة لا يشبههم شىء من الذين مروا به .ألوانهم كلهب النار وسائر خلقهم كالثلج الأبيض ، أصواتهم عالية بالتسبيح والتقديس لا يقاربهم شىء من الذين مروا بهم قبلهم ، فاصطكت ركبتاه وفزع قلبه فقال له رأس الملائكة : يا ابن عمران اصبر لما سألت فقليل من كثير ما رأيت ، ثم مرت به ملائكة السماء الخامسة لهم سبعة ألوان فلم يستطع موسى أن يتبعهم بصره ولم ير مثلهم ولم يسمع مثل أصواتهم ، فامتلأ قلبه خوفا واشتد حزنه وكثر بكاؤه

فقال له رأس الملائكة : يا ابن عمران مكانك حتى ترى بعض مالا تصبر عليه ، ثم مرت به ملائكة السماء السادسة وفى يد كل واحد منهم مثل النخلة الطويلة نورهم أشد ضوءا من الشمس ولباسهم كلهب النار إذا سبحوا وقدسوا جاوبهم من كان قبلهم من ملائكة السموات كلهم يقولون بشدة أصواتهم : سبوح قدوس رب العزة أبدا لا يموت، فلما رآهم موسى رفع صوته يسبح معهم وهو يبكى ويقول : يا رب اذكرنى ولا تنس عبدك . فقال له رأس الملائكة : قد أوشك يا ابن عمران أن يشتد خوفك وينخلع قلبك فاصبر للذى سألت ، ثم أمر الله تعالى أن يحمل عرشه ملائكة السماء السابعة فلما بدا نور العرش انصدع الجبل من عظمة الله تعالى ورفعت الملائكة أصواتهم جميعاً يقولون : سبحان الملك القدوس رب العزة لا يموت أبدا ، بشدة أصواتهم ،فارتج الجبل واندك وذلك قوله تعالى . فلما تجلى ربه ، أى ظهر نوره « للجبل ، المراد الجبل الذى كلم الله تعالى موسى عليه السلام عليه « جعله دكا ، أى مدكوكا مفتتاً ، وحكى أن الله تعالى أظهر من سبعين ألف حجاب نورا قدر الدرهم فجعل الجبل دكا مستويا بالأرض ، والدك والدق قيل : بمعنى واحد ، جعله ترابا ، وقال سفيان : ساخ الجبل فى الأرض حتى وقع فى البحر فهو يذهب فيه « وخر ، أى وقع «موسى صعقا» أى مغشيا عليه من هول ما رأى وما غشيه كالموت ، وروى أن الملائكة مرت عليه وهو مغشى عليه فجعلوا يوقظونه ويقولون له: أطمعت فى رؤية رب العزة؟ « فلما أفاق » من غشيته «قال» تعظيما لما رأى: « سبحانك » أى تنزيها لك من النقائص كلها « تبت إليك » أى من الجرأة والإقدام على السؤال بغير إذن،وقيل : لما كانت الرؤية مختصة بمحمد صلى الله عليه وسلم فمنعها : قال سبحانك تبت إليك من سؤالى ماليس لى ، وقيل: لما سئل الرؤية ومنعها قال تبت إليك من هذا السؤال ، وحسنات الأبرار سيئات المقربين .. « وأنا أول المؤمنين » أى فى زمانى،وقيل : أنا أول من آمن أنك لا ترى فى الدنيا أى لكل الأنبياء، وإلا فالرؤية ثابتة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء على الصحيح .. « قال يا موسى إنى اصطفيتك » أى

اخترتك ، على الناس ، أى الموجودين فى زمانك ، وهارون وإن كان نبيا مرسلافقد كان مأمورا باتباعه ولم يكن كليما ولا صاحب شرع ، برسالاتى ، أى بأسفار التوراة ، وبكلامى ، أى بتكليمى إياك ، فخذ ما آتيتك ، أى ماأعطيتك من الرسالة ، وكن من الشاكرين ، لنعمى ؛ لأن موسى عليه السلام لما منع الرؤية عدد الله تعالى عليه وجوه نعمه العظيمة التى له عليه وأمره أن يشتغل بشكرها وكأنه قال له: إن كنت منعتك الرؤية فقد أعطيتك من النعم العظيمة كذا وكذا فلا يضيقن صدرك بسبب منع الرؤية ، وانظر إلى سائر أنواع النعم التى خصصتك بها واشتغل بشكرها ، والاشتغال بشكرها إنما يكون بالقيام بلوازمها علما وعملا ، والمقصود تسلية موسى عليه السلام عن منع الرؤية ، وروى أن موسى عليه السلام بعد ما كلمه ربه ، كان لا يستطيع أحد أن ينظر إليه لما غشى وجهه من النور حتى مات ، وقالت له زوجته : أنا لم أرك منذ كلمك ربك ؛ فكشف لها عن وجهه فأخذها مثل شعاع الشمس ، فوضعت يدها على وجهها وخرت ساجدة وقالت : ادع الله أن يجعلنى زوجتك فى الجنة . قال : ذاك إن لم تتزوجى بعدى لأن المرأة لآخر أزواجها ، وكتبنا له ، أى لموسى ، فى الألواح ، أى ألواح التوراة ، وكيفية الكتابة فيها كما قال ابن جريج : كتبها جبريل بالقلم الذى كتب به الذكر واستمد من نهر النور ، وقال وهب : سمع موسى صرير القلم بالكلمات العشر وكان ذلك فى أول يوم من ذى القعدة ، وقيل:إن موسى خر صعقاً يوم عرفة وأعطى التوراة يوم النحر ، وكانت الألواح عشرة على طول موسى ، وقيل كانت تسعة ، وقيل سبعة وقال مقاتل:وكتبنا له فى الألواح كنقش الخاتم : وقال الربيع بن أنس: نزلت التوراة وهى سبعون وقر بعير ولم يقرأها إلا أربعة نفر : موسى ويوشع وعزير وعيسى عليهم السلام ، أى لم يحفظها ويقرأها عن ظهر قلب إلا هؤلاء الأربعة ، قال الإمام الرازى : وليس فى لفظ الآية ما يدل عن كيفية تلك الألواح وعلى كيفية تلك الكتابة، فإن ثبت ذلك التفصيل بدليل منفصل قوى وجب القول به ، وإلا وجب السكوت عنه .

وقد ورد فى شأن الألواح فى سفر الخروج ما نصه : وقال الرب لموسى اصعد إلى الجبل وكن هناك فأعطيك لوحى الحجارة والشريعة والوصية التى كتبتها لتعليمهم الكلمات العشر ؛ وجاء فى وصف اللوحين منه: ثم انثنى موسى ونزل من الجبل ولوحا الشهادة فى يده : لوحان مكتوبان على جانبيهما ، من هنا ومن هناك كانا مكتوبين ، واللوحان هما صنعة الله والكتابة هى كتابة الله منقوشة على اللوحين ، وفيه أن موسى رمى باللوحين من يديه عند ما رأى العجل الذى عبده قومه فى أيام مناجاته لله تعالى ، ثم قال الرب لموسى: أنحت لك لوحى حجر كالأولين ، فاكتب عليها الكلام الذى كان على الحجرين الأولين اللذين كسرتهما . . . فنحت لوحى حجر كالأولين وبكر موسى فى الغداة وصعد إلى جبل سيناء كما أمره الرب وأخذ فى يده لوحى الحجر ؛ ويليه أن الرب هبط فى الغمام ووقف عنده هناك ومر قدامه ووعده ووصاه وأمره بأوامر ونهاه عن أمور .. ويلى ذلك : « وقال الرب لموسى أكتب لك هذا الكلام لأنى بحسبه عقدت عهدا معك ومع بنى إسرائيل ، وأقام هناك عند الرب أربعين يوماً وأربعين ليلة لم يأكل خبزا ولم يشرب ماء فكتب على اللوحين كلام العهد الكلمات العشر » ..

« من كل شىء » لاشبهة أنه ليس على العموم، بل المعنى: كل شىء مما يحتاج إليه موسى عليه السلام وقومه من أمر الدين..وقوله تعالى: « موعظة وتفصيلا » أى تبيينا « لكل شىء » أى كتبنا كل شىء من المواعظ وتفصيل الأحكام « فخذها » وعن كعب الأحبار أن موسى عليه السلام نظر فى التوراة فقال: إنى أجد أمة هى خير الأمم أخرجت للناس يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالكتاب الأول والكتاب الآخر ، ويقاتلون أهل الضلالة حتى يقاتلوا الأعرج الدجال ، يارب اجعلهم أمتى ، قال: هى أمة محمد صلى الله عليه وسلم ياموسى ، قال: يارب إنى أجد أمة هم الحامدون رعاة الشمس المحكمون ، إذا أرادوا أمرا قالوا نفعل إن شاء الله ، فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة محمد ، قال يارب إنى أجد أمة يأكلون كفاراتهم وصدقاتهم ، وكان الأولون يحرمون

صدقاتهم بالنار وهم المستجابون ، والمستجاب لهم ، الشافعون والمشفوع لهم، فاجعلهم أمتى ، قال : هم أمة محمد . قال : يارب إنى أجد امة محمد إذا شرف أحدهم على شرف كبر الله وإذا هبط واديا حمدالله ، الصعيد لهم طهور والأرض لهم مسجد ، حيث ما كانوا يتطهرون من الجنابة ، طهورهم بالصعيد كطهورهم بالماء حيث لايجدون الماء ، غر محجلون من آثار الوضوء فاجعلهم أمتى قال : هم امة محمد ، قال : يارب إنى أجد أمة إذا هم أحدهم بحسنة ولم يعملها كتبت له حسنة مثلها وإن عملها كتبت له عشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف فاجعلهم أمتى، قال : هم أمة محمد ، قال : إنى أجد أمة مرحومة ضعفاء يرثون الكتاب الذين اصطفيناهم فنهم ظالم لنفسه ومنهم مقتصد ومنهم سابق بالخيرات فلاأجد أحداً إلا مرحوما فاجعلهم أمتى . قال : هم أمة محمد ، قال : يارب إنى أجد أمة مصاحفهم فى صدورهم يلبسون ألوان ثياب أهل الجنة يصفون فى صلاتهم كصفوف الملائكة، أصواتهم فى مساجدهم كدوى النحل لايدخل النار أحدفهم إلامن برىء من الحسنات مثل مابرىء الحجر من ورق الشجر فاجعلهم أمتى قال : هم أمة محمد، فلماعجب موسى من الخير الذى أعطاه الله تعالى إليه قال الله تعالى له : إنى اصطفيتك إلى آخره ، فرضى موسى كل الرضى، ومعنى « بقوة » أى بجد وعزيمة « وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » أى بأحسن مافيها وتلك التكاليف منها ماهو حسن ومنها ماهو أحسن كالاقتصاد والعفو والانتصار والصبر ، فأمرهم أن يحملوا أنفسهم بما هو أدخل فى الحسن وأكثر للثواب، كقوله تعالى «واتبعوا أحسن ما أنزل إليكم من ربكم» وقوله تعالى « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه» والأخذ بالحسن على سبيل الندب فلايقدم ذلك فى منع الأخذ بالحسن ، وهل الحسن يدخل تحته الواجب والمندوب والمباح؟ وأحسن هؤلاء الثلاثة الواجب، وقيل: المراد بالأحسن البالغ فى الحسن مطلقا « سأريكم دار الفاسقين» أى دار فرعون وقومه وهى مصر كيف أقفرت منهم ودمروا لفسقهم لتعتبروا فلا تفسقوا مثل فسقهم فينكل بكم مثل ما ينكل بهم ، وقيل : منازل عاد وثمود

والقرون الذين أهلكهم الله لفسقهم فى مركم عليها فى أسفاركم ، وقيل المراد دارهم فى الآخرة وهى جهنم.

فقوله تعالى « سأريكم دار الفاسقين » من حكاية خطابه لقوم موسى بالتبع له ، إذ وجه الأمر فيما قبله إليه وإليهم ، فهو داخل فى مقول القول الذى خوطب به نبينا صلى الله عليه وسلم من قصتهم ، والجملة استئناف لبيان عاقبة الذين فسقوا عن أمر الله وجحدوا بآياته فلم يأخذوا بأحسنها ، كأنه يقول : إن لم تأخذوا ما آتيناكم بقوة وتتبعوا أحسنه كنتم فاسقين عن أمر ربكم ، فيحل بكم ما حل بالفاسقين من قوم فرعون الذين أنجاكم الله منهم ونصركم عليهم ، وسيريكم ما حل بهم بعدكم من الغرق . أو الفاسقين من سكان البلاد المقدسة والمباركة التى وعدكم إياها وسينصركم عليهم بطاعتكم له وأخذكم ميثاقه بقوة . وقال ابن كثير فى تفسيرها : أى سترون عاقبة من خالف أمرى وخرج عن طاعتى كيف يصير إلى الهلاك والدمار والتباب . وقال ابن جرير : وإنما قال : « سأريكم دار الفاسقين » كما يقول القائل لمن يخاطبه : سأريك غداً ما يصير إليه حال من خالفنى ـ على وجه التهديد والوعيد لمن عصاه وخالف أمره . ثم نقل معنى ذلك عن مجاهد والحسن البصرى ـ وقيل: معناه سأريكم دار الفاسقين أى من هل الشام وأعطيكم إياها . وقيل منازل قوم فرعون . والأول أولى ، لأن هذا كان بعد انفصال موسى وقومه عن بلاد مصر وهو خطاب لبنى إسرائيل قبل دخولهم التيه ؛ ويقول الشيخ رشيد رضا : إن العبرة التى يجب أن يتذكرها ويتدبرها كل قارىء لهذه الآية من وجوه :

١ — أن الكتاب الإلهى يجب أخذه بقوة وإرادة وجد وعزيمة لتنفيذ ما هدى إليه من الإصلاح وتكوين الأمة تكويناً جديداً صالحاً ، ويتأكد ذلك فى الرسول المبلغ له والداعى إليه والمنفذ له بقوله وعمله ، ليكون لقومه فيه أسوة حسنة . وتلك سنة الله تعالى فى سائر الانقلابات والتجديدات الاجتماعية والسياسية وإن لم تكن بهداية الدين ، والدين أحوج إلى القوة

والعزيمة لأنه إصلاح للظاهر والباطن جميعا ، وقد أمر الله تعالى بنى إسرائيل بما أمر به رسولهم . من أخذ الكتاب ، أو ميثاق الكتاب ، بقوة ، امراً مقرونا بتهديدهم وتخويفهم من وقوع جبل الطور بهم ، كما تقدم فى سورة البقرة ، وسيأتى مثله فى هذه السورة « الأعراف » ، وقد أخذ سلفنا القرآن بقوة فسادوا به جميع الأمم ، وإنما سادوا بالعمل بهدايته كما أراد الله تعالى .. وإن من يأخذ القرآن بقوة يكون القرآن حجة له فيسعد به فى الدنيا والآخرة ، ومن لا يأخذه بقوة يكون حجة عليه فيشقى بالإعراض عنه وهجر هدايته فى الدنيا والآخرة « يضل به كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون فى الأرض أولئك هم الخاسرون » .

٢ — أن سبب تخويف بنى إسرائيل عند تبليغهم الميثاق الإلهى بوقوع الجبل بهم وأمرهم فى تلك الحال أن يأخذوه بقوة هى ان أحكام التوراة التى أخذ عليهم الميثاق بأخذها بقوة شاقة حرجة ، وحكمة مافيها من الشدة والحرج أن القوم كانوا مستضعفين مستذلين باستعباد المصريين لهم منذ أجيال كثيرة ، وكان القوم أو الأقوام الذين وعدوا بأن يغلبوهم على بلادهم جبارين أولى قوة وأولى بأس شديد ، وكان من سنة الله تعالى فى البشر أن تتربى أفرادهم وشعوبهم بالشدة والارتياض بالصبر ، والجهاد بالمال والنفس ، ولهذا أمر الله تعالى موسى عليه السلام أن يسير ببنى إسرائيل فى طريق التيه وهو الجنوبى من برية سيناء دون الطريق الشمالى القريب من مدن فلسطين إذ لم يكن لهم طاقة بقتال جبارى الكنعانيين وقتئذ ، فكتب الله تعالى عليهم التيه اربعين سنة ملك فى أثنائها الذين استذلهم المصريون ونشأ من صغارهم ومواليدهم جيل جديد تربى فى حجر الشرع الجديد .

٣ — أن الإسرائيليين قد عظم ملكهم بإقامة شريعتهم بقوة حتى إذا غلبهم الغرور على العمل وظنوا أن الله تعالى ينصرهم ويؤيدهم لنسبهم ولقبهم وهو « شعب الله » فسقوا وظلموا ، فأنزل الله بهم البلاء ، وسلط عليهم البابليين الأقوياء

قتلوا عرشهم وبددوا ملكهم ، ثم ثابو إلى رشدهم ، فرحمهم الله وأعادلهم بعض ملكهم وعزهم ، ثم ظلموا وأفسدوا فسلط عليهم النصارى فمزقوهم كل ممزق .

ولليهود تاريخ طويل ، لا بأس من الإشارة إليه : كانت قبائل العبرانيين الرحل ـ وهم أصل اليهود ـ تقيم فى جنوب العراق ، وقام النبى ابراهيم من هذه القبائل ، ورحل مع قومه إلى فلسطين عام ٢٠٠٠ قبل الميلاد ، ونظرا لقلة عدد هؤلاء العبرانيين لم تعترض قبيلة كنعان التى كانت تحتل فى ذلك الوقت فلسطين . وقبيلة كنعان هذه نزحت من شبه جزيرة العرب إلى فلسطين وأقامت فيها ، وتعتبر أقدم قبيلة وطئت أرض فلسطين ولذلك تسمى « أرض كنعان » وأقام إبراهيم عليه السلام وقومه فى فلسطين ، واتخذ بلدة الخليل مقراً له ، وما زال قبر إبراهيم فى بلدة الخليل إلى الآن — وعمل قوم إبراهيم فى الزراعة فى فلسطين إلى عام ١٦٠٠ قبل الميلاد ، حيث اشتدت المجاعة فى فلسطين ، فهاجر كثير منهم إلى مصر ، ثم هاجر يعقوب ـ إسرائيل ـ إليها ، وكان يوسف عليه السلام قد صار وزيرا فيها . وقد غزا فرعون أرض كنعان واحتل جزءا منها ، وبعد ٤٣٠ عاما قاد موسى بنى إسرائيل من مصر إلى أرض الميعاد ، وعاش موسى وقومه ـ وكانوا اثنى عشرة قبيلة (سبطا) فى هضبة يهوذا أى وسط فلسطين ، لأن قبائل الكنعانيين كانت تحتل الهضاب ، وكذلك كانت تحتل مدينة القدس ..قام اليهود فى فلسطين واختاروا أول ملك لهم وكان يدعى الملك شاؤول ، وجاء بعده الملك دافيد أى « داود » ، وفى عصر الملك داود أمكن استيلاء اليهود على بيت المقدس وكان بارعا فى السياسة ، قام بتوحيد اليهود فى الشمال وجنوب فلسطين ، ومكث فى الحكم ثلاثين عاما ، ولما مات الملك داود تولى بعده الملك سليمان وهو « سليمان الحكيم » ، وهو الذى أنشأ هيكل الرب — أو هيكل سليمان — أو معبد بيت المقدس ، ولما مات الملك سليمان انقسم ملكه إلى قسمين : قسم فى شمال فلسطين وقسم فى جنوب فلسطين ، والقسم الشمالى دولة إسرائيل ، والقسم الجنوبى سمى دولة يهوذا ، وهكذا نشأت أول دولة تحمل اسم إسرائيل . وفى عام ٧٢١ قبل الميلاد قام

الآشوريون بالزحف على دولة إسرائيل ، وانتهت هذه الدولة ، وفى عام ٦٠٨ قبل الميلاد زحف فرعون مصر على مملكة يهوذا واستولى عليها .

ومسحت دولة إسرائيل ، وكذلك دولة يهوذا الإسرائيلية من الوجود، وأخذ ملك بابل جميع الإسرائيليين أسرى إلى بابل ، واستولى على فلسطين . وبقى اليهود مشتتين بعيداً عن فلسطين لمدة قرن من الزمان وأراد زعماء اليهود الرجوع إلى فلسطين لإعادة عرش ملكهم داود فى عاصمته صهيون ... وقد أيقن اليهود أخيراً أنهم خالفوا تعاليم موسى بإشراكهم ومخالفتهم وصايا أنبيائهم . لذلك أخذ زعماء اليهود يضعون عقيدة دينية للرجوع إلى وطنهم ، فألف الفقهاء منهم كتاب التلمود ، وأخيرا تمكنوا من الرحيل إلى أرض الميعاد ، فأعادوا بناء أورشليم أيام حكم الملك دارا ، وأخذوا يصلحون معبد الرب ؛ وعند ظهور المسيح عليه السلام ، زالت السيادة اليهودية نهائيا من فلسطين واحتل الرومان القدس ، وانتشر الدين المسيحى . ويقول اليهود : إن اليوم التاريخى فى حياتهم هو يوم ٢٩ أغسطس عام ٧٠ ميلادية ، فقد تشتت اليهود من هذا اليوم ، إذ أحرق الرومان معبد الرب ـ معبد هيكل سليمان ـ وحرم الرومان على اليهود زيارة القدس ، وتشتت اليهود فى جميع البقاع .وفى عام ٦٢٧ ميلادية أصبحت فلسطين أرضاً عربية بعد أن فتحها عمر بن الخطاب، وفى عام ١٠٦٩ قامت الحرب الصليبية وبقى الصليبيون فى فلسطين حتى عام ١٢٩٣ ميلادية حيث انهزموا شر هزيمة وقد حدث لليهود بسوء أعمالهم العديد من النكبات التى كانوا يستحقونها :

١ — فقتل الرومان منهم فى عهد نيرون ٥٨٠ ألفا جزاء ما ارتكبوه فى حق أهالى جزيرة كريت .

٢ — وفى فارس قام الملوك فى القرنين الخامس والسادس بسحق اليهود. وفى عام ٥٨١ ميلادية طردوا نهائيا من إيران

٣ — وفى بريطانيا قام الملك ادوارد إلى مصادرة أملاكهم عام ١٠٤١

ميلادية ، وقام الشعب البريطانى بقتل اليهود ومصادرة أموالهم فى يوم تتويج الملك رتشارلد قلب الأسد ، وقد تم طردهم نهائيا من بريطانيا فى عهد ادوارد الأول، ولم يعودوا إليها إلا فى عهد كرمويل وكان من كبار الماسونيين ...

٤ — وفى فرنسا لجأ الملك فيليب تحت تأثير طلب الشعب إلى طرد اليهود من فرنسا ومصادرة أملاكهم وإلغاء الديون كلها ، وتم ذلك فى عام ١٣٩٤ على يدى الملك شارل .

٥ — وفى أسبانيا — استولى اليهود على مرافق الشعب فطردهم الشعب وبلغ عدد المطرودين عام ١٦٤٢ ميلادية ٤٠٠ر٠٠٠ يهودى .

٦ — وكذلك حدث الاضطهاد فى ألمانيا وروسيا وهولندا وبلغاريا واليونان ورومانيا ؛ ولم يلق اليهود أى نوع من التسامح إلا فى البلاد الإسلامية، ومكث كثير منهم فى أسبانيا حيث وجدوا فى تلك البلاد التسامح الدينى الإسلامى .

وفى كلمة للكاتب اليهودى « أوسكار ليفى » وردت فى كتاب بعث به إلى أحد أصدقائه ، ما يفسر لنا سر هذه النكبات التى حدثت لليهود ، يقول : « إنى أوافقك فيما تذهب إليه من أنه لا يحدث حدث فى اوربا — وربما فى العالم — دون أن يكون لليهود يد فيه ، ولكن أى طائفة من طوائف اليهود ؟ « إن اللوم الموجه إلينا بأننا سبب جميع البلايا والمصائب التى أرهقت الإنسانية ، وأوغرت صدور الشعوب علينا ، قائم على حقيقة لا يتطرق إليها الشك ، ولكن هذه الحقيقة المرة ليست من صنع اليهود ، بل من صنع الصهيونية والصهيونيين ، وترانى على أتم استعداد لأن أمد إليك يدى ، وأن أدفع عنك كل فرية يراد بها اتهامك بالتحريض على كراهية الأجناس . وإذا كنت أنت من مناهضى الصهيونية ، فإنى — أنا اليهودى — أشد منك مناهضة لها . . . وإنى أعترف بذلك بكل صراحة وإخلاص ، بل وبحزن شديد ؛ إن اليهود الصهيونيين لم يعودوا سوى أداة افساد ودمار ، وهم وحدهم

جلادو العالم ، ومضرمو رزايا ونكبات » . ويصف التلمود الكاتبان اليهوديان « جيروم وجان ثارود » بقولهما : إنه مجموعة شاذة لمعتقدات وعواطف وآمال وخرافات وقصص وتقاليد تشريعية ودينية . عملت على عزل اليهود عن العالم ضمن حواجز لا قبل لهم باجتيازها » . ولكي يضمن الصهيونيون تأثير هذه التعاليم فى نفوس الشعب ، أدخلوا فى روعه أنها تعاليم إلهية ، وفرضوا عليه اتباعها والسير بموجبها ، وتوعدوا من يخرج عليها بالعقاب الرهيب وهم يعلمون أنها من صنع أيديهم ، وأن وصايا النبى موسى منها براء ؛ إن التلمود ـ وهو دستور الصهيونية الدينى والسياسى والاجتماعى ـ يحل لمعتنقيه أن يتصرفوا فى ملك كل « غير يهودى » وعرضه وماله ، فله أن يسبي امرأته أو يهتك عرض ابنته ، دون أن يكون قد اقترف بذلك ذنباً . وليس هذا استنتاجاً ولا تخريجا ، بل لقد أفتى حاخامة الصهيونية المجرمون أمثال « بدلاى » و « ليفى بن جزسون » وغيرهما فقالوا : « بما أنه لا يقوم زواج شرعى بين البهائم ، فلا زواج بين غير اليهود ، وبالتالى لا يعد اغتصاب اليهودى لامرأة غير يهودية زنا » ؛ ويضيف سفر « بابابترا » إلى ذلك « ان الله أعطى الأرض وما حوته إلى بنى الإنسان — أى اليهود الصهيونيين — فقط ، وأن غير الصهيونى — بوصفه حيوانا ليس له أى حق فى امتلاك شىء منها ، وأن ما قد يكون فى حيازة شخص غير يهودى إنما هو فى حكم المال المفقود ، يجب أن يعود إلى مالكه الشرعى ، وهو أول يهودى صهيونى يستولى عليه » . . كما يضيف الحاخام « البو » : إن الله منح اليهودى الصهيونى سلطة لا حد لها على حياة سائر الشعوب وأموالهم . . والتلمود بعد ذلك ملىء بالفتاوى والتعاليم التى تحل للقاضى وللحاكم وللموظف الصهيونى محاباة أبناء جنسهم والانتصار لهم ، للإضرار بكل غير صهيونى ، كما تحل للصهيونى الحنث بيمينه أمام القضاء والتلاعب بها ، وتحله من كل قسم وعهد وميثاق حيال غيرهم . . يقول الله تعالى « سأصرف عن آياتى » أى المنصوبات فى الآفاق والأنفس ، كخلق السموات والأرض وما بينهما « الذين يتكبرون فى الأرض » أى أصرفها عنهم بالطبع

على قلوبهم ، فلا يتفكرون فيها ولا يعتبرون بها ، وقال سفيان بن عيينة : سأمنعهم فهم القرآن « بغير الحق » أى يتكبرون بما ليس بحق وهو دينهم الباطل فإن إظهار الكبر على الغير قد يكون بالحق ، فللمحق أن يتكبر على المبطل ، وفى الكلام المشهور : التكبر على المتكبر صدقة « وإن يروا كل آية » أى منزلة أو معجزة « لا يؤمنوا بها » أى لعنادهم وتكبرهم « وإن يروا سبيل » أى طريق « الرشد » أى الهدى الذى جاء من عند الله « لا يتخذوه سبيلا » أى طريقا يسلكونه بقصد منهم ونظر ، بل إن سلكوه فعن غير قصد « وإن يروا سبيل الغى » أى الضلال « يتخذوه سبيلا » أى بغاية الشهوة والتعمد والاعتماد لسلوكه « ذلك » أى هذا الصرف العظيم الذى زاد عن مطلق الصرف، بالعمى عن الإيمان واتخاذ الرسالة « بأنهم » بسبب أنهم « كذبوا بآياتنا » أى الدالة على وحدانيتنا « وكانوا عنها غافلين » أى كان دأبهم وديدنهم معاملتهم إيانا بالإعراض عنها ، وعن الفضيل بن عياض : ذكر لنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا عظمت أمتى للدنيا نزع عنها هيبة الإسلام ، وإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر حرمت عليهم بركة الوحى « والذين كذبوا بآياتنا ولقاء الآخرة » أى وكذبوا بلقائهم الدار الآخرة التى هى موعد الثواب « حبطت » أى بطلت « أعمالهم » أى ما عملوه فى الدنيا من خير كصلة رحم وصدقة فلا ثواب لهم عليه « هل » أى ما « يجزون إلا » جزاء « ما كانوا يعملون » أى من التكذيب والمعاصى « واتخذ قوم موسى من بعده » أى بعد ذهابه إلى المناجاة « من حليهم » أى الذى استعاروه من القبط قبيل خروجهم من مصر ، فبقى عندهم ، ولما أهلك الله تعالى قوم فرعون بقيت تلك الأموال فى أيديهم وصارت ملكا لهم كسائر أملاكهم بدليل قوله تعالى : « كم تركوا من جنات وعيون وزروع ومقام كريم ونعمة كانوا فيها فاكهين ، كذلك وأورثناها قوما آخرين » ، « عجلا » أى صاغه لهم منه السامرى « جسدا » بدل من (عجلا) ، أى صار جسدا ذا لحم ودم « له خوار » أى صوت البقر .. روى أن السامرى صاغه بنوع من الحيل ،

يدخل الريح فى جوفه فيصوت ، والمراد اتخاذهم إياه إلها ، وقيل ماخار إلا مرة واحدة ، « ألم يروا أنه لا يكلمهم ولايهديهم سبيلا » تقريع على فرط ضلالتهم وإفراطهم بالنظر لأن هذا العجل لا يمكنه أن يتكلم بصواب ولا يهدى إلى رشد ولا يقدر على ذلك ، ومن كان كذلك كان جمادا أو حيوانا ناقصا عاجزا وعلى التقديرين لايصلح أن يعبد ، ثم وصفهم الله تعالى بالظلم بقوله « اتخذوه » أى العجل إلها « وكانوا ظالمين » أى واضعين الأشياء فى غير موضعها ، فلم يكن اتخاذ العجل بدعا منهم ولا أول مناكيرهم ، واختلفوا : هل كل قوم موسى عبدوا العجل أو بعضهم ؟ وقيل : بل كان قد بقى من بنى إسرائيل من ثبت على إيمانه وأن ذلك الكفر إنما وقع فى قوم مخصوصين ، والدليل عليه قوله تعالى : « ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون » ، « ولما سقط فى أيديهم » أى ولما ندموا على عبادة العجل ، تقول العرب : لكل نادم على أمر قد سقط فى يده ، وذلك لأن من شأن من اشتد ندمه على أمر أن يعض يده ثم يضرب فخذه فتصير يده ساقطة لأن السقوط عبارة عن النزول من أعلا إلى أسفل .. « ورأوا » أى علموا « أنهم قد ضلوا » عن الطريق الواضح باتخاذ العجل « قالوا » توبة ورجوعا إلى الله تعالى كما قال أبوهم آدم عليه السلام « لئن لم يرحمنا ربنا » الذى لم يقطع قط إحسانه عنا ، فيكف غضبه ويديم إحسانه . « ويغفر لنا » أى يمحو ذنوبنا « لنكونن من الخاسرين » أى فينتقم منا بذنوبنا ، وهذا كلام من اعترف بعظيم ما قدر عليه من الذنوب وندم على ما صدر منه ورغب إلى الله تعالى فى إقالة عثرته ، وإنما قالوا ذلك لما رجع موسى عليه السلام إليهم .. « ولما رجع موسى » أى من مناجاته « إلى قومه غضبان » أى من جهتهم « أسفا » أى حزينا لأن الله تعالى كان قد أخبره أنه قدفتن قومه وأن السامرى قد أضلهم فكان موسى فى حال رجوعه غضبان أسفا ، قال أبو الدرداء : الأسف أشد من الغضب ، وقال ابن عباس : الأسف الحزن . قال الواحدى : والقولان متقاربان ، لأن الغضب من الحزن والحزن من الغضب « قال » موسى لهم « بئسما خلفتمونى من بعدى » أى بئس الفعل

فعلكم بعد فراقى إياكم ؛ وهذا الخطاب يحتمل أن يكون لعبدة العجل كالسامرى وأتباعه أى بئسما خلفتمونى حيث عبدتم العجل وتركتم عبادة الله تعالى، وأن يكون لهارون والمؤمنين أى بئسما خلفتمونى حيث لم تمنعوهم من عبادة غير الله تعالى، أى بئس خلافة خلفتمونى فيها من بعدى خلافتكم «أعجلتم أمر ربكم» أى تركتموه غير تام كأنه ضمن عجل معنى سبق فعدى تعديته، أو أعجلتم أمر ربكم الذى وعدنيه من الأربعين وقدرتم موتى وغيرتم بعدى كما غيرت الأمم بعد أنبيائهم . روى أن السامرى قال لهم حين أخرج لهم العجل وقال هذا إلهكم وإله موسى: إن موسى لن يرجع وإنه قد مات ، وروى أنهم عدوا عشرين يوما بلياليها فجعلوها أربعين ثم أحدثوا ما أحدثوا «وألقى الألواح» أى ألواح التوراة أى طرحها من شدة الغضب وفرط الضجر ، أى عند استماعه حديث العجل حمية للدين ، وكان موسى فى نفسه شديد الغضب ، روى أن التوراة كانت سبعة أسباع فى سبعة ألواح ، فلما ألقاها انكسرت فرفع ستة أسباع ما فيها ، وكان فيها تفصيل كل شىء وبقى سبع فرفع ما كان من أخبار الغيب وبقى ما فيه المواعظ والأحكام والحلال والحرام، قال الرازى : ولقائل أن يقول ليس فى القرآن إلا أنه ألقى الألواح فأما أنه ألقاها بحيث تكسرت فهذا ليس فى القرآن وإنه لجرأة عظيمة على كتاب الله ومثله لايليق بالأنبياء .. «وأخذ برأس أخيه» أى بشعر رأسه بيمينه وشعر لحيته بشماله «يجره» أى أخاه «إليه» غضبان ، وكان هارون عليه السلام أكبر من موسى بثلاث سنوات وأحب إلى بنى إسرائيل من موسى عليه السلام ، لأنه كان ألين منه جانباً ، فقال هارون عند ذلك «قال ابن أم» هارون وموسى من أب وأم فلم ناداه بإبهام فقط ؟ أجيب عن ذلك بأنه إنما ذكرها لأنها كانت مؤمنة فاعتد نسبها لأنها هى التى قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها ليرفقه عليه ، والطاعنون فى عصمة الأنبياء يقولون : أخذ برأس أخيه يجره على سبيل الإهانة والاستخفاف ، والمثبتون لعصمة الأنبياء قالوا : جر رأس أخيه ليستكشف منه كيفية هذه الواقعة «إن القوم»

الذين عبدوا العجل « استضعفونى، أى إنى قد بذلت وسعى فى كفهم فاستذلونى وقهرونى « وكادوا » أى قاربوا « يقتلوننى فلا تشمت بى الأعداء » فلا تفعل بى مايشمتون بى لأجله ، وأصل الشماتة الفرح ببلية من تعاديه ويعاديك ، يقول: لاتسر الأعداء بما تنال منى من مكروه ، ولكن كيف فعل بأخيه ذلك ؟ أجيب بأن هارون إنما قال ذلك خوفا من أن يتوهم جهال بنى إسرائيل أن موسى غضبان على هرون كما هو غضبان على عبدة العجل أى فلا تفعل بى ماتشمت به أعدائى ، فهم أعداؤك ، فإن القوم يحملون هذا الفعل الذى تفعله بى على الإهانة على لاعلى الإكرام «ولا تجعلنى مع القوم الظالمين» اى الذين عبدوا العجل مع براءتى منهم بالمؤاخذة أو بنسبة التقصير.. ولما اعتذر أخوه له وذكر شماتة الأعداء « قال رب اغفرلى » أى ماحملنى عليه مماصنعت بأخى « ولأخى » اغفر له مافرط فى كف بنى إسرائيل عن عبادة العجل « وأدخلنا فى رحمتك » أى بمزيد الإنعام علينا «وأنت أرحم الراحمين » فأنت أرحم بنا مناعلى أنفسنا قال الله تعالى « إن الذين اتخذوا العجل » أى إلها يعبدونه من دون الله تعالى « سينالهم غضب» أى عقوبة « من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا » وهى خروجهم من دارهم ، وللمفسرين فى هذه الآية طريقان :

الأول: أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين باشروا عبادة العجل ،وذلك الغضب إنماحصل لهم فى الدنيا وهو نفس القتل ،وكان ذلك القتل غضبا عليهم ، والمراد بالذلة هو استسلامهم أنفسهم للقتل واعترافهم على أنفسهم بالضلال والخطأ ، وقيل: خروجهم من ديارهم لأن ذل الغربة مثل مضروب ، وهذا إنما هو خبر عما أخبر الله تعالى به موسى عليه السلام حين أخبره بافتتان قومه واتخاذهم العجل ثم أخبره الله تعالى فى ذلك الوقت أنه سينالهم غضب من ربهم وذلة فى الحياة الدنيا ، فكان هذا الكلام سابقا لوقته وهو القتل الذى أمرهم الله تعالى به .

والطريق الثانى أن المراد بالذين اتخذوا العجل الذين كانوا فى زمن النبى

صلى الله عليه وسلم فوصف اليهود الذين كانوا فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم باتخاذ العجل وإن كان ما فعل ذلك إلا آباؤهم لأنهم رضوا بفعلهم، ولأن العرب تعير الأبناء بقبائح فعل الآباء، كما يفعل ذلك فى المناقب يقولون للأمم : فعلتم كذا وكذا وإنما فعل من مضى من آبائهم.. ثم حكم عليهم بأنهم سينالهم غضب من ربهم فى الآخرة وذلة فى الدنيا كما قال تعالى فى صفتهم : ضربت عليهم الذلة والمسكنة «وكذلك» أى كما جزيناهم «نجزى المفترين» أى كل مفتر فى دين الله «والذين عملوا السيئات» أى عملوا الأعمال السيئة ويدخل فى ذلك كل ذنب حتى الكفر «ثم تابوا» أى رجعوا عنها إلى الله تعالى «من بعدها» أى من بعد أعمالهم السيئة «وآمنوا» أى وصدقوا بالله تعالى بأنه لا إله غيره وأنه يقبل توبة التائب ويغفر الذنوب وإن عظمت «إن ربك» أى يا محمد أو يا أيها الإنسان التائب «من بعدها» أى التوبة «لغفور» أى ستار عليهم لما كان منهم «رحيم» بهم أى من عليهم بالجنة ، وفى الآية دليل على أن السيئات بأسرها صغيرها وكبيرها مشتركة فى التوبة وأن الله تعالى يغفرها جميعا بفضله وكرمه ، وهذا من أعظم ما يفيد البشارة والفرح للمذنبين ، وتقدير الآية : إن من أتى بجميع السيئات ثم تاب إلى الله وأخلص التوبة فإن الله يغفرها له .

وقصة عبادة العجل حدثت فى أثناء مناجاة موسى عليه السلام ربه عز وجل فى جبل الطور ، فقد اتخذ قومه من بنى إسرائيل عجلا مصوغا من الذهب والفضة وعبدوه من دون الله تعالى لما كان رسخ فى قلوبهم من فخامة مظاهر الوثنية الفرعونية فى مصر ، ذكرت هذه القصة هنا معطوفة على ما قبلها من خبر المناجاة وألواح الشريعة لما بين السياقين من العلاقة والاشتراك فى الزمن ، وقد صنعوا العجل من الحلى الذى استعاره نساء بنى إسرائيل من نساء المصريين قبل خروجهم من مصر فملكوه ، والعجل ولد البقرة فهو كالحوار لولد الناقة ، والمهر ولد الفرس ، والجسد الجثة وبدن الإنسان حقيقة ، ويطلق على غيره مجازا ، والأحمر كالذهب والزعفران والدم الجاف ، وقال فى لسان العرب :

الجسد جسم الإنسان ولا يقال لغيره من الأجسام المغتذية ، ولا يقال لغير الإنسان جسد من خلق الأرض ، والجسد البدن تقول منه تجسد كما تقول من الجسم تجسم ، ويقول ابن سيده : وقـــد يقال للملائكة والجن جسد . وكل خلق لا يأكل ولا يشرب من نحو الملائكة والجن مما يعقل فهو جسد . وكان عجل بنى إسرائيل جسداً يصيح لا يأكل ولا يشرب ، وكذا طبيعة الجن .

وقال أبو إسحق فى تفسير الآية : الجسد هو الذى لا يعقل ولا يميز إنما معنى الجسد معنى الجثة فقط ، وقال فى قوله « وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام » قال : جسد واحد يعنى على جماعة ، قال ومعناه : وما جعلناهم ذوى أجساد إلا ليأكلوا الطعام ، وذلك أنهم قالوا « مالهذا الرسول يأكل الطعام » فأعلموا أن الرسل أجمعين يأكلون الطعام وأنهم يموتون . وقال المبرد وثعلب: معنى الآية : إنما جعلناهم جسداً ليأكلوا ومثله فى الكلام : ماسمعت منك وما أقبل منك معناه إنما سمعت منك لأقبل منك، وإن كان الجحد فى أول الكلام كان الكلام مجحوداً جحداً حقيقياً وهو كقولك : مازيد بخارج ، قال الأزهرى اجعل الليث قول الله عز وجل « وما جعلناهم جسداً لا يأكلون الطعام » كالملائكة وهو غلط ومعناه الإخبار كما قال النحويون ، أى جعلناهم جسداً ليأكلوا الطعام. وهذا يدل على أن ذوى الأجساد يأكلون الطعام وأن الملائكة روحانيون لا يأكلون الطعام وليسوا جسداً فإن ذوى الأجساد يأكلون الطعام .

وعلم من القصة فى سورة طه أن السامرى هو الذى أخذ منهم ما حملوه من أوزار زينة قوم فرعون فألقاها فى النار فصاغ لهم منها عجلا أى تمثالا له صورة العجل وبدنه وصوته ؛ وإنما نسب ذلك هنا إليهم لأنه عمل رأى جمهورهم الذين طلبوا أن يكون لهم آلهة ، قال الحافظ ابن كثير :وقد اختلف المفسرون فى ذلك العجل هل صار لحما ودما له خوار أو استمر على كونه من ذهب إلا أنه يدخل فيه الهواء فيصوت كالبقر ؟ على قولين . روى القول الأول عن قتادة وأخرج ابن أبى حاتم عن الضحاك أنه خار خورة واحدة ولم يثن .

فمن قال إنه حلت فيه الحياة عللوه بأن السامرى رأى جبريل حين جاوز ببنى إسرائيل البحر، وفى رواية عند نزوله على موسى راكبا فرسا ماوطىء بها أرضا إلا حلت فيها الحياة واخضر النبات فأخذ السامرى من أثرها قبضة فنبذها فى جوف تمثال العجل فصار حيا له خوار، وفسروا بهذا ما حكاه الله تعالى عنه فى سورة طه ؛ ولكن قال بعض هؤلاء: إن خواره كان بتأثير دخول الريح فى جوفه وخروجها من فيه، كقول الآخرين الذين قالوا إنه لم يكن حيا ، والروايات فى حياته لا يصح منها شىء ، ولذلك وقف الحافظ ابن كثير فلم يرجح أحد القولين على الآخر .. « ولما سكت » أى سكت « عن موسى الغضب » أى باعتذار هرون له ، أو بتوبتهم ، فعند ذلك سكن غضبه وهو الوقت الذى قال : « رب اغفر لى ولأخى » . وفى « سكن عن موسى الغضب » روعة فى التعبير والتصوير ليس بعدها روعة . . وفيه بلاغة ما بعدها من بلاغة ؛ وعلماء البلاغة يفيضون فى بيان الاستعارة وجمالها فى هذا الموضع . « أخذ الألواح » أى الألواح التى ألقاها ، منبها على زوال غضبه ، وفى الألواح ما سطر من شريعة التوراة وأحكامها « وفى نسختها » أى فيما نسخ فيها من كتب ، والنسخ عبارة عن النقل والتحويل ، فإذا نسخت كتابا من كتاب حرفا بحرف فقد نسخت ذلك الكتاب فهو نقلك ما فى الأصل إلى الفرع ، لأن الألواح نسخت من اللوح المحفوظ . وعلى قول من قال : إن الألواح لم تكسر وأخذها موسى بعينها بعدما ألقاها يكون المعنى : وفى نسختها أى المكتوب فيها ، وقيل إن موسى عليه السلام لما ألقى الألواح فتكسرت صام أربعين يوما فردت فى لوحين ، وهذا غير معقول . « هدى » أى بيان للحق « ورحمة » أى إرشاد إلى الصلاح والخير ، وقال ابن عباس : هدى من الضلالة ورحمة من العذاب « للذين هم لربهم يرهبون » أى يخافون .. وقيل التقدير : الذين يرهبون ربهم « واختار موسى قومه » أى من قومه أو المعنى : واختار موسى قومه لميقاتنا وأراد بقومه المعتبر منهم « سبعين رجلا » عطف بيان من قومه « لميقاتنا » أى لموقتنا وموعدنا « فلما أخذتهم الرجفة » قيل : إن موسى اختارهم وخرج بهم إلى

طور سيناء لميقات به وكان أمره أن يأتيه فى سبعين من بنى إسرائيل فلما دنا موسى من الجبل كان الغمام قد علاه حتى غشى الجبل كله ودنا موسى عليه السلام وعندما كلمه ربه وقع على جبهته نور ساطع لا يستطيع أحد النظر إليه فضرب دونه الحجاب ، ودنا القوم حتى دخلوا فى الغمام ووقعوا سجدا فسمعوه يكلم موسى يأمره وينهاه ، فلما فرغ من أمره ونهيه انكشف عن موسى الغمام فأقبل إليهم ، فقالوا له : « لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة » ، فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعا، فقام موسى يناشد ربه ويدعوه « قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل » أى من قبل خروجهم إلى الميقات، أو عنى بذلك أنك قدرت على إهلاكهم قبل ذلك بحمل فرعون على أهلاكهم وباغراقهم فى البحر ، وقال وهب : لم تكن تلك الرجفة موتا ولكن القوم لما رأوا تلك الهيبة أخذتهم الرجفة حتى كادت أن تبين منهم مفاصلهم ، فلما رأى موسى ذلك رحمهم وخاف عليهم الموت واشتد خوفه عليهم فقد كانوا له أنصارا سامعين مطيعين، فعند ذلك دعا وبكا وناشد ربه فكشف الله تعالى عنهم الرجفة واطمأنوا وسمعوا كلام ربهم وذلك قوله تعالى: «قال» أى موسى «رب لو شئت أهلكتهم من قبل أى من قبل عبادة العجل « وإياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا؟ » من عبدة العجل وظن موسى أنهم عوقبوا باتخاذ بنى إسرائيل العجل وقال هذا على طريق السؤال ، وقال المبرد : هو استفهام استعطاف أى لا تهلكنا، وقد علم موسى عليه السلام أن الله تعالى أعدل من أن يأخذ بجريرة الجانى غيره وقيل: بما فعل السفهاء من العناد والتمادى فى طلب الرؤية « إن » أى ما « هى إلا فتنتك » أى التى وقع فيها السفهاء لم تكن إلا فتنتك أى اختبارك وابتلاؤك ، وهذا تأكيد لقوله تعالى : « أتهلكنا بما فعل السفهاء منا » لأن معناه لا تهلكنا بفعلهم فإن تلك الفتنة كانت اختبارا منك وابتلاء... «تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت » وحدك « ولينا » أى نعتقد أن لا يقدر على عمل مصالحنا غيرك وأنت لا نفع لك فى شيء من الأمرين من نفع ولا ضر « فاغفر » أى امح ذنوبنا

« وارحمنا » أى اشملنا برحمتك التى وسعت كل شىء « وأنت خير الغافرين » أى لأن غيرك يتجاوز عن الذنب طلبا للثناء .

وقد ذكر فى العهد القديم - سفر الخروج - خبر السبعين من شيوخ بنى إسرائيل فى سياق مناجاة موسى عليه السلام لربه ، ففيه أن السبعين مع موسى وهارون وناداب وابيهو ، رأوا إله إسرائيل ، فرأوا الله وأكلوا وشربوا .. وفيه أن الرب قال لموسى ، إذ طلب منه رؤية مجده: « لا تقدر أن ترى وجهى لأن الإنسان لا يرانى ويعيش » ثم ذكر له أنه أى الرب يضعه فى نقرة صخرة ويستره بيده حتى يجتاز - أى الرب - قال : « ثم ارفع يدى فتنظر ورائى وأما وجهى فلا يرى » . . وفى سفر العدد وقائع ذكر فيها غضب الرب على بنى إسرائيل لتمردهم وعنادهم واتهام اللاويين منهم لموسى وهارون بحب الرياسة والترفع عليهم وزعمهم أنهم كلهم مقدسون والرب فى وسطهم .. وفيه أن الرب أهلك منهم خلقا كثيراً ، وكان موسى يستغيثه ليرفع الهلاك عنهم ويرحمهم ، وقد جاء فيه : وكلم الرب موسى وهارون قائلا ، افترقا من بين هذه الجماعة فإنى افنيهم فى لحظة ، فخرا على وجهيهما وقالا : اللهم إله أرواح جميع البشر هل يخطىء رجل واحد فتسخط على كل الجماعة . فكلم الرب موسى قائلا ، اطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وابيرام ، فقام موسى وذهب إلى داثان وابيرام وذهب وراءه شيوخ إسرائيل ، فكلم الجماعة قائلا: اعتزلوا عن خيام هؤلاء القوم البغاة ولا تمسوا شيئاً مما لهم لئلا تهلكوا بجميع خطاياهم ، فطلعوا من حوالى مسكن قورح وداثان وابيرام وخرج داثان وابيرام ووقفا فى باب خيمتيهما مع نسائهما وبنيهما وأطفالهما ، فقال موسى : بهذا تعلمون أن الرب قد أرسلنى لأعمل كل هذه الأعمال وإنها ليست من نفسى ، إن مات هؤلاء كموت كل إنسان واصابتهم مصيبة كل إنسان فليس الرب قد أرسلنى ، ولكن إن ابتدع الرب بدعة وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم وكل ما لهم فهبطوا أحياء إلى الهاوية تعلمون أن هؤلاء القوم قد ازدروا بالرب .. فلما فرغ من التكلم بكل هذا الكلام انشقت الأرض التى تحتهم ، وفتحت الأرض فاها وابتلعتهم

وبيوتهم وكل من كان لقورح مع كل الأموال ، فنزلوا هم وكل من كان لهم أحياء إلى الهاوية وانطبقت عليهم الأرض فبادوا من بين الجماعة ، وكل إسرائيل الذين حولهم هربوا من صوتهم لأنهم قالوا: لعل الأرض تبتلعنا ، وخرجت نار من عند الرب وأكلت المئتين والخمسين رجلا الذين قربوا البخور . وما فى سورة البقرة من ذكر مسألة طلب بنى إسرائيل لرؤية الله جهرة وأخذ الصاعقة إياهم يدل على أن هذه الواقعة غير الأولى . ورأى محمد عبده اختيار استقلال كل منهما دون الأخرى .

هذه هى نهاية الربع الثالث من هذا الجزء ، وهذا الربع كله فى تتمة قصة موسى ، قصته مع قومه ، وكيف تلقى التوراة من الله ، بعد أن غاب عن قومه أربعين ليلة ، وكيف عبد قومه الأوثان وهو غائب عنهم فى مناجاة الله ، وكيف عاد فوبخ أخاه هرون نائبه على قومه ووبخ قومه ، وكيف أخذ سبعين رجلا من قومه لمناجاة الله وليعلنوا التوبة مما اقترفوا من سيئات ، فأخذتهم الرجفة والزلزلة ، فتضرع موسى إلى ربه، حتى كشف عنهم ما نزل بهم . وفى هذا كشف لصنيع بنى إسرائيل مع نبيهم ، ولكفرهم برسالته حتى فى حياته ؛ بعد أن أنعم الله عليهم بنعمة النجاة من فرعون وعذابه .

الربع الرابع

١٥٦ — وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْآخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ .

١٥٧ — ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ

عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ .

هاتان الآيتان الكريمتان هما مطلع الربع الرابع من هذا الجزء ، وهما فى بيان دعاء موسى لربه ومناجاته له أن يكتب له ولقومه ولمن اتبعوه فى الدنيا حسنة وفى الآخرة حسنة لأنه وقومه رجعوا إلى الله ، وتابوا إليه ؛ وفى بيان رد الله عز وجل على موسى ، وأنه قسم الجزاء على الناس ، فالجنة للمؤمنين ، والنار للعاصين ، الجنة للمتقين المزكين المؤمنين بآيات الله ، والمؤمنين بعد عصر موسى بآخر الرسالات ، وهى رسالة محمد عليه السلام . ثم يشرح الله عز وجل شريعة محمد ، ويبين جزاء المؤمنين به ، من الفوز والنجاة .. والفلاح فى الدنيا والآخرة .

« واكتب » أى أوجب أو أثبت أو أقسم « لنا » أى فى مدة إحيائك لنا « فى هذه الدنيا » أى الحاضرة « حسنة » أى حسن معيشة وتوفيق طاعة « وفى الآخرة » أى واكتب لنا فى الحياة الآخرة حسنة وهى الجنة « إنا هدنا » أى تبنا « إليك » أى عما لا يليق بجنابك ، وأصله الرجوع برفق « قال » الله تعالى لموسى « عذاب أصيب به من أشاء » من خلق أذنب أو لم يذنب ، إذ لا اعتراض « ورحمتى وسعت » أى عمت وشملت « كل شىء » من خلق فى الدنيا . ما من مسلم ولا كافر ولا مطيع ولا عاص إلا وهو متقلب فى نعمتى ، وهذا معنى حديث أبى هريرة فى الصحيحين : إن رحمتى سبقت غضبى ، وفى رواية غلبت غضبى ، « فسأكتبها » أى فى الآخرة « للذين يتقون » الله « ويؤتون الزكاة » خصها لأنها كانت أشق عليهم ، قال قتادة : لما نزل « ورحمتى وسعت كل شىء » قال إبليس : أنا من ذلك الشىء ؟ فقال تعالى « فسأكتبها للذين

يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون، ولا يكفرون بشيء منها. فأيس إبليس منها وتمناها اليهود والنصارى وقالوا نحن نتقي ونؤمن بآيات ربنا، فنزل قوله تعالى: «الذين يتبعون الرسول النبي الأمي» وإنما سماه رسولا بإضافته الى الله عز وجل لأنه الواسطة بين الله تعالى خلقه لتبليغ رسالته وأوامره ونواهيه وشرائعه إليهم ؛ ونبيا لأنه رفيع الدرجة عند الله ، ثم وصفه بالأمي وهو الذي لا يكتب ولا يقرأ وهي صفة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم ، قال صلى الله عليه وسلم : لا نكتب ولا نحسب . . والعرب أكثرهم ما كانوا يكتبون ولا يقرأون الخط والنبي صلى الله عليه وسلم كان كذلك ، قال أهل التحقيق : وكونه أميا بهذا التفسير كان من جملة معجزاته ، وبيانه من وجوه : الوجه الأول أنه عليه الصلاة والسلام كان يقرأ عليهم كتاب الله تعالى منظوما مرة بعد أخرى من غير تبديل ألفاظه ولا تغيير كلماته ، والخطيب من العرب اذا ارتجل خطبة ثم أعادها فلابد أن يزيد فيها وأن ينقص عنها بالقليل والكثير ثم إنه عليه الصلاة والسلام مع أنه ما كان يكتب ولا يقرأ . يتلو كتاب الله من غير زيادة ولا نقصان ولا تغيير فكان ذلك معجزة ، واليه الإشارة بقوله تعالى سنقرئك فلا تنسى . والثاني أنه لو كان يحسن الخط والقراءة لكان متهما في أنه طالع كتب الأولين فجعل هذه العلوم من تلك المطالعة . فلما أتى بهذا القرآن العظيم المشتمل على العلوم الكثيرة من غير تعلم ولا مطالعة كان ذلك من المعجزات ، وهذا هو المراد من قوله تعالى : «وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لا رتاب المبطلون» . . الثالث أن تعلم الخط سهل فإن أقل الناس ذكاء وفطنة يتعلمون الخط بأدنى سعي، فعدم تعلمه دليل على نقصان عظيم في الفهم ، ثم إنه تعالى أتاه علوم الأولين والآخرين وأعطاه من العلوم والحقائق ما لم يصل إليه أحد من الخلق ومع تلك النعمة العظيمة في العقل والفهم جعله بحيث لم يتعلم الخط الذي يسهل تعلمه على أقل الخلق عقلا وفهما ، فكان الجمع بين هاتين الحالتين المتضادتين جاريا مجرى الجمع بين الضدين ، وذلك

من الأمور الخارقة للعادة وجارية مجرى المعجزات ، « الذى يجدونه » أى علماء بنى إسرائيل « مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » باسمه ونعته ، ولكنهم كتموا ذلك وبدلوه وغيروه حسداً منهم له وخوفا على زوال رئاستهم ، وقد حصل لهم ما كانوا يخافونه ، فقد زالت رئاستهم ، ووقعوا فى الذل والهوان ، وعن عطاء بن يسار قال : لقيت عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما فقلت : أخبرنى عن صفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فى التوراة فقال : « أجل انه لموصوف فى التوراة ببعض صفته فى القرآن ، يا أيها النبى أنا أرسلناك شاهداً ومبشرا ونذيرا وحرزا للأميين أنت عبدى ورسولى سميتك المتوكل ليس بفظ ولا غليظ ولا صخاب فى الأسواق ولا يدفع السيئة بالسيئة ولكن يعفو ويغفر ، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا لا إله إلا الله ويفتح الله به أعينا عميا وآذانا صماء وقلوبا غلفا(١) . « يأمرهم بالمعروف » قال الزجاج : يجوز أن يكون استئنافا ويجوز أن يكون المعنى يجدونه مكتوبا عندهم أنه يأمرهم بالمعروف ، والمعروف : كل ما تعرفه النفس ولا تنكره من كل ما هو حق وخير ، وجميل فى الحياة « وينهاهم عن المنكر » هو ضد الأمور المذكورة ، وقال عطاء : يأمرهم بالمعروف بخلع الانداد وبمكارم الأخلاق وبصلة الأرحام ، وينهاهم عن المنكر عبادة الأوثان وقطع الأرحام « ويحل لهم الطيبات » أى ما حرم عليهم فى شرعهم كالشحوم « ويحرم عليهم الخبائث » كالدم ولحم الخنزير والربا والرشوة « ويضع عنهم إصرهم » أى ثقلهم الذى كان يحمل عليهم « والأغلال التى كانت عليهم » أى ويضع الأثقال والشدائد التى كانت عليهم من الدين والشريعة ، وذلك مثل قتل النفس فى التوبة والأعضاء الخاطئة ، وقرض النجاسة من الثوب بالمقراض وغير ذلك من الشدائد التى كانت على بنى إسرائيل ، شبهت بالأغلال التى تجمع

---

(١) الفظ : السيء الخلق . الغليظ : الجافى القاسى والصخاب ، بالسين والصاد : الكثير الصياح . والاعوجاج : ضد الاستقامة ، والملة العوجاء الكفر . والقلب الأغلف : الذى لا يصل إليه شىء بنفعه كأنه فى غلاف .

اليد إلى العنق ؛ كما أن اليد لا تمتد مع وجود الغل فكذلك لا تمتد إلى الحرام الذى نهيت عنه ، وكانت هذه الأثقال فى شريعة موسى عليه السلام ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم نسخ ذلك كله ويدل عليه قوله صلى الله عليه وسلم : بعثت بالحنيفية السهلة السمحة « فالذين آمنوا به » أى بمحمد صلى الله عليه وسلم « وعزروه » أى بتعظيمه وإجلاله ودفع الأعداء عنه « ونصروه » على أعدائه « واتبعوا النور الذى أنزل معه » أى القرآن سمى نورا لأنه به يستنير قلب المؤمن فيخرج من ظلمات الشك والجهالة إلى ضياء اليقين والعلم ، وقيل : الهدى والبيان والرسالة ، وقيل : الحق الذى بيانه فى القلوب كبيان النور ، وحمل النور هنا على القرآن والقرآن ما نزل مع محمد صلى الله عليه وسلم وإنما نزل مع جبريل عليه السلام لأن معناه أنه أنزل مع نبوته لأن نبوته ظهرت مع ظهور القرآن ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الصفات قال « أولئك هم المفلحون » أى الفائزون بالجنة ، والناجون من النار فى الآخرة ، والفائزون كذلك فى الدنيا بالسعادة والتوفيق ورضاء الله والملائكة والناس أجمعين ..

وفى هاتين الآيتين جعل الرحمة من نصيب الذين استكملوا هذه الصفات: التقوى، وإيتاء الزكاة ، والإيمان بآيات الله ، واتباع الرسول.. وجعل الفلاح للذين آمنوا بالرسول وعظموه ونصروه ، والذين اتبعوا القرآن الذى انزل عليه ، ووصف الله عز وجل القرآن بأنه نور . أما التقوى فمنزلتها جليلة ، وهى أصل الإيمان ، ودعامة الإسلام..وإخراج الزكاة أصل كبير من أصول الإسلام ، وركن خطير من أركانه . ولو نظرنا إلى الزكاة وما تضمنته من بث روح الرحمة بين الناس ، وعطف بعضهم على بعض ، وتعاونهم فى الحياة بما لا ضرر فيه لأحد منهم ، لملكنا العجب والإعجاب . وتجد هذا الركن من أركان الإسلام من أيمن ما شرع الله لعباده : فهو المستل لضغائن النفوس وأحقادها ، والمقرب بين القلوب ، والمقوى للروابط بين طبقات الناس ، بل هو وحده الذى يحل أعظم مشكلة عالمية ظهرت فى هذا الزمن ، وهى مشكلة « الشيوعية » الممقوتة . والزكاة : هى جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير،

فيجبر به قلوباً كسيرة ، ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ، ويرفه عن نفوس تعسة ، فتكون رسول سلام ، وداعى محبة وتقوية لرابطة الأمة حتى تصير بها كتلة واحدة ، كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً ، بل كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر . الزكاة : تجعل الأمة كالأسرة الواحدة متضامة متساندة ، وتغرس فى نفوس الجميع حب الخير للجميع ، فتعطيها من قوة التماسك ما يشد أزرها ، ويضمن فى جميع الأحوال نصرها . وليست مع ذلك فادحة بحيث ترهق من يؤديها أو تعود عليه بالخسار . وماذا يضر مالك المائة مثلا أن يخرج منها اثنين ونصفا ، وهو مقدار نسبة الزكاة فى الغالب ؟!

وقد فرضت شريعة الزكاة فى السنة الثانية من الهجرة ، وهى جزء قليل يخرجه الغنى من ماله الكثير ، فيجبر به قلوباً كسيرة ، ويسد حاجة من ضعف عن القيام بحاجة نفسه ، ويرفه عن الفقراء والمحرومين ، ومقدار نسبتها فى الغالب لا يزيد عن اثنين ونصف فى المائة . وما أجل قول الله تعالى : « وفى أموالهم حق معلوم، للسائل والمحروم » ، وقوله فى وصف المؤمنين : « والذين هم للزكاة فاعلون » ، وقوله « أولم يروا أن الله يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر ؟ إن فى ذلك لآيات لقوم يؤمنون . فآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ، ذلك خير للذين يريدون وجه الله، وأولئك هم المفلحون، وما آتيتم من ربا ليربو فى أموال الناس فلا يربو عند الله، وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون » . وقوله تعالى « وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه » ، وفى أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فيض كثير من تأكيد شريعة الزكاة وتقريرها وإيجابها على الأغنياء . هذا الركن الكبير من أركان الإسلام ، هو رسول السلام ، وداعى المحبة والتعاون والعطف بين الناس ، والمقوى للروابط بين الأفراد والطبقات ، والمستل لأحقاد النفوس وأضغانها . والمقرب بين القلوب : لتصير الأمة كتلة واحدة كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا . وكالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى..

الزكاة أجل إصلاح اجتماعى أتت به شريعة إلهية ، وأكبر دعوة إلى التعاطف والتساند والتماسك بين الناس ، وهى وما حبب فيه الإسلام من الصدقة والإحسان ، ورعاية الفقير ، وإكرام الجار ، وقرى الضيف وابن السبيل ، من دعائم الأمن والسلام .. ولما مات رسول الله صلوات الله عليه ، كانت القبائل العربية ، لا تزال بحمقها مصطبغة بصبغة جاهليتها فمنعت الزكاة زاعمة أنه إتاوة مفروضة على الناس لصاحب السلطان ، فشمر أبو بكر لقتالهم عليها حتى يثوبوا إلى رشدهم وإلى شريعة الإسلام ، وهذا يدلنا على خطر هذا الركن من أركان الإسلام وأهميته ؛ ويدلنا على اهتمام الإسلام به .. وأما الإيمان بآيات الله فهو الإيمان بالقرآن بأسره ، والشريعة عن آخرها ، والإيمان بما أنزل من قبل من كتب ، مثل التوراة والإنجيل وغيرهما من سائر الكتب السابقة على القرآن .. ولعل قول الله عز وجل « فسأكتبها للذين يتقون » قد أريد بهم المؤمنون من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأمثاله . . هذا والكتب المنزلة مائة وأربعة كتب : أنزل على شيث ستون صحيفة ، وعلى إبراهيم ثلاثون . وعلى موسى قبل التوراة عشرة ، فهذه مائة ، والأربعة الأخرى هى : التوراة والإنجيل والزبور والفرقان العظيم . وأما اتباع الرسول فهو زبدة الإيمان ، وهو أصل الإيمان ، وكفى بالرسول الأعظم هاديا ومرشداً وقائدا وزعيما ومبشرا ونذيرا .

وفى هاتين الآيتين ، أو على الأصح فى الآية الثانية يقول الله عز وجل : « الذين يتبعون الرسول النبى » ، وفى الفرق بين الرسول والنبى يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : « النبى فى اللغة (فعيل) من مادة النبأ بمعنى الخبر المهم العظيم الشأن ، أو بمعنى الارتفاع وعلو الشأن ، والأول أظهر ، وأكثر العرب لا تهمزه ، بل نقل أنه لم يهمزه إلا أهل مكة ، ولكن النبى أنكر على رجل قاله : يا نبىء الله . وأما فى الاصطلاح فالنبى : من أوحى الله إليه وأنبأه بما لم يكن يعلم بكسبه من خبر أوحكم يعلم به علما ضرورياً أنه من الله عزوجل ، والرسول نبى أمره الله تعالى بتبليغ شرع ودعوة دين وبإقامته بالعمل ، ولا يشترط فى الوحى إليه أن يكون كتابا يقرأ وينشر ، ولا شرعا جديدا

يعمل به ، ويحكم بين الناس . بل قد يكون تابعا لشرع غيره كالرسل من بنى إسرائيل كانوا متبعين لشريعة التوراة عملا وحكما بين الناس كما قال تعالى : « إنا أنزلنا التوراة فيها هدى ونور ، يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا » ؛ وقد يكون ناسخا لبعضه كما نسخ عيسى بعض أحكام التوراة وأقر أكثرها . كما يدل على ذلك مثل قوله تعالى حكاية لما خاطب به بنى إسرائيل : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ولأحل لكم بعض ما حرم عليكم »، وفى سيرته المأثورة عن أصحاب الأناجيل الأربعة وغيرهم ما يدل على ذلك ، ففيها أنه ما جاء لينقض الناموس — أى التوراة - وإنما جاء ليتمم ، وأنه أحل لهم بعض ما حرم عليهم حتى ما دل عليه عموم ترك العمل يوم السبت فخصه بغير العمل الصالح من أمور الدنيا ، بل نرى فرق النصارى الرسميين بعد تكوين نظام الكنيسة قد تركوا ما عدا الوصايا العشر من شريعة التوراة واستبدلوا يوم الأحد بيوم السبت فيما حرمت الوصايا من العمل فيه . وخالف الأكثرون وصية النهى عن اتخاذ الصور والتماثيل ، ولكن لا يستطيعون أن يأتوا بدليل على هذا من قول المسيح ولا من فعله . وجملة القول أن الرسول أخص فى عرف شرعنا من النبى ، فكل رسول نبى ولا عكس ، وإذا أطلق الرسول بالمعنى الذى يعم رسل الملائكة كان من هذا الوجه أعم من النبى لأن الله اصطفى من الملائكة رسلا ومن الناس ، ولم يجعل فيهم أنبياء ، فنبينا صلى الله عليه وسلم نبى رسول ، وجبريل عليه السلام رسول غير نبى ، وآدم عليه السلام نبى غير رسول كأكثر أنبياء بنى إسرائيل ، وهذا على قول المحققين فى نص حديث الشفاعة فى الصحيحين وغيرهما الناطق بأن نوحا أول رسول أرسله الله إلى أهل الأرض .

وقوله تعالى « يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » يؤيده ما ورد فى الكتاب المقدس من بشارات كثيرة بمحمد صلوات الله عليه وسلم .

وقد كانت الأنبياء الإسرائيلية مثل أشعيا وأرميا ودانيال وحزقيال وعيسى عليهم السلام أخبروا عن كثير من الأحداث . كحادثة بختنصر ،

وكورش والاسكندر وخلفائه ، وحوادث أرض أدوم ومصر ونينوى وبابل ، ويبعد كل البعد أن لا يخبر أحد منهم عن رسالة محمد صلى الله عليه وسلم وعن بعثته .. مع أن دينه بلغ شرقا وغربا وغلب الأديان ، وامتد دهرا بحيث مضى على ظهوره نحو أربعة عشر قرناً من الزمان ، ويمتد إن شاء الله إلى آخر بقاء الدنيا . وظهر فى أمته ألوف من العلماء الربانيين ، والحكماء المتقنين ، والأولياء ذوى الكرامات والمجاهدات ، والسلاطين العظام . وهذه الحادثة كانت أعظم الحوادث ، وما كانت أقل من حادثة أرض أدوم ونينوى وغيرهما ، فكيف يجوز العقل السليم أنهم أخبروا عن الحوادث الضعيفة وتركوا الإخبار عن هذه الحادثة العظيمة . على أن الأخبار الواقعة فى حق محمد صلى الله عليه وسلم مع ذلك كثيرة .

ففى الباب الثامن عشر من سفر التثنية ما نصه : « فقال الرب لى نعم جميع ما قالوا ، وسوف أقيم لهم نبيا مثلك من بين إخوتهم وأجعل كلامى فى فمه ويكلمهم بكل شىء آمره به ، ومن لم يطع كلامه الذى يتكلم به باسمى فأنا أكون المنتقم من ذلك ، فأما النبى الذى يجترى بالكبرياء ويتكلم فى اسمى مالم آمره بأنه يقوله ، بل باسم آلهة غيرى فليقتل ، فإن أجبت وقلت فى قلبك كيف أستطيع أن أميز الكلام الذى لم يتكلم به الرب ، فهذه تكون لك آية أن ما قاله ذلك النبى فى اسم الرب ولم يحدث فالرب لم يكن تكلم به بل ذلك النبى صوره فى تعظم نفسه ولذلك لا تخشاه » . وهذه البشارة ليست بشارة بيوشع عليه السلام كما يزعم أحبار اليهود ولا بشارة بعيسى عليه السلام كما زعم علماء المسيحية بل هى بشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم . وفى الإصحاح ٣٢ من سفر التثنية ما نصه : « هم أغارونى بغير إله وأغضبونى بمعبوداتهم الباطلة وأنا أيضا أغيرهم بغير شعب وبشعب جاهل أغضبهم » ، والمراد بشعب جاهل : العرب لأنهم كانوا فى غاية الجهل والضلال وما كان عندهم علم ولا ثقافة ، بل ما كانوا يعرفون سوى عبادة الأوثان والأصنام ، وكانوا محقرين عند اليهود لكونهم من هاجر الجارية : فمقصود الآية أن بنى إسرائيل أغاروني

بعبادة المعبودات الباطلة فأغيرهم باصطفاء الذين هم عندهم محقرون وجاهلون . فأوفى بما وعد ، فبعث من العرب النبي صلى الله عليه وسلم فهداهم إلى الصراط المستقيم ، كما قال الله تعالى فى سورة الجمعة : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفى ضلال مبين » ، وليس المراد بالشعب الجاهل اليونانيين، لأنهم كانوا قبل ظهور عيسى عليه السلام بأزيد من ثلثمائة سنة ، وكانوا فائقين على أهل العالم كلهم فى العلوم والفنون، وكان منهم جميع الفلاسفة. وفى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ ما نصه: « وقال: جاء الرب من سيناء وأشرق لنا من ساعير واستعلن من جبل فاران ومعه ألوف الأطهار . فى يمينه سنة من نار . فمجيئه من سيناء : إعطاؤه التوراة لموسى عليه السلام ، وإشراقه من ساعير إعطاؤه الإنجيل لعيسى عليه السلام ، واستعلانه من جبل فاران : إنزاله القرآن ، لأن فاران جبل من جبال مكة ، فقد جاء فى بيان حال إسماعيل عليه السلام من سفر التكوين ، وكان الله معه ونما وسكن فى البرية وصار شابا يرمى بالسهام ، وسكن برية فاران وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر ولا شك أن إسماعيل عليه السلام كانت سكناه بمكة .

وفى الإصحاح السابع عشر من سفر التكوين وعد الله إبراهيم عليه السلام وعدا كريما ، فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٤٤ ما نصه : « وعلى إسماعيل أستجيب لك ، هوذا أباركه وأكبره وأكثره جدا ، فسيلد اثنى عشر رئيسا واجعله لشعب كبير » وقوله « أجعله لشعب كبير » يشير إلى محمد صلى الله عليه وسلم لأنه لم يكن فى ولد إسماعيل من كان لشعب كبير غيره ، وقد قال الله تعالى حاكيا دعاء إبراهيم وإسماعيل فى حقه عليهم السلام فى كلامه المجيد أيضا: « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم » .

ونجد علماء اليهود قد سلموا كونه مبشراً به فى التوراة لكن بعضهم أسلم وبعضهم بقى فى الكفر ؛ كما روى من حديث مخيريق أنه كان يعرف رسول

الله صلى الله عليه وسلم بصفته وغلبب عليه إلفه لدينه فلم يزل على ذلك حتى كان يوم غزوة أحد ، وكان يوم السبت فقال : يا معشر اليهود والله إنكم لتعلمون أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : فإن اليوم يوم السبت ؟ قال : لا سبت . ثم أخذ سلاحه وخرج حتى أتى النبي صلى الله عليه وسلم بأحد ، وكان يوم السبت ، وعهد إلى من وراءه من قومه : إن قتلت هذا اليوم فمالى لمحمد يصنع فيه ما أراه الله تعالى ، فقاتل حتى قتل ، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ، مخيريق خير يهود ، وقبض النبي صلى الله عليه وسلم أمواله ، فعامة صدقات رسول الله صلى عليه وسلم بالمدينة منها.. وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيت المدراس[1] فقال: أخرجوا إلى أعلمكم ، فقالوا : عبد الله بن صوريا، فخلا به رسول الله صلى الله عليه وسلم فناشده بدينه وبما أنعم الله عليهم وأطعمهم من المن والسلوى وظللهم من الغمام : أتعلم أنى رسول الله ؟ قال : اللهم نعم ، وان اليهود يعرفون ما أعرف ، وان صفتك ونعتك لمبين فى التوراة ولكن حسدوك ، قال: « فما يمنعك أنت » ؟ قال : أكره خلاف قومى ، عسى أن يتبعوك ويسلموا فأسلم.. وعن صفية بنت حيى رضى الله عنها لما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ونزل قباء غدا عليه أبى حيى بن أحطب وعمى أبو ياسر بن أحطب مغلسين ، فلم يرجعا حتى كان غروب الشمس ، فأتيا كالين كسلانين ساقطين يمشيان الهوينا ، فهششت إليهما فما التفت إلى أحد منهما مع ما بهما من الهم، فسمعت عمى أبا ياسر يقول لأبى : أهو هو ؟ (أى المبشر به فى التوراة)، قال : نعم والله ، قال : أتثبته وتعرفه ؟ قال : نعم . قال : فما فى نفسك منه ؟ قال : عداوته والله ما بقيت أبداً » . . . . وفى الإصحاح الحادى عشر من إنجيل متى فى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٤٤ مانصه: هكذا «فإن أردتم أن تقبلوه فهو إيليا المزمع أن يأتى» ، وفى الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ « فإن أردتم أن تقبلوه فهذا هو المزمع بالإتيان » ،

(١) المدارس: المدرس والمعلم.

فالمترجم الأخير بدل لفظ إيليا بهذا ، وأمثال هؤلاء المترجمين لو بدلوا اسما من أسماء النبي محمد لأجل عادتهم وعنادهم فلا عجب .

وفي الإصحاح الرابع من إنجيل يوحنا في الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ هكذا : « لما علم يسوع » ، وفي الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨١٦ وسنة ١٨٦٠ « لما علم الرب » ، فبدل المترجمان الأخيران لفظ يسوع الذي كان علم عيسى عليه السلام بالرب الذي هو من الألفاظ التعظيمية ، فلو بدلوا اسما من أسماء النبي محمد صلى الله عليه وسلم لأجل عادتهم وعنادهم فلا عجب .

وفي إنجيل يوحنا الترجمة العربية المطبوعة سنة ١٨٢١ وسنة ١٨٣١ وسنة ١٨٤٤ في لندن في الإصحاح الرابع عشر من إنجيل يوحنا ما نصه : « إن كنتم تحبونني فاحفظوا وصاياي ، وأنا أطلب من الآب فيعطيكم فارقليط آخر ليثبت معكم إلى الأبد ، روح الحق الذي لن يطيق العالم أن يقبله لأنه ليس يراه ولا يعرفه وأنتم تعرفونه لأنه مقيم عندكم وهو ثابت فيكم ، والفار قليط: روح القدس الذي يرسله الآب باسمي هو يعلمكم كل شيء ، وهو يذكركم كل ماقلته لكم ، والآن قلت لكم قبل أن يكون حتى إذا كان تؤمنون ». وفي الباب الخامس عشر من إنجيل يوحنا مانصه : « فأما إذا جاء الفار قليط الذي أرسله أنا اليكم من الآب روح الحق الذي من الآب ينبثق فهو يشهد لأجلي ، وأنتم تشهدون لأنكم معي من الابتداء » : وفي الإصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا مانصه : « لكني أقول لكم الحق ،انه خير لكم ان أنطلق لأني إن لم أنطلق لم يأتكم الفارقليط فاما ان انطلقت أرسلته إليكم ، فإذا جاء ذاك وبخ العالم على خطيئة وعلى بر وعلى حكم . أما على الخطيئة فلأنهم لم يؤمنوا بي ، وأما على البر ، فلأني منطلق الى الآب ، ولستم ترونني بعد ، وأما على الحكم فان أكون « رئيس » هذا العالم وذو دين ، وإن لي كلاما كثيرا أقوله لكم ولكنكم لستم تطيقون حمله الآن ، وإذا جاء روح الحق ذاك فهو يعلمكم جميع الحق لأنه ليس ينطق من عنده بل يتكلم بكل مايسمع ويخبركم بما

سيأتى ، وهو يمجدنى لأنه يأخذ مما هو لى ويخبركم ، جميع ماهو للأب فهولى ، فمن أجل هذا قلت إن مما هولى يأخذ ويخبركم »

وهذا اللفظ (الفار قليط) يونانى ، أى المعزى ، ويتضمن أيضاً معنى المحاج كما قال : بوست فى قاموسه ، ومعناه : رفيع المقام سام . جليل . مجيد . شهير . وهى كلها معان تقرب من معنى: محمد وأحمد ومحمود . والمراد بهذا اللفظ: النبى المبشر به صلى الله عليه وسلم، لا الروح النازل على تلاميذ عيسى عليه السلام الذى جاء ذكره فى الباب الثانى من كتاب الأعمال .

وكتب المقوقس ملك القبط جواب كتاب النبى صلى الله عليه وسلم هكذا: إلى محمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط سلام عليك، أما بعد فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وما تدعو إليه ،وقد علمت أنَّ نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أنه يخرج بالشام وقد أكرمت رسولك » ، هذا وإن لم يسلم لكنه أقر فى كتابه : إنى قد علمت أن نبيا قد بقى .

وجاء الجارود بن العلاء فى قومه إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : والله لقد جئت بالحق ، ونطقت بالصدق ، والذى بعثك بالحق نبيا لقد وجدت وصفك فى الإنجيل ، وبشر بك ابن البتول ، فطول التحية لك ، والشكر لمن أكرمك ، لا أثر بعد عين ، ولا شك بعد يقين ، مد يدك فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله . ثم آمن قومه وهذا الجاورد كان من علماء النصارى وقد أقر بأنه قد بشر به ابن البتول أى عيسى عليه السلام ، فظهر أن المسيحيين أيضـا كانوا منتظرين لخروج نبى بشر به عيسى عليه السلام .

وفى إنجيل برنابا : « اعلم يا برنابا أن الذنب وإن كان صغيراً يجزى الله عليه لأن الله غير راض عن الذنب ، ولما اكتسب أمى وتلاميذى لأجل الدنيا سخط الله لأجل هذا الأمر وأراد باقتضائه عدله أن يجزيهم فى هذا العالم على هذه العقيدة غير اللائقة ، ليحصل لهم النجاة من عذاب جهنم ، ولايكون لهم أذية هناك، وإنى وإن كنت بريئا لكن بعض الناس لما قالوا فى حق إنه الله وابن الله

كره الله هذا القول ، واقتضت مشيئته أن تضحك الشياطين يوم القيامة منى وأن يستهزئوا بى . فأراد بمقتضى لطفه ورحمته أن يكون الضحك والاستهزاء فى الدنيا بسبب موت يهوذا ، ويظن كل شخص أنى صلبت ، لكن هذه الإهانة والاستهزاء تبقيان إلى أن يجيء محمد رسول الله ، فإذا جاء فى الدنيا ينبه كل مؤمن على هذا الغلط، وترتفع هذه الشبهة من قلوب الناس.

هذا وفى شريعة موسى كثير من الأغلال التى رفعها الله عن عباده فى شريعة الإسلام كما قال الله عز وجل : « ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم » ، وكما قال : « ولا تحمل علينا إصرا كما حملته على الذين من قبلنا » .

وفى الإصحاح العشرين من سفر اللاويين : كل إنسان سب أباه أو أماه فإنه يقتل .

وفى الإصحاح الحادى والعشرين من سفر الخروج : من ضرب أباه أو أمه يقتل قتلا ، وفيه أيضاً : إذا نطح ثور رجلا أو امرأة فمات يرجم الثور ولا يؤكل لحمه ، وأما صاحب الثور فيكون بريئا ، ولكن إن كان ثورا نطاحا من قبل، وقد أشهد على صاحبه، ولم يضبطه فقتل رجلا أو امرأة فالثور يرجم وصاحبه يقتل أيضاً .

وفى الإصحاح التاسع عشر من سفر العدد : من مس ميتا ، ميتة إنسان ما ، يكون نجسا سبعة أيام ، يتطهر فى اليوم الثالث ، وفى اليوم السابع يكون طاهرا ، فإن لم يتطهر فى اليوم الثالث ففى السابع لا يكون طاهرا .. وإذا مات إنسان فى خيمة فكل من دخل الخيمة وكل من كان فيها يكون نجسا سبعة أيام ، وكل إناء مفتوح ليس عليه سداد بعصابة ، فإنه نجس . وكل من مس على وجه الصحراء قتيلا بالسيف أو ميتا أو عظم إنسان أو قبرا يكون نجسا سبعة أيام .

وفى الإصحاح الثالث والعشرين من سفر التثنية : لا تقرض أخاك بربا ، للأجنبى تقرض بربا ، ولكن لأخيك لا تقرض بربا .

١٥٨ - قُلْ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ
مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ
فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَكَلِمَـٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ .

هذه الآية الكريمة هي في تصوير دعوة محمد عليه السلام إلى اليهود ليؤمنوا به ، لأنه بشارة موسى ، كما أنه بشارة عيسى ، بل دعوة محمد إلى الناس جميعاً ، ليؤمنوا برسالة الإسلام ، لأنه بشارة الأنبياء جميعا ، ولأن دينه خاتم الديانات ، ورسالته خاتمة الرسالات ، يقول الله عز وجل في هذه الآية الكريمة . « قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم » الخطاب عام ، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مبعوثا إلى كافة الثقلين ، بل وإلى الملائكة . قال السبكي والبقاعي وغيرهما : وهذا هو اللائق بمقامه صلى الله عليه وسلم وإن خالف في ذلك بعضهم ، وأما سائر الرسل فمبعوثون إلى أقوامهم فقط ، لقوله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد قبلي : أرسلت إلى الأحمر والأسود ، وجعلت لي الأرض طيبة ، مسجداً وطهورا ، ونصرت على عدوي بالرعب يرعب مني مسيرة شهر ، وأطعمت الغنيمة دون من قبلي ، وقيل لي سل تعطه ، فأطلب شفاعتي لأمتي » . وكان آدم مبعوثا إلى جميع أولاده ، ونوح لما خرج السفينة كان مبعوثا إلى الذين كانوا معه ، مع أن جميع الناس في ذلك الزمان ما كانوا إلا ذلك القوم ، وذلك لم يكن ذلك لعموم رسالتهما بل للحصر المذكور ، فليس ذلك من باب عموم الرسالة .. وقد طار الخبر بشريعة محمد صلى الله عليه وسلم إلى كل أفق ، ولم يبق أهل مدر ولا وبر ولا سهل ولا جبل ولا بحر ولا بر في مشارق الأرض ومغاربها إلا وقد بلغ نبؤه إليهم وملئت به مسامعهم وألزمهم الله الحجة وهو سائلهم يوم القيامة عن الايمان به .. وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن الرسول صلوات الله عليه أنه قال : أنا سيد الناس يوم القيامة . وعن جابر

رضى الله عنه عن الرسول ﷺ قال : أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا ، وأنا قائدهم إذا وفدوا ، وأنا خطيبهم إذا انتصروا ، وأنا مستشفعهم إذا حبسوا ، وأنا مبشرهم إذا أيسوا ؛ لواء الحمد يومئذ بيدى وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر . وعن أبى بن كعب رضى الله تعالى عنه أن النبى صلى الله وسلم قال : إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير فخر . . وعن ابن عباس رضى الله عنهما أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : وأنا حبيب الله ولا فخر ، وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة تحته آدم فمن دونه ولا فخر ، وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر . وأنا أكرم الاولين والآخرين ولا فخر . . وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم قال : أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر ، وبيدى لواء الحمد ولا فخر ، وما من نبى يومئذ ـ آدم فمن سواه ـ إلا تحت لوائى ، والفخر دعاء العظمة والكبر والشرف . . أى لا أقول ذلك فخرا وكبرا ولكن شكرا وتحدثا بالنعمة ، وما اجتمع بالأنبياء فى مجمع إلا كان إمامهم قبل موته وبعده . اجتمع بهم ليلة الإسراء فى بيت المقدس فصلى بهم إماما ، ثم اجتمع بهم فى السماء فصلى بجميع أهل السماء إماما . وفى يوم الجمع الأكبر والكرب الأعظم يحيل الكل عليه . وذلك أظهر للاعتراف بإمامته والانقياد لطاعته . . فهو صلى الله عليه وسلم تظهر فى ذلك الموقف رسالته بالفعل إلى كافة الخلق ، فيظهر سر هذه الآية « الذين يتبعون الرسول » . . . « الذى له ملك السموات والأرض » وهذا أوضح دليل على عظمة الله وقدرته وجلاله ومجده ، فمالك السماء والأرض والكون والوجود لا يكون إلا الإله الحق المعبود « لا إله إلا هو » أى فالكل ينقادون لأمره خاضعون له ، « يحيى ويميت » أى له هاتان الصفتان هما مختصتان به ، ومن كان منفردا بما ذكر كان إلها حقا معبودا ، ولما أمر الله رسول محمد صلى الله عليه وسلم بأن يقول إنى رسول الله إليكم جميعا ، أمر الله تعالى جميع خلقه بالإيمان به وبرسوله

بقوله : « فآمنوا بالله ورسوله » وذلك أن الإيمان بالله هو الأصل والإيمان برسوله فرع عليه ، فلهذا بدأ بالإيمان بالله ، ثم بالإيمان برسوله ، ثم وصفه تعالى بقوله « النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته » أى بما أنزل عليه وعلى سائر الرسل من كتبه ووحيه ، وقال قتادة : المراد بكلماته القرآن ، وقال مجاهد : عيسى بن مريم لأنه خلق بقوله : « كن » فكان ولم يكن من نطفة تمنى ، ولهذا سمى كلمة الله ، وقيل : هو الكلمة التى يكون عنها عيسى بن مريم وجميع خلقه ، وهى قوله : كن . « فاتبعوه » أى اقتدوا أيها الناس به فيما يأمركم به وينهاكم عنه « لعلكم تهتدون » أى لكى تهتدوا وترشدوا .

١٥٩ — وَمِنْ قَوْمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ .

١٦٠ — وَقَطَّعْنَٰهُمُ ٱثْنَتَىْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا أُمَمًا وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسْتَسْقَىٰهُ قَوْمُهُۥٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْحَجَرَ فَٱنۢبَجَسَتْ مِنْهُ ٱثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ .

١٦١ — وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٰٔتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ .

١٦٢ — فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا يَظْلِمُونَ .

١٦٣ — وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ
إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ
شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ لَا تَأْتِيهِمْ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُمْ بِمَا
كَانُوا يَفْسُقُونَ .

١٦٤ — وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ
أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ
يَتَّقُونَ .

١٦٥ — فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنْجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ
وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ .

١٦٦ — فَلَمَّا عَتَوْا عَن مَّا نُهُوا عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ .

١٦٧ — وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَن
يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ
لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ .

١٦٨ — وَقَطَّعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَمًا مِّنْهُمُ الصَّالِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَٰلِكَ
وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

١٦٩ — فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ وَرِثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ
هَٰذَا الْأَدْنَىٰ وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِن يَأْتِهِمْ عَرَضٌ
مِّثْلُهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِم مِّيثَاقُ الْكِتَابِ أَن

لَا يَقُولُوا عَلَى اللهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالدَّارُ الْآخِرَةُ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ .

١٧٠ — وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ .

هذه الآيات الكريمة الإثنتى عشرة هى فى ذكر ماضى بنى إسرائيل وحاضرهم : ماضيهم مع نبيهم موسى عليه السلام ، وحاضرهم مع محمد عليه الصلاة والسلام ، ماضيهم فى الكفر بنبيهم موسى مع المعجزات الظاهرة التى ظهرت على يديه ، ومع النعم الجليلة التى من الله بها على بنى إسرائيل ، وحاضرهم مع محمد صلى الله عليه والسلام من العناد واللجاج والكفر والخصومة ومقاومة الرسول ورسالته والمؤمنين به . . ويسجل القرآن الكريم فى هذا الموضع فى إنصاف كبير أن بنى إسرائيل لم يكونوا كلهم على هذه الوتيرة ، وعلى هذا الكفر ، بل كان من قوم موسى جماعات صالحة وأمة يهدون بالحق ، وبه يعدلون ، وكان منهم الصالحون ، كما كان منهم دون ذلك ، والذين يتمسكون بالتوراة منهم ويؤمنون بمحمد ويقيمون صلاة الإسلام ، فهم المصلحون ، والله لا يضيع أجر المصلحين ، وسينعمون برضاء الله ، ويفوزون برحمته وجنته فى الدنيا والآخرة .

وفى أسفار العهد القديم ذكر لما حدث من موسى وقومه ، مما يؤيد صدق القرآن الكريم وحقيته وصدق أنبائه ، فأمر المن والسلوى مذكور فى الإصحاح السادس عشر من سفر الخروج ، ففيه : « تذمر كل جماعة بنى إسرائيل على موسى وهرون فى البرية ، وقال لهما بنو إسرائيل : ليتنا متنا بيد الرب فى أرض مصر ، إذ كنا جالسين عند قدور اللحم ، تأكل خبزا للشبع ، فإنكما أخرجتمانا إلى هذا القفر لكى تميتا كل هذا الجمهور بالجوع . . فقال الرب لموسى : ها أنا أمطر لكم خبزا من السماء . . فكان فى المساء أن السلوى غطت المحلة ، وفى

الصباح كان سقيط الندى حول المحلة ، ولما ارتفع النهار إذا على وجه البرية شيء دقيق مثل قشور ، دقيق كالجليد على الأرض ، فقال لهم موسى : هو الخبز الذى أعطاكم الرب لتأكلوا ، وكانوا يلتقطونه صباحا فصباحا ، كل واحد على حسب أكله ، وإذا حميت الشمس كان يذوب .. ستة أيام ، وأما اليوم السابع ففيه سبت ، لا يوجد فيه ، لذلك الرب أعطاهم فى اليوم السادس خبز يومين .. وأكل بنو إسرائيل المن أربعين سنة حتى جاءوا إلى أرض عامرة .

وفى الإصحاح السابع عشر من سفر الخروج جاء ذكر السقيا ، ففيه : لم يكن ماء ليشرب الشعب ، فخاصم الشعب موسى ، وقالوا : أعطونا ماء لنشرب . وتذمر الشعب على موسى ، وقالوا : لماذا أصعدتنا من مصر لتميتنا وأولادنا ومواشينا بالعطش ؟ فقال الرب لموسى : عصاك التى ضربت بها النهر خذها فى يدك واذهب ، ها أنا أقف أمامك هناك على الصخرة فى حوريب ، فتضرب الصخرة فيخرج منها ماء ليشرب الشعب ؛ وكذلك جاء ذكر هذه المعجزة مرة أخرى فى الإصحاح العشرين من سفر العدد .

وفى الإصحاح الثانى والثلاثين من سفر الخروج ذكر لعبادة قوم موسى العجل المسبوك ، ولوم موسى لهرون ، واستغفار موسى والقوم ، وضرب الرب للشعب لأنهم صنعوا العجل وعبدوه ، وفيه أن الذى صنع العجل هو هرون ، وهذا خطأ وتجن على الحقيقة ، إنما صنعه لهم السامرى .

وفى الإصحاح الثالث عشر من سفر العدد ذكر للقرية التى أمروا بدخولها ، وهى أرض كنعان ، وعصيان قوم موسى له وتذمرهم عليه وعلى هرون ، قائلين : أليس خير لنا أن نرجع إلى مصر .. وفيه كذلك ذكر لغضب الله عليهم ولقوله تعالى لهم : « لن يروا الأرض التى خلقت لآبائهم » ، وجميع الذين أهانونى لا يرونها .

قوله تعالى : ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق ، أى يهدون الناس محقين أو بكلمة الحق ، وبه ، أى بالحق ، يعدلون ، أى يحكمون ، والمراد بتلك الأمة الثابتون على الإيمان القائمون بالحق من أهل زمان موسى عليه السلام . أتبع الله ذكر المرتابين الكافرين

من بنى إسرائيل بذكر أضدادهم كما هو عادة القرآن تنبيها على أن معارض الخير والشر وتزاحم أهل الحق والباطل مستمر ، وقيل : هم الذين أسلموا من اليهود فى زمن النبى صلى الله عليه وسلم كعبد الله بن سلام وأصحابه ، واعترض بأنهم كانوا قليلين فى العدد ، ولفظ الأمة يقتضى الكثرة ، وأجيب بأنهم لما كانوا مخلصين فى الدين جاز إطلاق لفظ الأمة عليهم كما فى قوله تعالى « إن إبراهيم كان أمة». وقيل إن بنى إسرائيل لما قتلوا أنبياءهم وكفروا كانوا اثنى عشر سبطا ،منهم من نصحوا قومهم وبعدوا عما صنعوا واعتذروا وسألوا الله أن يفرق بينهم وبين إخوانهم فهاجروا إلى أقصى الأرض وهم هناك حنفاء مسلمون .

والمختار فى تفسير هذه الآية إما أن تكون قد نزلت فى قوم كانوا متمسكين بدين موسى قبل التبديل والتغيير ثم ماتوا وهم على ذلك ، وإما أن تكون قد نزلت فى من أسلم من اليهود على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم

قالوا : إن المراد بهؤلاء الأمة من آمن بالنبى صلى الله عليه وسلم من علماء أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأضرابه . ونقول إنه نزل فى هؤلاء آيات صريحة كقوله فى آخر سورة آل عمران « وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم » ، وهذه الآية التى نحن بصدد تفسيرها ليست صريحة فى هذا ، بل السياق ينافيه لأنها جاءت بعد بيان حال الذين يؤمنون به صلى الله عليه وسلم، فالمتبادر فيها أنها فى خواص قوم موسى فى عهد موسى وبعد عهده، ومنهم النبيون والربانيون والقضاة العادلون ، كما يعلم بالقطع من آيات أخرى . فالآيات فى الأخيار من أهل الكتاب ثلاثة أنواع :

١ — الصريحة فى الذين أدركوا النبى صلى الله عليه وسلم وآمنوا به كقوله تعالى : فى سورة البقرة « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته أولئك يؤمنون به » ، وقوله فى سورة القصص : « الذين آتيناهم الكتاب من قبله هم به يؤمنون » إلى قوله : « أولئك يؤتون أجرهم

مرتين ، الآيات ، ومثلها فى سورة الأنعام والرعد والإسراء والقصص والعنكبوت الخ .

٢ — الصريحة فى الذين كانوا فى عهد موسى عليه السلام واستقاموا معه ثم فى عهد من بعده من أنبيائهم إلى عهد البعثة كالآية التى معنا .

٣ — الآيات المحتملة للأمرين كقوله تعالى : «ومن أهل الكتاب أمة قائمة» .

وقول الله عز وجل بعد ذلك . . . . «وقطعناهم» أى فرقنا بنى إسرائيل «اثنتى عشرة» إعراب العدد حال ، وتأنيثه حملا على الآمة «أسباطا» أى قبائل ، والأسباط أولاد الولد ، وكانوا اثنى عشر قبيلة من اثنى عشر ولدا من ولد يعقوب عليه السلام «أمما» أى قطعناهم أمما لأن كل سبط كان أمة عظيمة وجماعة كثيفة العدد وكل واحدة كانت تؤم خلاف ما تؤمه الأخرى لا تكاد تأتلف «وأوحينا إلى موسى إذ استسقاه قومه» أى حين استسقوه فى التيه «أن اضرب بعصاك الحجر فانبجست» أى انفجرت والمعنى واحد وهو الانفتاح بسعة وكثرة ، يقال : بجست الماء فانبجس أى فجرته فانفجر ، وقال آخرون: الانبجاس خروج الماء بقلة والانفجار خروجه بكثرة، وطريق الجمع بينهما أن الماء ابتدا بالخروج قليلا ثم صار كثيرا . وهذا الفرق مروى عن عمرو بن العلاء، والمعنى: فضربه فانبجست، وحذفه للإيماء على أن موسى لم يتوقف فى الامتثال وأن ضربه لم يكن مؤثرا يتوقف عليه الفعل فى ذاته.. «منه» أى من الحجر «اثنتا عشرة عينا» أى بعدد الأسباط «قد علم كل أناس» أى كل سبط منهم «مشربهم» أى لايدخل سبط على سبط فى مشربهم «وظللنا عليهم الغمام» أى فى التيه ليقيهم من حر الشمس «وأنزلنا عليهم المن والسلوى» أى الطير السمانى ، جعل الله تعالى ذلك طعامالهم فى التيه ، قيل : المن هو الخبز ، وقيل هو نوع من التمر والسلوى هى الإدام ؛ «كلوا» أى وقلنا لهم كلوا «من طيبات مارزقناكم» مما لم تعالجوه نوع معالجة . وقوله تعالى : «وما ظلمونا ولكن

كانوا أنفسهم يظلمون ، تقديره : قلنا لهم كلوا من طيبات ما رزقناكم فامتنعوا من ذلك وسئموا منه وقالوا : لن نصبر على طعام واحد ، وسألوه غير ذلك لأن المكلف إذا أمر بشيء فتركه وعدل عنه إلى غيره يكون عاصيا بفعل ذلك ، فلهذا قال تعالى : وما ظلمونا أى بفعل شيء مما قابلوا فيه الإحسان بالكفران ولكن كانوا أنفسهم يظلمون بمخالفتهم ما أمروا به .. « وإذ قيل لهم » أى واذكر يا محمد لقومك إذ قيل لبنى إسرائيل : « اسكنوا هذه القرية » أى بيت المقدس «وكلوا منها» القرية « حيث شئتم وقولوا «أمرنا «حطة » أى إقامة « وادخلوا الباب» أى باب القرية «سجدا» أى سجود انحناء « نغفر لكم خطيئاتكم » جمع خطيئة « سنزيد المحسنين » أى بالطاعة ثوابا « فبدل الذين ظلموا منهم قولا غير الذى قيل لهم » فامتنعوا عن الزحف على الأعداء وجبنوا وأحجموا وخارت قواهم «فأرسلنا عليهم رجزاً» أى عذابا « من السماء بما كانوا يظلمون » هذه القصة فى البقرة بلفظ « وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية » وهنا قال : « وإذ قيل لهم اسكنوا هذه القرية » وهناك قيل: « فكلوا » بالفاء ، وقال هنا : « وكلوا » بالواو ،وقال هناك : « رغدا » وأسقطه هنا ، وقال هناك: « وادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة » ، وقال : هنا « وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا» بالتقديم والتأخير ، وقال هناك : « نغفر لكم خطايا كم» وقال هنا: « نغفر لكم خطيئاتكم » وهناك قال«وسنزيد» ، وهنا حذف الواو . وقال هناك : «فأنزلنا على الذين ظلموا » وقال هنا : «فأرسلنا عليهم » وقال هناك : « بما كانوا يفسقون » وقال هنا : « بما كانوا يظلمون » .. فقد قال الله تعالى : « ادخلوا هذه القرية » وقال هنا : اسكنوا .. ولا منافاة بينهما لأن كل ساكن فى موضع فلا بد من الدخول فيه ، وأما الثانى وهو قوله : فكلوا بالفاء وقال هنا : وكلوا بالواو ، فالفرق بينهما دلالة الفاء على الترتيب والتعقيب دون الواو . وأما الثالث وهو أنه ذكر هناك رغداً وأسقطه هنا ، لأن الأكل عقب الدخول ألذ وأكمل، والأكل مع السكنى والاستمرار ليس كذلك فحسن دخول اللفظ «رغداً» هناك دون هنا ،وأما الرابع وهو قوله تعالى

هناك «ادخلوا الباب سجدا وقولوا حطة» وقال هنا «وقولوا حطة وادخلوا الباب سجدا» على التقديم والتأخير، فلا منافاة فى ذلك لأن المقصود من ذلك تعظيم أمر الله تعالى وإظهار الخضوع والخشوع له فلم يتفاوت الحال بحسب التقديم والتأخير. وأما الخامس وهو أنه قال هناك: خطاياكم، وقال هنا: خطيئاتكم. إشارة إلى أن هذه الذنوب سواء كانت قليلة أم كثيرة فهى مغفورة عند الإتيان بهذا الدعاء والتضرع. وأما السادس وهو قوله تعالى: «وسنزيد المحسنين» بالواو، وقال هنا بحذفها، فالفائدة فى حذف الواو أنه تعالى وعد وعدا يشير بالغفران وبالزيادة للمحسنين من الثواب، وإسقاط الواو لا يخل بذلك لأنه استئناف مرتب على تقدير قول القائل: ماذا حصل بعد الغفران قيل: إنه «سنزيد المحسنين»، وأما السابع وهو الفرق بين أنزلنا وأرسلنا فلأن الإنزال يشعر بالكثرة هذه والإرسال يشعر بها كذلك، فكأنه تعالى بدأ بإنزال العذاب القليل، ثم جعله كثيراً. وهو نظير ما تقدم من الفرق بين انبجست وانفجرت، وأما الفرق الثامن وهو الفرق بين قوله تعالى «يفسقون» وبين قوله «يظلمون»، لأنهم لما ظلموا أنفسهم فيما غيروا وبدلوا فسقوا بذلك وخرجوا عن طاعة الله تعالى، فالفائدة فى ذكر هذين الوصفين، وهما الظلم والفسق: التنبيه على حصول هذين الأمرين معا، وهذا ملخص كلام الإمام الرازى.

«واسألهم» أى اسأل يا محمد هؤلاء اليهود الذين هم جيرانك سؤال توبيخ وتقريع «عن القرية» أى عن خبرها وما وقع بأهلها لا سؤال استفهام لأنه صلى الله عليه وسلم كان قد علم هذه القرية بوحى الله تعالى إليه وإخباره إياه عن حالهم وإنما القصد من هذا السؤال تقرير عناد اليهود، وأن إقدامهم على الكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وإنكارهم لنبوته ومعجزاته ليس بشىء قد حدث الآن فى زمانه بل إن إصرارهم على الكفر قد كان حاصلا فى قديم الزمان. وفى الإخبار بهذه القصة معجزة للنبى صلى الله عليه وسلم لأنه كان أميا لم يقرأ الكتب القديمة ولم يعرف أخبار الأولين، ثم أخبرهم بما جرى لأسلافهم فى قديم الزمان، وأنهم بسبب مخالفتهم لأمر الله تعالى استحقوا العذاب واختلفوا

فى هذه القرية فقال ابن عباس : هى قرية يقال لها أيلة بين مدين والطور على شاطىء البحر ، وقال الزهرى : هى طبرية الشام ، وقيل : مدين ، والعرب تسمى المدينة قرية ، وعن أبى عمرو بن العلاء: ما رأيت قرويين أفصح من الحسن والحجاج ، يعنى رجلين من أهل المدن .. « التى كانت حاضرة البحر » أى مجاورة بحر القلزم على شاطئه كقوله تعالى : « ذلك لم يكن أهله حاضرى المسجد الحرام » ، « إذ » أى حين « يعدون » أى يعتدون « فى السبت » أى يتجاوزون حدود الله تعالى بالصيد فيه وقد نهوا عنه ، وقوله تعالى : « إذ تأتيهم يوم سبتهم شرعا » أى ظاهرة فى الماء كثيرة جمع شارع ، وقال الضحاك : متتابعة ، والحيتان: السمك ، وأكثر ما تستعمل العرب الحوت فى معنى : السمك، ومعنى.. يعدون فى السبت يعدون فى تعظيم هذا اليوم وكذلك قوله : « يوم سبتهم » معناه يوم تعظيمه « ويوم لا يسبتون » أى لا يعظمون غير السبت أى سائر الأيام « لا تأتيهم » أى الحيتان ابتلاء من الله تعالى « كذلك » أى مثل ذلك البلاء الشديد « نبلوهم بما » أى بسبب ما « كانوا يفسقون » الفسق : الخروج عن الطاعة « وإذ » معطوف على إذ قبله « قالت أمة » أى جماعة « منهم » أى من أهل القرية لم تصد ولم تنه « لم تعظون قوما الله مهلكهم » فى الدنيا بعذاب من عنده بسبب فسادهم وأنهم لا يتعظون بالمواعظ « أو معذبهم عذابا شديداً » فى الآخرة لتماديهم فى العصيان « قالوا » أى الواعظون : موعظتنا « معذرة » أى نعتذر بها « إلى ربكم » أى لئلا ننسب إلى تقصير فى ترك النهى ، فإن النهى عن المنكر واجب وإن علم الناهى أن مرتكبه لا يقلع عن معصيته ، وقيل : إذا علم الناهى حال المنهى ، وأن النهى لا يؤثر فيه سقط النهى ، وربما وجب الترك لدخوله فى باب العبث ، « ولعلهم يتقون » أى وجائز أن ينتفعوا بالموعظة فيتقوا الله ويتركوا ما هم فيه « فلما نسوا » أى تركوا ترك الناسى « ما ذكروا » أى وعظوا « به » ولم يرجعوا « أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا » أى بالاعتداء أو مخالفة أمر الله تعالى « بعذاب بئيس » أى شديد « بما » أى بسبب ما « كانوا يفسقون » . روى عن عكرمة عن ابن

عباس أنه قال: قال الرسول سمعت الله تعالى يقول: « أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس، فلا أدرى ما فعلت الفرقة الساكتة وجعل يبكى ، قال عكرمة : فقلت جعلنى الله فداك ألا نراهم قد أنكروا وكرهوا ماهم عليه قالوا : لم تعظون قوما الله مهلكهم » ، وقال يمان : نجت الطائفتان: الذين قالوا : « لم تعظون قوما الله مهلكهم » والذين أخذوا الحيتان ، وهذا قول الحسن . على أن ترك الوعظ معصية والنهى عنه معصية فوجب دخول هؤلاء التاركين للوعظ والناهين عنه تحت قوله تعالى : « وأخذنا الذين ظلموا بعذاب بئيس » . ولهذا قال ابن زيد : نجت الناهية وهلكت الفرقتان . . ولكن هذا غير لازم لأن النهى عن المنكر إنما يجب على الكفاية فإذا قام به البعض سقط عن الباقين « فلما عتوا عما نهوا عنه » قال ابن عباس : أبوا أن يرجعوا عن المعصية والعتو عبارة عن الإباء والعصيان ، أى تكبروا عن ترك ما نهوا وتمادوا فى العصيان من اعتدائهم فى السبت واستحلالهم ما حرم الله تعالى عليهم من صيد السمك فى يوم السبت وأكله « قلنا لهم كونوا قردة خاسئين » أى صاغرين ، فكانوها كقوله تعالى : « إنما قولنا لشىء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون » . وهذا يقتضى أن الله تعالى عذبهم أولا : بعذاب شديد فعتوا بعد ذلك فسخهم ، ويجوز أن تكون الآية الثانية تقريراً وتفصيلا للأولى ، وقد سبق أن اخترنا أن المسخ قردة معناه بلوغهم منتهى الذلة والهوان والحقارة بسبب معاصيهم ، وروى أن اليهود أمروا باليوم الذى أمرنا به وهو يوم الجمعة فتركوه واختاروا السبت فابتلوا به وحرم الله عليهم فيه الصيد وأمروا بتعظيمه فكانت الحيتان تأتيهم يوم السبت شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم فكانوا كذلك برهة من الدهر ، حتى زين لهم الشيطان المعصية ، فقال لهم : إنما نهيتم عن أخذها يوم السبت ، فاتخذوا حياضاً يستاقون الحيتان إليها يوم السبت فلا تقدر على الخروج منها يوم الأحد ، فلما رأوا أن العذاب لا يعاجلهم صادوا وأكلوا وباعوا وكانوا نحوا من سبعين ألفا فصار أهل القرية أثلاثا : فثلث نهوا ، وثلث قالوا : لم تعظون قوما ؟ وثلث أصحاب

الخطيئة فلما لم ينتهوا قال المسلمون : إنا لا نساكنكم ، فقسموا القرية بجدار: للمسلمين باب وللمعتدين باب ، ولعنهم داود عليه السلام فأصبح الناهون ذات يوم فى مجالسهم ولم يخرج من المعتدين أحد، فقالوا : إن للناس شأنا فصعدوا على البيوت فنظروا فإذا هم قد أصابهم الله بالعذاب ففتحوا الباب فدخلوا عليهم وهم يعتبرون بما حدث لهم ، ولا دلالة فى الآية على شىء من ذلك . وعن الحسن: أكلوا والله أوخم أكلة أكلها أهلها فكان عاقبتها حزنا فى الدنيا وأطولها عذابا فى الآخرة. وعن جابر : ما بين العبد وبين رزقه حجاب فإن صبر خرج إليه ، وإلا هتك الحجاب ولم ينل إلا ما قدر الله له ، « وإذ » عطف على (واسألهم) « تأذن » أى أعلم « ربك » وأجرى مجرى القسم كعلم الله وشهد الله ، ولذلك أجيب بجوابه وهو « ليبعثن عليهم » أى اليهود « إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » أى بالإهانة والذل وأخذ الجزية منهم فبعث الله تعالى عليهم سليمان وبعده بختنصر فقتلهم وسباهم وضرب عليهم الجزية وكانوا يؤدونها إلى المجوس إلى أن بعث الله تعالى نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم فضربها عليهم .

ومصداق هذا وتفصيله على ما قررنا قوله تعالى فى أول سورة الإسراء « وقضينا إلى بنى إسرائيل فى الكتاب لتفسدن فى الأرض مرتين ولتعلن علوا كبيرا » ، إلى قوله : « وليتبروا ما علوا تتبيرا » ، ثم قال « عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا » ، أى وإن عدتم بعد عقاب المرة الآخرة إلى الإفساد ، عدنا إلى التعذيب والإذلال ، وقد عادوا فسلط الله عليهم النصارى فسلبوا ملكهم الذى أقاموه بعد نجاتهم من السبى البابلى ، وقهروهم واستذلوهم . ثم جاء الإسلام فعاداه منهم الذين كانوا هربوا من الذل والنكال ولجأوا إلى بلاد العرب فعاشوا فيها أعزاء آمنين ، ولم يفوا للنبى صلى الله عليه وسلم بما عاهدهم عليه إذ أمنهم على أنفسهم وأموالهم وحرية دينهم ، بل غدروا به وكادوا له ، ونصروا المشركين عليه ، فسلطه الله عليهم فقاتلهم فنصره الله عليهم ، فأجلى بعضهم ، وأجلى عمر من بقى منهم . . ثم فتح عمر سورية بعضها بالصلح كبيت المقدس ، وبعضها عنوة ، فصار اليهود من سيادة الروم الجائرة القاهرة

فيها إلى سلطة الإسلام العادلة ، ولكنهم ظلوا أذلة بفقد الملك والاستقلال ولا يزالون كذلك إلى آخر الدهر وقوله تعالى «إن ربك لسريع العقاب» أى لمن أقام على الكفر كهيئة الذليل على أنه يجمع لهم مع ذل الدنيا عذاب الآخرة فيكون العذاب مستمرا عليهم فى الدنيا والآخرة «وإنه لغفور» أى لمن آمن منهم ورجع عن الكفر واليهودية ودخل فى دين الإسلام «رحيم» بهم «وقطعناهم» أى فرقناهم «فى الأرض أمما» أى فرقا بحيث لا يكاد يخلو قطر منهم حتى لا تكون لهم شوكة قط «منهم الصالحون» وهم الذين آمنوا بالمدينة ونظراؤهم «ومنهم» أى من اليهود «دون ذلك» أى أقل من هذه الدرجة فى الصلاح فهم الكافرون. «وبلوناهم» أى اختبرناهم جميعا الصالح وغيره «بالحسنات» أى بالخصب والعافية «والسيئات» أى بالجور والشدة «لعلهم يرجعون» أى كى يرجعوا إلى طاعة ربهم ويتوبوا إليه». وكل واحد من الحسنات والسيئات يدعو إلى طاعة الله ، أما النعم فلأجل الترغيب ، وأما الشدائد فلأجل الترهيب. «فخلف من بعدهم» أى بعد هؤلاء الذين وصفناهم «خلف» والخلف القرن الذى يجىء خلفا لقرن وجيل آخر ، والمراد بهم الذين كانوا فى عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم «ورثوا الكتاب» أى التوراة من أسلافهم يقرأونها ويقفون على ما فيها «يأخذون عرض هذا الأدنى» أى هذا الشىء الفانى الأدنى، أى الدنيا . وفى قوله تعالى هذا الأدنى تحقير، والأدنى إما من الدنو بمعنى القرب لأنه عاجل قريب وإما من دون الحال وسقوطها وقلتها ، والعرض بالفتح جميع متاع الدنيا كما يقال : الدنيا عرض حاضر يأكل منها البر والفاجر ، والعرض بسكون الراء جميع المال سوى الدراهم والدنانير ، وجمعه عروض، والمعنى أنهم يأخذون حطام الدنيا وهو الشىء التافه الخسيس الحقير لأن الدنيا بأسرها فانية حقيرة ، والراغب فيها أحقر منها فاليهود ورثوا التوراة وعلموا ما فيها وضيعوا العمل بما فيها وتركوه وأخذوا الرشوة فى الأحكام وهم يعلمون أنه حرام ، ومع إقدامهم على هذا الذنب العظيم وإصرارهم عليه «يقولون

سيغفر لنا ، أى لا يؤاخذهم الله تعالى بذلك فيتمنون على الله الأمانى الباطلة ، وعن شداد بن أوس أن النبى صلى الله عليه وسلم قال: «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعاجز من اتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى»، لأن اليهود كانوا يقومون على الذنوب ويقولون سيغفر لنا ، وهذا هو التمنى بعينه. وقوله تعالى «وإن يأتهم عرض مثله يأخذوه» أى يرجون المغفرة وهم مصرون عائدون إلى مثل فعلهم غير تائبين ، وليس فى التوراة وعد المغفرة مع الإصرار «ألم يؤخذ» استفهام تقرير «عليهم ميثاق الكتاب» أى التوراة والإضافة بمعنى فى ..«أن لا يقولوا على الله إلا الحق» أى المعلوم شأنه وليس من المعلوم إثبات المغفرة على القطع بغير توبة ، بل ذلك خروج عن ميثاق الكتاب «ودرسوا ما فيه» أى فى ذلك الميثاق الذى فى الكتاب ، «والدار الآخرة خير» أى وما فى الدار الآخرة خير مما أعده الله «للذين يتقون» الله ويخافون عقابه «أفلا يعقلون» أى حين أخذوا مايشقيهم ويفنى بدل مايسعدهم ويبقى، وإن الدار الآخرة خير ويروى «تعقلون» «والذين يمسكون بالكتاب» يقال : مسكت بالشىء وتمسكت به وأمسكت به ، والتمسك بالكتاب العمل بما فيه وإحلال حلاله وتحريم حرامه وإقامة حدوده ، والتمسك بأحكامه «وأقاموا الصلاة» أى داوموا على إقامتها فى مواقيتها وإنما أفردها بالذكر وإن كانت الصلاة داخلة فى التمسك بالكتاب تنبيها على عظم قدرها وأنها من أعظم العبادات بعد الإيمان بالله تعالى ، وهذه الآية نزلت فى الذين آمنوا من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وأصحابه . وقوله تعالى «إنا لانضيع أجر المصلحين» الجملة خبر «للذين» وفيه وضع الظاهر موضع المضمر أى أجرهم..

٭ ٭ ٭

وبهذا ينتهى الربع الرابع من هذا الجزء الكريم وقد تضمن من الأصول الخطيرة ما يلى :

١ – دعوة موسى لقومه بالجد ورضاء الله ، ورد الله عز وجل عليه

بأن رحمة الله تسع كل رجل شريف من أية أمة من الأمم ، وعذابه قد كتبه الله للعاصين والفاسقين والكافرين ، وقد نوه الله عز وجل بصفات الذين يستحقون رحمة الله : من التقوى وإيتاء الزكاة والإيمان بالآخرة واتباع الرسول محمد صلى الله عليه وسلم . وفى هذا أكبر دليل على أن جميع أصحاب الأديان التى كانت قبل رسالة محمد صلى الله عليه وسلم لابد لأصحابها من الإيمان برسالة نبي الإسلام لكى يفوزوا برحمة الله ورضائه .

٢ — فى هذا الجزء تنويه بصفات نبي الإسلام عليه السلام ، وبأنه قد بشرت به جميع الأنبياء والكتب السماوية السابقة ، وأنه يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ، ويحل للناس الطيبات ، ويحرم عليهم الخبائث ويبطل عنهم الأحكام القاسية التى وردت فى شرائع الأنبياء من قبل . ويبين الله عز وجل جزاء المؤمنين به والذى نصروه وجاهدوا معه واتبعوا النور الذى أنزل عليه وهو القرآن الكريم ، وهذا الجزاء هو استحقاقهم للفلاح والفوز فى الدنيا والآخرة .

٣ — رسالة محمد عامة لجميع البشر والعالم والإنسانية « إنى رسول الله إليكم جميعا » . ووصف القرآن الكريم الله الذى أرسل محمد صلى الله عليه وسلم بصفات أربع : أنه وحده مالك السموات والأرض وهذا الكون العظيم ، وأنه الإله الواحد الحق المعبود ، وأنه مصدر الحياة فى الأفراد والأمم ، وأنه الذى يتوفى آجال الناس والأمم .. والبشرية كلها مكلفة بالإيمان بالله وبرسالة محمد عليه السلام « فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه ، لعلكم تهتدون » .

٤ — من بنى إسرائيل قوم موسى الصالحون والطالحون ، ويعدد القرآن الكريم معاصى قوم موسى وكفرهم برسالة موسى فى عصره وحياته ، مع توالى المعجزات التى ظهرت على يدى موسى عليه السلام ، ومع النعم العظيمة التى أنعم الله بها على قوم موسى . ويبين الله عزوجل كفرهم وعنادهم وعصيانهم لموسى ومخالفتهم لرسالته ونزول عذاب الله بهم ، وغضبه وسخطه عليهم ،

واستمرار تشريدهم وتعذيبهم فى الأرض إلى يوم القيامة بما اقترفوا من سيئات وآثام فى حق البشر والبشرية .. وقوله تعالى : « وإذ تأذن ربك ليبعثن عليهم إلى يوم القيامة من يسومهم سوء العذاب » فيه إخبار إلهى كريم بأنهم أى اليهود سوف يظلون مشردين فى الأرض إلى قيام الساعة وأنهم إذا قامت لهم دولة مزعومة فى أرض فلسطين ، فهذه الدولة مصيرها القريب إلى الانهيار والفناء والتدمير ، وسوف يظل اليهود مشردين فى الأرض ، لاتقوم لهم دولة ، ولا يرتفع لهم علم ، تحقيقاً لهذا الوعد الإلهى الكريم .. وسوف يكون النصر للإسلام والمسلمين والعرب وللقومية العربية الصاعدة بإذن الله ، ولفلسطين وأبناء فلسطين بفضل الله .

وفى هذا الربع تنتهى قصة موسى وقومه بنى إسرائيل . وقد استغرقت هذه القصة بأحداثها ومآسيها ومعجزاتها وعبرها وعظاتها من الآية ١٠٣ حتى آخر الآية ١٧١ .. وفى نهاية قصة موسى وقومه بنى إسرائيل بشارة إلهية كريمة لنا نحن العرب بأن اليهود سيظلون مشردين فى الأرض إلى يوم القيامة، وأنهم سوف يظلون مفرقين فى الأرض أفرادا وجماعات ، منهم الصالحون ومنهم الطالحون ، فإذا قامت لهم دولة فمصيرها الانهيار والفناء .

٥ — اليهود المعاصرون لمحمد عليه السلام : العاصون منهم كثيرون ممن نقضوا العهد ، وافتروا على الله ، وغلب عليهم الطمع والجشع والحرص ، أما الصالحون منهم فهم قليلون ولهم جزاؤهم عند الله ، ولا يتم لهم صلاح إلا بإيمانهم برسالة محمد عليه السلام .

* * *

الربع الخامس

١٧١ — وَإِذْ نَتَقْنَا الْجَبَلَ فَوْقَهُمْ كَأَنَّهُ ظُلَّةٌ وَظَنُّوا أَنَّهُ وَاقِعٌ بِهِمْ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

هذه الآية الكريمة هي مطلع الربع الخامس من هذا الجزء ، وهي ترشد إلى معجزة كريمة حدثت لموسى عليه السلام ، حين عصاه قومه ، ولم يعملوا بما فى التوراة ، فرفع الله الجبل حتى رأوه فوق رؤسهم كأنه ظلة ، وظنوا أنه واقع عليهم ، فقال لهم موسى : توبوا إلى الله ، واعملوا بالتوراة ، واجتهدوا فى التزام حدود الشريعة ، فأعلنوا التوبة والامتثال ، ورفع عنهم العذاب . .

وليست هذه المعجزة ببعيدة ، وليس رفع الجبل بشيء بعيد على قدرة الله . والصحف تنشر من حين إلى آخر مثل هـــذا ، فمنذ مدة نشر أن جبلا قد طار فى سيبريا ، وحط فى مكان آخر ، والهزات الأرضية تصنع مثل ذلك ، فتنتقل جبال من مكان إلى آخر . وإذا كانت قدرة الإنسان اليوم قد أصبحت تستطيع نقل الجبال من مكان إلى آخر ، أفلا تستطيع قدرة الله رفع جبل من مكانه ومستقره حتى يشاهده قوم موسى ، ثم يعود الجبل إلى مكانه أو إلى مكان آخر . . يقول الله عز وجل فى هذه الآية الكريمة العجيبة ... « وإذ » أى اذكر يا محمد إذ « نتقنا » أى رفعنا « الجبل » أى من أصله « فوقهم » أى فوق بنى إسرائيل قوم موسى « كأنه ظلة » قال ابن عباس : كأنه سقيفة ، والظلة : كلما أظلك من سقف بيت أو سحابة أو جناح حائط والجمع ظلل وظلال « وظنوا » أى أيقنوا « أنه » أى الجبل « واقع بهم » أى ساقط عليهم بوعد الله بوقوعه إن لم يقبلوا أحكام التوراة ، روى أنهم لم يقبلوا أحكام التوراة لعظمها وثقلها ، فرفع الله تعالى الطور على رؤوسهم مقدار عسكرهم ، فكان فرسخاً فى فرسخ ، وقيل لهم إن لم تقبلوها بما فيها وإلا ليقعن عليكم فلما نظروا إلى الجبل خر كل واحد منهم ساجداً على جبهته وهو ينظر بعينه اليمين خوفا

من سقوطه ، وقوله تعالى « خذوا » أى قلنا لهم : خذوا ، أو قائلين خذوا « ما آتيناكم » أى من الكتاب « بقوة » أى بجد وعزم على تحمل مشاقه « واذكروا ما فيه » أى بالعمل به ولا تتركوه كالمنسى « لعلكم تتقون » الله وعقابه وعذابه ، أو تصيرون أتقياء صالحين ، أو تتقون رذائل الأعمال وقبائح الأخلاق ..

١٧٢ — وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا۟ بَلَىٰ شَهِدْنَآ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ .

١٧٣ — أَوْ تَقُولُوٓا۟ إِنَّمَآ أَشْرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّنۢ بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلْمُبْطِلُونَ .

١٧٤ — وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ وَلَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ .

هذه الآيات الثلاث الكريمة ترشد إلى أن الإيمان بالله أصل من أصول الفطرة الإنسانية ، وأنه مغروس فى أعماق الإنسان ، وأن الإنسان منذ بدء الخليقة قد أقر بوجود الله وبوجوب الإيمان به ، فكل مخلوق لا بد له من أن يعترف من أعماق نفسه إن طائعاً وإن مكرهاً بوجود الله وقدرته وألوهيته، والدين فطرة الله التى فطر الناس عليها ، والله عز وجل سيحاسب الناس إن حادوا عنها ، وسيستشهد بهم أنفسهم على إقرارهم بوجود الله وعلى عملهم بما يوافق ذلك أو يخالفه ..

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الثلاث الكريمة .. « وإذ » أى واذكر يا محمد حين « أخذ ربك من بنى آدم » أى فى بدء تكوين الخلقة الإنسانية أو فى بدء خلق الكون والحياة « من ظهورهم » أى من ظهور بنى آدم « ذريتهم » أى بإخراج بعضهم من بعض ، أى من صلب بعض ، نسلا بعد

نسل كنحو ما يتوالدون كالذر ، ونصب لهم دلائل على ربوبيته ، وركب فيهم عقلا عرفوا به « وأشهدهم على أنفسهم » قال « ألست بربكم قالوا بلى » أنت ربنا.. وعن مسلم الجهنى أنه قال : إن عمر بن الخطاب رضى الله عنه سئل عن هذه الآية فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم حين سئل عنها فقال : إن الله تبارك وتعالى خلق آدم ثم مسح على ظهره بيمينه فاستخرج منه ذرية فقال خلقت هؤلاء للجنة وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم مسح ظهره بيساره فاستخرج ذرية فقال : هؤلاء إلى النار وبعمل أهل النار يعملون ، فقال رجل يا رسول الله ففيم العمل ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إن الله تعالى إذا خلق العبد للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة فيدخله به الجنة ، وإذا خلق العبد للنار استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار فيدخله به النار ، وعن أبى هريرة رضى تعالى عنه أنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما خلق الله تعالى آدم مسح على ظهره فسقط من ظهره كل نسمة هو خالقها من ذريته إلى يوم القيامة وجعل بين عيني كل إنسان وميضا من نور وعرضهم على آدم فقال: أى رب من هؤلاء ؟ قال : ذريتك ، وعند ذلك كتب الله لكل نفس أجلها .. وعن مقاتل : إن الله تعالى مسح صفحة ظهر آدم بيده اليمنى فخرج منه ذريته بيض كهيئة الدر تتحرك . ثم مسح صفحة ظهره اليسرى فخرج منه ذرية سود كهيئة الدر ، فقال يا آدم : هؤلاء ذريتك ، وقال لهم : ألست بربكم قالوا بلى ، فقال للبيض : هؤلاء فى الجنة برحمتى وهم أصحاب اليمين ، وقال للسود : هؤلاء فى النار ولا أبالى وهم أصحاب الشمال ، ثم أعادهم جميعاً فى صلب آدم ، وقال بعض المفسرين : إن أهل السعادة أقروا طوعا وقالوا بلى وأهل الشقاوة قالوها كرهاً ، وذلك معنى قوله تعالى وله أسلم من فى السموات والأرض طوعا وكرهاً . واختلفوا فى موضع الميثاق ، فقال ابن عباس : بالحجاز بطن نعمان وهو واد إلى جنب عرفة ، وعنه أيضا أنه بالهند فى الموضع الذى أهبط فيه آدم عليه السلام ، وقال الكلبي : بين مكة والطائف .. ومعنى قوله تعالى

« وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم » ، أن الله تعالى أخرج ذرية آدم بعضهم من ظهور بعض على مايتوالدون عليه ، فالأبناء من الآباء فى الترتيب فاستغنى عن ذكر ظهر آدم لما علم أنهم كلهم بنوه وأخرجوا من ظهره، فالمخرج من ظهورهم مخرج من ظهره .. وهذا كله على أن أخذ الله تعالى بنى آدم من ظهر آدم وإشهاده لهم على وجوده وألوهيته يجرى مجرى الحقيقة ؛ ويصح أن يكون من باب التمثيل ، والمعنى : أن الله تعالى غرس الإيمان به وتوحيده فى قلب كل آدمى ، وقوله تعالى « شهدنا » أى على أنفسنا بذلك وإنما أشهدهم على أنفسهم كراهة « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا » التوحيد « غافلين » أى لعدم الأدلة فلذلك أشركنا .. وقوله تعالى «أو تقولوا» أى لو لم ترسل إليهم الرسل عطف على أن تقولوا « إنما أشرك آباؤنا من قبل » أى قبل أن توجد « وكنا ذرية من بعدهم » أى فلم نعرف لنا مربياً غيرهم فكنا لهم تبعا فشغلنا أتباعهم عن النظر ولم يأتنا رسول «أفتهلكنا بما فعل المبطلون» أى من آبائنا ،قال أبو حيان : والمعنى : أن الكفرة لو لم يؤخذ عليهم عهد ولاجاءهم رسول مذكور بما تضمن العهد من توحيد الله وعبادته لكانت للكافرين حجتان : إحداهما كنا غافلين ، والأخرى كنا تبعا لأسلافنا ، فكيف والذنب إنما هو لمن طرق لنا وأضلنا . فإن قيل : كيف يكون ذكر الميثاق عليهم حجة مع أنهم لما أخرجوا من ظهر آدم ركب فيهم العقل وأخذ عليهم الميثاق فلما أعيدوا إلى صلبه بطل ما ركب فيهم فتوالدوا ناسين لذلك الميثاق ؟ فالجواب أن التذكير به على لسان صاحب الرسل قائم مقام ذكره فى النفوس، فلذلك قامت الحجة عليهم يوم القيامة لإخبار الرسل إياهم بذلك الميثاق فى الدنيا ، فمن أنكره كان معاندا ناقضا للعهد ولزمتهم الحجة ولا تسقط الحجة بنسيانهم وعدم حفظهم بعد إخبار الصادق صاحب الشرع والمعجزات والمقصود من إيراد هذا الكلام هنا إلزام اليهود مقتضى الميثاق العام بعدما ألزمهم بالميثاق المخصوص بهم والاحتجاج عليهم بالحجج السمعية والعقلية

ومنعهم من التقليد وحملهم على النظر والاستدلال.. «وكذلك» أى ومثل ذلك التفصيل البديع الجليل الرفيع «نفصل الآيات» أى كلها لئلا يكفر كافر ويدعى أنه معذور «ولعلهم يرجعون» أى عن التقليد واتباع الباطل.

١٧٥ — وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ

١٧٦ — وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخْلَدَ إِلَى ٱلْأَرْضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا فَٱقْصُصِ ٱلْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ .

١٧٧ — سَآءَ مَثَلًا ٱلْقَوْمُ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِـَٔايَٰتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُوا يَظْلِمُونَ .

١٧٨ — مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى وَمَن يُضْلِلْ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ .

١٧٩ — وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَآ أُولَٰٓئِكَ كَٱلْأَنْعَٰمِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْغَٰفِلُونَ .

هذه الآيات الكريمات الخمس هى كلها فى العجب من كفر الكافرين، وإلحاد الملحدين، بعدما نصب الله عز وجل من الدلائل على وجوده وقدرته

وألوهيته ، وبعد أن جعل الدين والتوحيد غريزة فى نفس الإنسان ، وفطرة فطر الناس عليها ؛ وبعد أن أخذ الإقرار على بنى آدم حين بدء الخليقة الإنسانية على وجود الله وعلى وجوب الإيمان به .. وقد صور الله عز وجل الكافرين بصور عجيبة غريبة بليغة ...

١ — بدأ الله عز وجل فى التعجب من حال الكافر والكافرين ، فقال لرسوله الكريم : « واتل عليهم نبأ الذى .. » وهذا الأسلوب من أساليب التعجب والاستغراب ، والمعنى أن شأن مثل هذا الإنسان غريب ، يكفر وقد غرس الله فى قلبه الإيمان . ويشقى وقد أرشده الله إلى أصول السعادة ، ويضل وقد أبان الله له طريق الهدى ، وينقض العهد الذى أخذه الله عليه ، ويخالف فطرته الإنسانية التى جبلت على الإيمان والتدين والتوحيد .

٢ — تصوير كفر الكافرين بعد ما نصب من الأدلة على الإيمان بأنهم أعطوا الآيات فانسلخوا منها فأتبعهم الشيطان ، فاستحوذ عليهم ، فغووا وضلوا .

٣ — تمثيل حال الكافر بحال الكلب إن تحمل عليه يعوى ، وإن تتركه يعوى فهو فى ذلة دائمة . ولو كتب الله له السعادة لآمن ورفع نفسه وأعز شخصه بالإيمان .

٤ — التعجب من هؤلاء الكافرين ومن المثل السيئة التى تضرب لهم ، وأنفسهم كانوا يظلمون .

٥ — بيان أن هؤلاء الكافرين قد حرموا من السعادة والتوفيق والهدى ، ومن هداه الله فهو المهتدى ، ومن أضله الله فهو من الخاسرين .

٦ — إن جهنم قد خلق لها بشر كثيرون يعمرونها وجن كثيرون أيضا . ممن ضلوا وأضلوا ، وحادوا عن الدين ، وخالفوا فطرة الإنسان وكفروا بشرائع الله ، ومن تراهم فى صورة الأناسى وليسوا بأناسى . ومن وهبهم الله العقل والأبصار والآذان ، ولكنهم لم ينتفعوا بها ، فلم يفقهوا الحق ، ولم

يبصر وادلائل قدرة الله فى الكون ، ولم يستمعوا إلى كتب الله المنزلة .. أولئك كالأنعام ، بل هم أضل ، وأولئك هم الغافلون . .

يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة « واتل » أى يامحمد « عليهم » أى اليهود « نبأ » أى خبر « الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها » أى خرج بكفره كما تخرج الحية من جلدها . وقيل: إن المراد بهذا بالعم بن باعوراء ، من علماء بنى إسرائيل سئل أن يدعو على موسى فى نظير جائزة ، فدعا فانقلبت عليه واندلع لسانه على صدره « فاتبعه الشيطان » أى لحقه وأدركه وصيره لنفسه تابعًا فى معصية الله تعالى فخالف أمر ربه وأطاع الشيطان وهواه « فكان من الغاوين » أى الضالين الهالكين . . وقصته على ماذكر ابن عباس وغيره أن موسى عليه السلام لما قصد حرب الجبارين ونزل أرض كنعان من أرض الشام أتى قوم بلعم وكان عنده اسم الله الأعظم فقالوا : إن موسى رجل حديد ومعه جند كثير ، وإنه قد جاء يخرجنا من بلادنا ويقتلنا ويحلها بنى إسرائيل وأنت رجل مجاب الدعوة ، فأخرج فادع الله تعالى أن يردهم عنا . فقال : ويلكم نبى الله ومعه الملائكة والمؤمنون فكيف أدعو عليهم وأنا أعلم من الله مالا تعملون ، وإنى إن فعلت هـذا ذهبت دنياى وآخرتى ، فراجعوه وألحوا عليه ، وأهدوا إليه هدية فقبلها وراجعوه ، ولم يزالوا يتضرعون إليه حتى فتنوه ، فركب حسان حتى أشرف على جبل فجعل يدعو عليهم فلا يدعو بشر إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى قومه ، ولا يدعو لقومه بخير إلا صرف الله تعالى به لسانه إلى بنى إسرائيل ، فقال : له قومه : يابلعم أتدرى ماتصنع إنما تدعو لهم وتدعو علينا فقال : هذا ما أملكه ، هـذا شىء قد غلب الله عليه فاندلع لسانه على صدره فقال لهم : قد ذهبت الآن من الدنيا والآخرة ولم يبق إلا المكر والحيلة فسأمكر لكم وأحتال : احملوا النساء وزينوهن وأعطوهن السلع ثم أرسلوهن إلى عسكر بنى إسرائيل يبعنها فيه ، ومروهن أن لا تمنع امرأة نفسها من رجل أرادها . فإنه أن زنا رجل بواحدة كفيتموهم ففعلو فلما دخل النساء العسكر مرت امرأة من الكنعانيين على رجل من عظماء بنى إسرائيل وكان رأس سبط

شمعون بن يعقوب فقام إلى المرأة وأخذ بيدها حتى أعجبه جمالها ثم أقبل بها حتى وقف على موسى وقال : إنى لأظنك أن تقول هـذه حرام عليك ، قال : أجل هى حرام عليك لا تقربها قال : فو الله لا نطيعك ثم دخل بها قبته فوقع عليها، فأرسل الله تعالى عليهم الطاعون فهلك به منهم سبعون ألفا فى ساعة من النهار . . وقيل : إن الآية نزلت فى أمية بن أبى الصلت قد كان قرأ الكتب وعلم أن الله تعالى يرسل رسولا فى ذلك الزمان ورجا أن يكون هو ، فلما بعث الله محمدا حسده وكفر به ؛ وقيل : نزلت فى منافقى أهل مكة الذين يعرفون النبى كما يعرفون أبناءهم . . وقيل : إنها نزلت فى رجل من بنى إسرائيل وكان قد أعطى ثلاث دعوات مستجابات وكان له امرأة وكان له منها أولاد فقالت له : اجعل لى منها دعوة فقال : لك منها واحدة فما تريدين؟ قالت: أدع الله أن يجعلنى أجمل امرأة فى بنى إسرائيل ، فلما علمت أنه ليس فى بنى إسرائيل أجمل منها رغبت عنه فغضب ودعا عليها فصارت أقبح النساء، فجاء بنوها وقالوا: ليس لنا على هذا قرار، عيرنا الناس بأمنا أدع الله أن يردها إلى الحالة التى كانت عليها فدعا الله تعالى فعادت كما كانت فذهب فيها الدعوات كلها ، وقيل غير ذلك . . والصحيح كما قلنا أن الآيات فى تمثيل حال الكافرين وتصوير شأنهم . . وقوله تعالى : «لرفعناه » أى أعززناه « بها » أى بسبب تلك الآيات « ولكنه أخلد إلى الأرض» أى عاش فى ذلة لأنه يؤمن بالشياطين والطاغوت لا بإله عظيم قادر «واتبع هواه» أى فى آثار الدنيا وأعرض عن مقتضى الآيات ،وكان مقتضى ظاهر الكلام أن يقول« ولكنه أعرض عنها ».فأوقع موقعه قوله تعالى« أخلد إلى الأرض واتبع هواه » مبالغة وتنبيها على ماحمله عليه وأن الكفر ذلة ليس بعدها من ذلة . وهذه الآية من أشد الآيات على أصحاب العلم ، وذلك لأنه بعد أن خص هذا الرجل بآياته وخصه بالدعوات المستجابة اتبع الهوى وانسلخ من الدين فصار فى درجة الحيوان وذلك يدل على أن كل من كانت نعم الله تعالى فى حقه أكثر إذا أعرض عن متابعة الهدى وأقبل على متابعة الهوى كان شيطانا مريداً ، ومن ازداد علما ولم يزدد هـــدى لم يزدد من الله

إلا بعدا «فمثله» أى فصفته العجيبة المسرفة فى الخسة «كمثل الكلب» أى كمثله فى أخس أوصافه وهو «إن تحمل عليه» أى بالطرد والزجر «يلهث» أى يخرج لسانه «أو تتركه يلهث» فهو يلهث دائما سواء حمل عليه بالزجر والطرد أو ترك، وليس غيره من الحيوان كذلك ، قيل : كل شىء يلهث إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب فإنه يلهث فى حال الكلال والراحه ، فكذلك حال من كذب بآيات الله إن وعظته فهو ضال وإن لم تعظه فهو ضال ، وهو حريص أيضاً ، لأن الحرص على طلب الدنيا صار طبيعة له لازمة كما إن اللهث طبيعة لازمة للكلب .. وعن ابن عباس رضى الله عنهما: الكلب منقطع الفؤاد يلهث إن حمل عليه أو لم يحمل عليه ، كأنه قيل : كمثل الكلب دليلا دائم الذلة لاهثا فى الحالتين «ذلك» أى المثل «مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا» نعم بهذا المثل جميع من كذب بآيات الله وجحدها .. ووجه التمثيل بينهم وبين الكلب اللاهث أنهم إذا جاءتهم الرسل ليهدوهم لم يهتدوا بل هم فى ضلال على كل حال «فاقصص القصص» أى فاخبر يا محمد قومك هذه الأخبار التى لم يعلم أحد نبأها إلا من القرآن الحكيم ، والتى يصدقها ما فى الكتب السماوية المنزلة على الرسل قبل بعثة محمد عليه السلام «لعلهم يتفكرون» أى يتدبرون فيها «ساء» أى بئس «مثلا القوم» أى مثل القوم «الذين كذبوا بآياتنا» أى بعد قيام الحجة عليها وعلمهم بها «وأنفسهم كانوا يظلمون» أى وخصوا أنفسهم بالظلم «من يهد الله فهو المهتدى ومن يضلل فأولئك هم الخاسرون» تصريح بأن الهدى والضلال من الله تعالى، وأن هداية الله تعالى تختص ببعض دون بعض ، وأنها مستلزمة للاهتداء والإفراد فى الأول ثم الجمع فى الثانى باعتبار اللفظ والمعنى : تنبيه على أن المهتدين كواحد لاتحاد طريقتهم بخلاف الضالين ، «ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس» أخبر تعالى أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار وهم الذين حقت عليهم الكلمة الأزلية بالشقاوة ، ومن خلقه الله تعالى للنار فلا حيلة له فى الخلاص منها ، روى عن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : دعى رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى جنازة صبى من الأنصار فقلت

يا رسول الله : طوبى لهذا ، عصفور من عصافير الجنة لم يعمل السوء ولم يدركه . فقال : أو غير ذلك ياعائشة إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا وهم فى أصلاب آبائهم . والإجماع على من أن مات من أطفال المسلمين فهو فى الجنة لأنه ليس مكلفا ، وتوقف فيه من لا يعتد به لهذا الحديث ، وأجاب العلماء عنه بأن رسول الله صلى الله عليه وسلم لعله نهانا عن المسارعة إلى القطع من غير أن يكون عنها دليل قاطع ، كما أنكر على سعد بن أبى وقاص قوله : « أعطه فإنى لا أراه مؤمنا فقال أو مسلما » ..

وأما أطفال المشركين ففيهم ثلاثة مذاهب قال الأكثرون : هم فى النار تبعاً لآبائهم ، وتوقفت طائفة فيهم والثالث وهو الصحيح الذى ذهب إليه المحققون أنهم من أهل الجنة ، واستدلوا بأشياء منها حديث إبراهيم عليه السلام حين رآه النبى صلى الله عليه وسلم فى الجنة وحوله اولاد الناس قالوا يارسول الله وأولاد المشركين ؟ قال : وأولاد المشركين ، رواه البخارى فى صحيحة ؛ ومنها قوله تعالى : وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا ، ولا يتوجه على المولود التكليف ولا يلزمه قبول قول المرسل حتى يبلغ ، وهذا متفق عليه . . وفى الآية دليل وحجة واضحة لمذهب أهل السنة فى أن الله تعالى خالق أفعال العبادى جميعها خيرها وشرها ، لأنه تعالى بين باللفظ الصريح أنه خلق كثيراً من الجن والإنس للنار ولا مزيد على بيان الله تعالى ؛ ولأن العاقل لا يختار لنفسه دخول النار ، فلما عمل بما يوجب عليه دخول النار به علم أن له من يضطره إلى ذلك العمل الموجب لدخول النار ، وهو الله تعالى ، وقالت المعتزلة إن اللام فى قوله تعالى (لجهنم) لام العاقبة واستدلوا لذلك بآيات مثل: « فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدوا وحزنا ، وهم لم يلتقطوه لهذا الغرض . . ومنها قول موسى : « ربنا إنك آتيت فرعون وملأه زينة وأموالا فى الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك .

وهذا مردود لأن المصير إلى التأويل إنما يحسن إذا ثبت الدليل العقلى على امتناع حمل اللفظ على ظاهره ، فإذا لم يثبت كان المصير إلى التأويل فى هذا

المقام عبثاً ، ثم وصف الله تعالى هؤلاء الذين أضلهم بقوله تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بهـا » أى لا يبصرون بها طريق الحق والهدى « ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها » أى الآيات والمواعظ سماع تأمل وتذكر ؛ وصفهم الله تعالى بأنهم لا يفقهون ولا يبصرون ولا يسمعون مع وجود هـذه الحواس المدركة فيهم ، فعلم أن المراد من ذلك يرجع إلى مصالح الدين وما فيه لنفعهم فى الآخرة ، والعرب تقول بعض ذلك لمن ترك استعمال بعض جوارحه فيما لا يصلح له . « أولئك » أى البعداء من المعانى الإنسـانية « كالأنعام » أى فى أنها لا تفهم ولا تعقل ، ذلك لأن الإنسان وسائر الحيوانات مشتركة فى هذه الحواس الثلاث التى هى القلب والبصر والسمع ، وإنما فضل الإنسان على سـائر الحيوانات بالعقل والإدراك والفهم المؤدى إلى معرفة الحق من الباطل والخير من الشر ، فإذا كان الكافر لا يعرف ذلك ولا يدركه كان لا فرق بينه وبين البهائم التى لا تدرك شيئاً ، ولما كانوا قد زادوا على ذلك بفقد نفع هذه الحواس قال تعالى : « بل هم أضل » من الأنعام ، لأن الأنعام تعرف ما يضرها وما ينفعها ، فإذا رأت نارا مثلا لا تقع فيها وإذا رأت كلأ مثلا دخلت ترعى فيه ؛ والـكافر لا يعرف ذلك ، ولأن الأنعام تضل إذا لم يكن معها مرشد فأما إذا كان معها مرشد فقل أن تضل ، وهؤلاء الـكفار قد جاءهم الأنبياء وأنزل عليهم الـكتب وهم يزدادون فى الضلالة . ثم أنه تعالى ختم الآية بقوله « فأولئك هم الغافلون » قال عطاء : أى غافلون عما أعد الله تعالى لأوليائه من الثواب ولأعدائه من العقاب .

هذا والجن هى الأحياء العاقلة المكلفة الخفية غير المدركة بحواس البشر ، ولعل تقديمهم هنا فى الذكر على الإنس أنهم أكثر أهل جهنم والاحتجاج بالآية على الجبر غفلة وجهل ، بل هى كسائر الآيات الدالة على نوط الجزاء بالعمل ، ومعناها أن هؤلاء المكلفين من الجن والإنس قد تركوا استعمال عقولهم ومشاعرهم

الباطنة والظاهرة فى علم الهدى الذى تترتب عليه الأعمال المزكية للنفس فكانوا بذلك أهل جهنم ، وليس فيها أنه تعالى ذرأهم لجهنم لذواتهم فإن ذوات الجنسين كلها متشابهة ، ولم يقل إنه خلقهم عاجزين عن استعمال تلك القوى فى أسباب الهدى بل قال إنهم هم لم يستعملوها فى ذلك ، وقالوا لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير ، فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير ، ولكن الجدل فى المذاهب هو الذى أوهمهم .

أما قصة بلعام التى سبقت الإشارة إليها فهى مفصلة فى الإصحاح ٢٢-٢٤ من سفر العدد ، وفيها أنها وقعت فى « عربات موآب من عبر أردن أريحا » من أرض مديان وأن بالاق بن صفور ملك الموآبين طلب من بلعام بن بعور أن يلعن بنى إسرائيل لينصره الله عليهم ووعده بمال كثير ، فأوحى الله إلى بلعام أن لا يفعل فلم يفعل . وفى قاموس الكتاب المقدس للدكتور بوست أن بلعام هذا من قرية فثور من بين النهرين ، وذكر البستانى فى دائرة المعارف العربية ملخص قصة بلعام ثم قال : وبعض مفسرى الكتاب المقدس المدققين ذهب إلى أن قصة بلعام المدرجة فى سفر العدد من الإصحاح ١٢ - ٢٤ دخيلة .

١٨٠ — وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَآئِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ .

١٨١ — وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ .

١٨٢ — وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا بِئَايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ .

١٨٣ — وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ .

١٨٤ — أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِهِمْ مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ

١٨٥ — أَوَلَمْ يَنظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمَوٰتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَىْءٍ وَأَنْ عَسَىٰٓ أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَىِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ .

١٨٦ — مَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِىَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ .

هذه الآيات السبع الكريمة ؛ هى فى تمجيد الله والدعوة إلى عبادته ، وفى التنويه بالمهتدين العادلين الصالحين ، وتهديد الكافرين المكذبين بآيات الله ، مع وضوح الأدلة على صدق محمد عليه السلام فيما أخبر به عن ربه وظهور البراهين القاطعة على قدرة الله وهيمنته وسلطانه وجبروته ، وأنه رب الكون ورب الناس ، والإله الحق المعبود .. يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الكريمة البليغة ، ولله الأسماء الحسنى ، ذكر ذلك فى أربع سور: أولاها هذه السورة ، وثانيتها فى آخر بنى إسرائيل فى قوله تعالى : قل ادعوا أو ادعوا الله الرحمن أياما تدعوا فله الأسماء الحسنى ، وثالثتها فى أول طه فى قوله تعالى : لا إله إلا هو له الأسماء الحسنى ، ورابعتها فى آخر سورة الحشر فى قوله تعالى هو الله الخالق البارىء المصور له الأسماء الحسنى ، فادعوه بها ، أى فسموه بتلك الصفات ، أو نادوه وأنتم تتضرعون إليه بهذه الصفات وللدعاء شروط : منها أن يعرف الداعى معانى الأسماء التى يدعو بها ، ومنها أن يستحضر فى قلبه عظمة المدعو سبحانه وتعالى ، ومنها أن يخلص له فى دعائه ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : إن لله تسعة وتسعين اسما من أحصاها دخل الجنة ، إنه وتر يحب الوتر الوتر ، وكان صلى الله عليه وسلم يقول : يا ألله يارحمن ، فقال المشركون : إن محمدا وأصحابه يزعمون أنهم يعبدون ربا واحدا فما بال هذا يدعوا اثنين ، فأنزل الله تعالى هذه الآية . وأسماؤه الحسنى هى كما فى الحديث : الله الذى لا إله إلا هو الرحمن الرحيم الملك

القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارىء المصور الغفار القهار الوهاب الرزاق الفتاح العليم القابض الباسط الخافض الرافع المعز المذل السميع البصير الحكم العدل اللطيف الخبير الحليم العظيم الغفور الشكور العلى الكبير الحفيظ المقيت الحسيب الجليل الكريم الرقيب المجيب الواسع الحكيم الودود المجيد الباعث الشهيد الحق الوكيل القوى المتين الولى الحميد المحصى المبدىء المعيد المحيي المميت الحى القيوم الواجد الماجد الواحد الصمد القادر المقتدر المقدم المؤخر الأول الآخر الظاهر الباطن الوال المتعال البر التواب المنتقم العفو الرؤوف مالك الملك ذو الجلال والإكرام المقسط الجامع الغنى المغنى المانع الضار النافع النور الهادى البديع الباقى الوارث الرشيد الصبور ، رواه الترمذى. قال النووى : اتفق العلماء على أن هذا الحديث ليس فيه حصر لأسمائه تعالى، وليس معناه أنه ليس له اسم غير هذه التسعة والتسعين من أحصاها دخل الجنة ، والمراد الإخبار عن دخول الجنة بإحصائها لا الإخبار بحصر الأسماء ولهذا جاء فى حديث آخر: أسألك بكل اسم سميت به نفسك واستأثرت به فى علم الغيب عندك، وقوله صلى الله عليه وسلم: من أحصاها دخل الجنة ، قال البخارى: من حفظها ـ وهو قول أكثر المحققين ، وتعضده الرواية الأخرى : من حفظها دخل الجنة ، وقيل . من أحضر بباله عند ذكرها معناها وتفكر فى مدلولها ، وقوله صلى الله عليه وسلم: إن الله وتر يحب الوتر يريد الفرد ، ومعناه فى وصف الله تعالى الواحد الذى لا شريك له ولا نظير.. واختلفوا أهل الاسم الأعظم الله أو الحى القيوم؟ « وذروا » أى اتركوا «الذين يلحدون» أى يميلون عن الحق «فى أسمائه» أى حيث اشتقوا منها أسماء لآلهتهم وقال أهل المعانى : الإلحاد فى أسمائه تعالى هو أن تسميه بما لم يسم الله به نفسه ، ولم يرد فيه نص من كتاب الله ولا سنة رسوله ، لأن أسماء تعالى كلها توقيفية. « سيجزون » أى فى الدنيا والآخرة « ما كانوا يعملون » فى هذا وعيد شديد لمن ألحد فى أسمائه تعالى ، هذا قبل الأمر بالقتال . ولما ذكر سبحانه وتعالى أنه خلق للنار طائفة ضالين

مضلين ملحدين عن الحق ذكر أنه خلق للجنة أمة هادين فى الحق عادلين فى الأمر بقوله تعالى « وممن خلقنا أمة » أى جماعة « يهدون بالحق وبه » أى بالحق خاصة « يعدلون » أى يجعلون الأمور متعادلة لازيادة فى شىء منها على ما ينبغى ولا نقص، لأنا وفقناهم فكشفنا عن أبصارهم حجاب الغفلة ، وفى كل قرن طائفة بهذه الصفة ، وأكثر المفسرين أنهم أمة محمد لقوله صلى الله عليه وسلم : لاتزال من أمتى طائفة على الحق إلى أن يأتى أمر الله وعن معاوية رضى الله عنه قال وهو يخطب : سمعت رسول الله صلى الله عليه يقول : لاتزال من أمتى أمة قائمة بأمر الله تعالى لايضرهم من خذلهم ولا من خالفهم حتى يأتى أمر الله ، وعن الكلبى : هم من آمنوا من أهل الكتاب ، وقيل هم العلماء والدعاة إلى الدين « والذين كذبوا بآياتنا » أى القرآن أو غيره من أهل مكة أو غيرهم « سنستدرجهم » أى سننسدرجهم إلى الهلاك قليلا قليلا وأصل الاستدراج الاستعباد والإنزال درجة بعد درجة « من حيث لا يعلمون » أى سنأخذهم قليلا قليلا من حيث لايحسبون وذلك أن الله تعالى يفتح عليهم من النعم ما يغبطون به ويركنون اليه، ثم يأخذهم على غرة أغفل مايكونون ، وقيل : سنقربهم إلى مايهلكهم ونضاعف عقابهم من حيث لايعلمون مايراد بهم ، لأنهم كانوا إذا أتوا بذنب فتح الله تعالى عليهم من أبواب الخير والنعمة فى الدنيا فيزدادون بذلك تماديا فى الغى والضلال ويتدرجون فى الذنوب والمعاصى بسبب ترادف النعم ، يظنون أن تواتر النعم يقرب من الله تعالى ، وإنما هى خذلان منه وتبعيد ؛ فهو استدراج من الله تعالى فيأخذهم أخذة واحدة ، أغفل مايكونون وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه لما حمل اليه كنوز كسرى قال : اللهم أنى أعوذ بك أن أكون مستدرجا ؛ فإنى سمعتك تقول سنستدرجهم من حيث لايعلمون « وأملى لهم » أى أمهلهم وأطل مدة أعمارهم ليتمادوا فى الكفر والمعاصى ولا أعاجلهم بالعقوبة « إن كيدى » أى أخذى « متين » أى شديد ، وإنما سماه كيدا لأن ظاهره إحسان وباطنه خذلان « أو لم يتفكروا » فيعلموا « ما بصاحبهم » محمد صلى الله عليه وسلم « من جنة » أى جنون ، روى أنه صلى الله عليه وسلم صعد على

الصفا فدعاهم فخذا فخذا يا بنى فلان يا بنى فلان ـ يحذرهم بأس الله تعالى ـ فقال قائلهم : إن صاحبكم لمجنون ، بات يهوت(١) إلى الصباح فنزلت ، وإنما نسبوه إلى الجنون وهو برىء منه لأنه صلى الله عليه وسلم خالفهم فى الأقوال والأفعال لأنه كان معرضا عن الدنيا ولذاتها مقبلا على الآخرة ونعيمها مشتغلا بالدعاء إلى الله تعالى وإنذارهم ليلا ونهارا من غير ملال ولا ضجر ، فعند ذلك نسبوه إلى الجنون فبرأه الله تعالى من الجنون بقوله تعالى « إن » أى ما « هو إلا نذير مبين » أى بين الإنذار بحيث لايخفى على ناظر .

ومعنى الآية أن الاستفهام فيها للانكار والتوبيخ وهو داخل على فعل حذف للعلم به من سياق القول ، والتقدير : أكذبوا الرسول ولم يتفكروا فى حاله من أول نشأته . وفى حقيقة دعوته ، ودلائل رسالته ، وآيات وحدانية ربه وقدرته على إعادة الخلق كما بدأهم ألا فليتفكروا ، فالمقام مقام تفكر وتأمل، إنهم إن تفكروا أوشك أن يعرفوا الحق .

وقد حكى الله تعالى عن قوم نوح أول رسله إلى قوم مشركين أنهم اتهموه بالجنون فقالوا بعد قولهم أنه بشر مثلهم يريد أن يتفضل عليهم : « إن هو إلا رجل به جنة فتربصوا به حتى حين » ، وفى سورة القمر عنهم: « كذبت قبلهم قوم نوح ، فكذبوا عبدنا وقالوا مجنون وازدجر » ، وفى سورة الشعراء حكاية عن فرعون فى موسى على عليه السلام قال : « إن رسولكم الذى أرسل إليكم لمجنون » ، وقال تعالى عنه فى سورة الذاريات : « فتولى بركنه وقال ساحر أو مجنون » ، ثم بين تعالى فى هذه السورة أن جميع الكفار كانوا يقولون هذا القول فى رسلهم فقال : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون » .

وفى معنى آية الأعراف فى خاتم النبيين والمرسلين عدة آيات منها قوله تعالى فى كفار مكة من سورة المؤمنين : « أفلم يدبروا القول أم جاءهم مالم يأت

(١) معناه : يصوت

آباءهم الأولين ؟ أم لم يعرفوا رسولهم فهم له منكرون ؟ أم يقولون به جنة ؟ بل جاءهم بالحق وأكثرهم للحق كارهون» ، ومثله فى سورة سبأ : «وقال الذين كفروا هل ندلكم على رجل ينبؤكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفى خلق جديد ؟ أفترى على الله كذبا ، أم به جنة ؟ بل الذين لا يؤمنون بالآخرة فى العذاب والضلال البعيد» ، ثم قال فيها : «قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفرادى ثم تتفكروا ما بصاحبكم من جنة ، إن هو إلا نذير لكم بين يدى عذاب شديد» .. وهذه شبيهة بآية الأعراف . وفى أول سورة الحجر : «وقالوا يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون ، لوما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين» . وفى سورة الصافات : «ويقولون أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون» . وفى سورة الطور من الرد عليهم : «فذكر ، فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون» . ومثله «ن والقلم وما يسطرون ، ما أنت بنعمة ربك بمجنون» ، وفى آخرها : «ويقولون إنه لمجنون وما هو إلا ذكر للعالمين» ، وفى سورة التكوير بعد وصف ملك الوحى «وما صاحبكم بمجنون» .

ويقول الشيخ رشيد رضا فى تفسير المنار : قد علمنا بما سبق أن جميع الكفار كانوا يرمون رسلهم بالجنون لأنهم ادعوا أن الله تعالى خصهم برسالته ووحيه على كونهم بشرا كغيرهم لا يمتازون على سائر الناس بما يفوق أفق الإنسانية ، كما علم من نشأتهم ومعيشتهم ، ولأنهم ادعوا مالا يعهد له عندهم نظير ، وليس مما تصل إليه عقولهم بالتفكير ، وهو أن الناس يبعثون بعد الموت والبلى خلقا جديدا ، ولأن كلا منهم كان يدعى أن الناس مخطئون وهو المصيب ، وضالون وهو المهتدى ، وخاسرون وهو المفلح ، إلا من اتبعه منهم ـ ولأنهم نهوا عن عبادة الآلهة ..

وقوله تعالى «أولم ينظروا» الاستفهام هنا للتعجب من ظهور البراهين ووضوحها مع عدم التفاتهم إليها وتفكرهم فيها ، فالمراد بالنظر نظر الاعتبار

والاستدلال . . « فى ملكوت السموات والأرض » أى فى ملك السموات العظيم وملك الأرض الكبير ، فى عظمة ملك هذا الكون الواسع الممتد الشامل . . « وما خلق الله من شىء » أى غيرهما مما يقع عليه الشىء من الأجناس التى لا يمكن حصرها ليدلهم على كمال قدرة صانعها ، وعظمة مبدعها ، وعظم شأن مالكها ومتولى أمرها ، ليظهر لهم صحة ما يدعوهم إليه . . « وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم » عطف على « ملكوت » ، والمعنى أولم ينظروا فى اقتراب آجالهم وتوقع حلولها ، فيسارعوا إلى طلب الحق والتوجه إلى ما ينجيهم قبل مفاجأة الموت ونزول العذاب، فلعل أجلهم قد اقترب فيموتون على الكفر قبل أن يؤمنوا فيصيروا إلى النار، فيجب على العاقل المبادرة إلى التفكر والاعتبار والنظر المؤدى إلى الفوز بالنعيم الدائم « فبأى حديث » أى كتاب « بعده » أى الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم « يؤمنون » أى يصدقون، وليس بعد محمد صلى الله عليه وسلم نبى ولا بعده كتاب؛ لأنه خاتم الأنبياء وكتابه خاتم الكتب لانقطاع الوحى بعده صلى الله عليه وسلم « من يضلل الله فلا هادى له » بوجه من الوجوه « ويذرهم » أى يتركهم « فى طغيانهم » أى ضلالهم وتماديهم فى الكفر « يعمهون » أى يترددون ويتحيرون ولا يهتدون سبيلا . .

١٨٧ — يَسْئَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّى
لاَ يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ ثَقُلَتْ فِى السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضِ
لاَ تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً يَسْئَلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا
عِلْمُهَا عِنْدَ اللهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ .

١٨٨ — قُل لَّا أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللهُ وَلَوْ كُنتَ
أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ السُّوءُ إِنْ
أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ وَبَشِيرٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

هاتان الآيتان فيهما تأكيد لأمر قيام القيامة وللجزاء الأخروى ، وفيهما تعظيم من شأن الساعة ، ودعوة إلى الخوف منها والاستعداد لها ، والعمل من أجلها ، وفى الآية الثانية من الآيتين توضيح لحقيقة الرسول ورسالته وأنه نذير وبشير من الله .. وفى الآية الأولى من هاتين الآيتين يقول الله عز وجل .. « يسألونك » يا محمد سؤال استهزاء « عن الساعة » أى عن وقتها ، واختلفوا فى ذلك السائل : فقال ابن عباس : إن قوما من اليهود قالوا : يا محمد أخبرنا متى تقوم الساعة إن كنت نبيا كما تقول، فإنا نعلم متى هى ؟ فنزلت هذه الآية ، وقال الحسن وقتادة : إن قريشا قالوا: يا محمد بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة؟ وسميت القيامة بالساعة لوقوعها بغتة ، أو لأن حساب الخلق يقضى فيها فى ساعة واحدة فسميت بالساعة لهذا السبب ، أو لأنها على طولها عند الله تعالى كساعة واحدة ، « أيان » سؤال استفهام عن الوقت الذى تقوم فيه الساعة « مرساها » قال ابن عباس: منتهاها ، والمرسى هنا مصدر بمعنى الإرساء كقوله تعالى : بسم الله مجراها ومرساها أى إجراؤها وإرساؤها « قل » لهم يا محمد « إنما علمها » أى متى تكون « عند ربى » أى لا يعلم الوقت الذى تقوم فيه الساعة إلا الله تعالى ، استأثر الله تعالى بعلمها . فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ، ولهذا لما سأل جبريل عليه السلام رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : متى الساعة ؟ فقال عليه الصلاة والسلام : ما المسئول عنها بأعلم من السائل .. والسبب فى إخفاء الساعة عن العباد أنهم إذا لم يعلموا متى تكون كانوا على حذر منها ، فيكون ذلك أدعى إلى الطاعة وأزجر عن المعصية ، ثم إنه تعالى أكد هذا المعنى فقال : « لا يجليها » أى يظهرها « لوقتها » أى فى وقتها المعين « إلا هو » أى لا يقدر على إظهار وقتها المعين بالإعلام والإخبار إلا هو « ثقلت » أى عظمت « فى السموات والأرض » أى ثقل أمرها وخفى علمها على أهل السموات والأرض ، وكل شىء خفى فهو ثقيل ، وقال الحسن : إذا جاءت ثقلت وعظمت على أهل السموات والأرض ، وإنما ثقلت عليهم لأن فيها فناءهم وموتهم وذلك ثقيل على القلوب « لا تأتيكم إلا بغتة » تأكيد أيضاً

لما تقدم وتقرير لكونها بحيث لا تجىء إلا فجأة ، وعلى حين غفلة من الخلق .. «يسألونك» أى يسألك قومك عن الساعة «كأنك حفى عنها» أى عالم بها ، من قولهم : أحفيت فى المسألة إذا بالغت فى السؤال عنها حتى علمتها ، وقيل : الحفى هو البار اللطيف ، ومنه قوله سبحانه وتعالى: إنه كان بى حفيا أى بارا لطيفا، يسألونك كأنك بار بهم لطيف العشرة معهم ، وهذا قول الحسن ، ويؤيده ما روى فى تفسيره أن قريشا قالت لمحمد صلى الله عليه وسلم : إن بيننا وبينك قرابة فاذكر لنا متى الساعة . . والمعنى : يسألونك عنها كأنك حفى عنها فتحفى بهم أى فتحفهم لأجل قرابتك بتعليم وقتها ، وقيل : كأنك حفى بالسؤال عنها تحبه وتؤثره ، أى إنك تكره السؤال عنها لأنه من علم الغيب الذى استأثر الله تعالى بعلمه ولم يؤته أحداً من خلقه «قل» يا محمد «إنما علمها عند الله» أى استأثر الله تعالى بعلمها فلا يعلم متى الساعة إلا هو .

هذا والساعة فى لسان العرب جزء من أجزاء الليل والنهار والجمع ساعات . والساعة : الوقت الحاضر ، وقوله تعالى «ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون» يعنى بالساعة الوقت الذى تقوم فيه القيامة . والساعة : القيامة . وقال الزجاج : هى اسم للوقت الذى يصعق فيه العباد والوقت الذى يبعثون فيه وتقوم فيه القيامة ، سميت ساعة لأنها تفجأ الناس فى ساعة فيموت الخلق كلهم عند الصيحة الأولى التى ذكرها الله عز وجل فقال «إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم خامدون» ..

والغالب فى استعمال القرآن التعبير بيوم القيامة عن يوم البعث والحشر الذى يكون بعد الموت الذى يكون فيه الحساب وما يتلوه من الجزاء ، والتعبير بالساعة عن الوقت الذى يموت فيه الأحياء فى هذا العالم ويضطرب نظامه ويخرب بما يكون فيه من الأهوال يتلو بعضها بعضا ، فالساعة هى المبدأ والقيامة هى الغاية .

وقوله تعالى «ولكن أكثر الناس لا يعلمون» أى لا يعلمون السبب الذى من أجله أخفيت معرفة علم وقت قيامها المغيب عن الخلق وقيل: لا يعلمون

أن علمها عند الله ، وأنه استأثر بعلم ذلك حتى لا يسألوا عنه ، وروى أن أهل مكة قالوا : يا محمد ألا تخبرنا بالسعر الرخيصة قبل أن يغلو فنشتريه ونربح فيه عند الغلاء، وبالأرض التي تريد أن تجدب فنرحل عنها إلى ماقد أخصبت، فأنزل الله تعالى « قل » لهم « لا أملك لنفسي نفعا » اجتلاب نفع بأن أربح فيما أشتريه « ولا ضرا » أى ولا أقدر أن أدفع عن نفسى ضرا نزل بها بأن أرتحل إلى الأرض الخصبة أو من الأرض الجدبة « إلا ما شاء الله » من ذلك فيلهمنى إياه ويوفقنى له ، وقيل: إنه صلى الله عليه وسلم لما رجع من غزوة بنى المصطلق عصفت ريح فى الطريق ففرت الدواب منها ، فأخبر النبى صلى الله عليه وسلم بموت رفاعة بالمدينة وكان فيها غيظ للمنافقين وقال صلى الله عليه وسلم انظروا أين ناقتى فقال عبد الله بن أبى المنافق مع قومه : ألا تعجبون من هذا الرجل يخبر عن موت رجل بالمدينة ولا يعرف أين ناقته ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: إن أناسا من المنافقين قالوا كيت وكيت وناقتى فى هذا الشعب قد تعلق زمامها بشجرة فوجدوها على ما قال صلى الله عليه وسلم ؛ فأنزل الله تعالى هذه الآية « ولو كنت » من ذاك « أعلم الغيب » أى جنسه « لاستكثرت » أى أوجدت لنفسى كثيرا « من الخير وما مسّنى السوء » أى ولو كنت أعلمه لخالفت حالى ما هى عليه من استكثار المنافع ويدخل فيه ما يتصل بالخصب واجتناب المضار حتى لا يمسنى سوء « إن » أى ما « أنا إلا نذير » بالنار للكافرين « وبشير » بالجنة « لقوم يؤمنون » أى يصدقون ، وقيل (لقوم يؤمنون) متعلق بنذير وبشير ، لأنهم المنتفعون بهما .

وهذه الآية هى ـ كما يقول الشيخ محمد رشيد رضا فى تفسير المنار ـ من أعظم أصول الدين وقواعد عقائده ، ببيانها لحقيقة الرسالة . والفصل بينها وبين الربوبية والألوهية ، وهدمها لقواعد الشرك ومبانى الوثنية من أساسها ، ومناسبتها لما قبلها : أن الله تعالى أمر خاتم رسله فيما قبلها أن يجيب السائلين له عن الساعة بأن علمها عند الله تعالى وحده ، وأمرها بيده وحده — وأمره فى هذه أن يبين للناس أن كل الأمور بيد الله تعالى وحده ، وأن علم الغيب كله

عنده ، وأن ينفى كلا منهما عن نفسه ، وذلك أن الذين كانوا يسألونه عن الساعة من المسلمين كانوا يظنون أن منصب الرسالة قد يقتضى علم الساعة وغيرها من علم الغيب ، وربما كان يظن بعض حديثى العهد بالإسلام أن الرسول قد يقدر على مالا يصل إليه كسب البشر من جلب النفع ومنع الضر عن نفسه وعمن يحب أو يشاء ، أو منع النفع وإحداث الضر بمن يكره أو بمن يشاء . فأمره الله تعالى أن يبين للناس ان منصب الرسالة لايقتضى ذلك ، وإنما وظيفة الرسول التعليم والإرشاد ، لاالخلق والإيجاد ، وأنه لايعلم من الغيب إلا مايتعلق بذلك مما علمه بوحيه ؛ وأنه فيما عدا تبليغ الوحى عن الله تعالى بشر كسائر الناس « قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد » .

* * *

وبذلك ينتهى الربع الخامس من هذا الجزء الكريم . . . وقد تضمن من الأصول الجليلة مايلى :

١ — بيان إحدى معجزات موسى عليه السلام ، حين رفع الله الجبل فوق رؤوس بنى إسرائيل وهددهم الله بالفناء إن لم يتوبوا ويعملوا بشريعة نبيهم بعزيمة صادقة وإقبال شديد ورغبة أكيدة ، فتابوا وأنابوا إلى الله ، وأقبلوا على طاعته . . . وإن نكثوا بعد ذلك العهد ، وغيروا الميثاق .

— بيان العهد الذى أخذه الله على بنى آدم عند بدء الخلقة الإنسانية بأن يؤمنوا بالله يوحدوه ويقروا بألوهيته والعبودية له عز شأنه ، وتعالى جده ، وتباركت أسماؤه ، وتقدست ذاته .

وقد ورد فى أخذ الذرية من بنى آدم وإشهادهم على أنفسهم أحاديث وآثار كثيرة . قال الإمام ابن كثير فى تفسيره : « يخبر الله تعالى أنه استخرج ذرية بنى آدم من أصلابهم شاهدين على أنفسهم أن الله ربهم ومليكهم ، وأنه لا إله إلا هو ؛ كما أنه تعالى فطرهم على ذلك وجبلهم عليه ، قال تعالى : « فأقم

وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ، وفى الصحيحين عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كل مولود يولد على الفطرة » ، وفى رواية « على هذه الملة ، فأبواه يهودانه وينصرانه ويمجسانه » ، وقد وردت أحاديث فى أخذ الذرية من صلب آدم عليه السلام ، وتميزهم إلى أصحاب اليمين والشمال ، وفى بعضها الاستشهاد عليهم بأن الله ربهم ، وعن أنس ابن مالك رضى الله عنه عن النبى صلى الله عليه وسلم قال : « يقال للرجل من أهل النار يوم القيامة : أرأيت لو كان لك ما على الأرض من شىء أكنت مفتديا به ؟ قال : فيقول نعم ؛ فيقول : قد أردت منك أهون من ذلك ، قد أخذت عليك فى ظهر آدم أن لاتشرك بى شيئا ، فأبيت إلا أن تشرك بى » .

والأحاديث الدالة على أن الله عز وجل استخرج ذرية آدم من صلبه وميز بين أهل الجنة وأهل النار كثيرة ، وأما الإشهاد عليهم هناك بأنه ربهم فما هو إلا فى حديث كلثوم بن جبير عن سعيد بن جبير عن ابن عباس ، ومن ثم قال قائلون من السلف والخلف : إن المراد بهذا الإشهاد إنما هو فطرهم على التوحيد كما تقدم فى حديث أبى هريرة وعياض بن حمار المجاشعى ؛ ومن رواية الحسن البصرى عن الأسود بن سريع ، وقد فسر الحسن الآية بذلك قالوا : ولهذا قال : « وإذ أخذ ربك من بنى آدم » ولم يقل (من آدم) .

وقد بسط ابن القيم هذه المسألة فى كتاب (الروح) فى سياق البحث فى خلق الأرواح قبل الأجساد ، فذكر الروايات المرفوعة والموقوفة والآثار فيها وما قيل ثم قال :

وههنا أربع مقامات : أحدها أن الله سبحانه استخرج صورهم وأمثالهم ، فميز شقيهم من سعيدهم ومعافاهم من مبتلاهم . . والثانى : أن الله سبحانه أقام عليهم الحجة حينئذ و شهدهم بربوبيته واستشهد عليهم ملائكته . الثالث : أن هذا

هذا هو تفسير قوله تعالى « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم »
الرابع : أنه أقر تلك الأرواح كلها بعد إخراجها بمكان وفرغ من خلقها .

فأما المقام الأول فالآثار متظاهره به مرفوعة وموقوفة . . وأما المقام الثانى فإنما أخذه من أخذه من المفسرين من الآية وظنوا أنه تفسيرها ، وهذا قول جمهور المفسرين من أهل الأثر . قال أبو اسحق : جائز أن يكون الله سبحانه جعل لأمثال الذر التى أخرجها فهما تعقل به كما قال : «قالت نملة يا أيها النمل ادخلوا مساكنكم » . وقد سخر مع داود الجبال تسبح معه والطير . وقال ابن الانبارى : مذهب أهل الحديث وكبراء أهل العلم فى هذه الآية أن الله أخرج ذرية آدم من صلبه وأصلاب أولاده وهم فى صور الذر . فأخذ عليهم الميثاق أنه خالقهم وأنهم مصنوعون ، فاعترفوا بذلك وقبلوا ، وذلك بعد أن ركب فيهم عقولا عرفوا بها ماعرض عليهم كما جعل للجبل عقلا حين خوطب وكما فعل ذلك بالبعير لما سجد ، والنخلة التى سمعت وانقادت حين دعيت. وقال الجرجانى : ليس بين قول النبى « إن الله مسح ظهر آدم فأخرج منه ذريته » وبين الآية اختلاف بحمد الله لأنه عز وجل إذا أخذهم من ظهر آدم فقد أخذهم من ظهور ذريته لأن ذرية آدم ذرية لذريته بعضهم من بعض. وقوله تعالى « أن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين » أى عن الميثاق المأخوذ عليهم ، فاذا قالوا ذلك كانت الملائكة شهودا عليهم بأخذ الميثاق قال : وفى هذا دليل على التفسير الذى جاءت به الرواية من الله تعالى ، قال للملائكة اشهدوا فقالوا شهدنا . قال : وزعم بعض أهل العلم أن الميثاق إنما أخذ على الأرواح دون الأجساد . إن الأرواح هى التى تعقل وتفهم ولها الثواب وعليها العقاب ، والأجساد أموات لاتعقل ولا تفهم ، قال : وكان اسحق بن راهويه يذهب إلى هذا المعنى ، وذكر أنه قول أبى هريرة قال اسحق : وأجمع أهل العلم أنها الأرواح قبل الأجساد استنطقهم وأشهدهم ، قال الجرجانى : واحتجوا بقوله تعالى: « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء » والأجساد

قد بليت وضلت فى الأرض ، والأرواح ترزق وتفرح ، وهى التى تلذ وتألم ، وتفرح وتحزن وتعرف وتنكر ، وبيان ذلك فى الأحلام موجود ، إن الإنسان يصبح وأثر لذة الفرح وألم الحزن باق فى نفسه مما تلاقى الروح دون الجسد . وحاصل الفائدة فى هذا الفصل أنه سبحانه قد أثبت الحجة على كل النفوس ممن يبلغ وممن لم يبلغ بالميثاق الذى أخذه عليهم ، وزاد على من يبلغ منهم الحجة بالآيات والدلائل التى نصبها فى نفسه وفى العالم وبالرسل المنفذة اليهم مبشرين ومنذرين ، وبالمواعظ بالمثلات المنقولة اليهم أخبارها ، غير أنه عز وجل لايطالب أحدا منهم من الطاعة إلا بقدر مالزمه من الحجة وركب فيهم من القدرة وآتاهم من الأدلة ، وبين سبحانه ما هو عامل فى البالغين الذين أدركوا الأمر والنهى وحجب عنا علم ماقدره فى غير البالغين ، إلا أنا نعلم أنه عدل لايجور فى حكمه ، وحكيم لاتفاوت فى صنعه ، وقادر لايسأل عما يفعل ، ونازع هؤلاء غيرهم فى كون هـذا معنى الآية وقالوا : معنى قوله « وإذ أخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم » أى أخرجهم وأنشأهم بعد أن كانوا نطفا فى أصلاب الآباء إلى الدنيا على ترتيبهم فى الوجود وأشهدهم على أنفسهم أنه ربهم بما أظهر لهم من آياته وبراهينه التى تضطرهم إلى أن يعلموا أنه خالقهم ، فليس من أحد إلا وفيه من صنعة ربه مايشهد على أنه باريه ونافذ الحكم فيه ، فلما عرفوا ذلك ودعاهم كل مايرون ويشاهدون إلى التصديق به كانوا بمنزلة الشاهدين والمشهدين على أنفسهم بصحته ، كما قال فى غير هذا الموضع «شاهدين على أنفسهم بالكفر» يريدهم بمنزلة الشاهدين وإن لم يقولوا: نحن كفرة ، وكما تقول قد شهدت جوارحى بقولك : تريد قد عرفته . فكأن جوارحى لو استشهدت وفى وسعها أن تنطق لشهدت ، ومن هذا إعلامه وتبيينه أيضاً « شهد الله أنه لا إله إلا هو » يريد أعلم وبين فأشبه ذلك شهادة من شهد عند الحكام وغيرهم ، هذا كلام ابن الأنبارى وزاد الجرجانى بيانا لهذا القول حاكياً عن أصحابه: إن الله لما خلق الخلق ونفذ علمه فيهم بما هو كائن ومالم يكن بعد ممـا هو كائن كالكائن إذ علمه بكونه مانع من غير كونه تابع

فى مجاز العربية أن يوضع ماهو منتظر بعد مما لم يقع بعد موقع الواقع لسبق علمه بوقوعه كما قال عز وجل فى مواضع من القرآن كقوله « ونادى أصحاب النار ـ ونادى أصحاب الجنة ـ ونادى أصحاب الأعراف » قال فيكون تأويل قوله « وإذ أخذ ربك » وإذ يأخذ ربك وكذلك « وأشهدهم على أنفسهم» أى ويشهدهم بما ركبه فيهم من العقل الذى يكون به الفهم ، ويجب به الثواب والعقاب . وكل من ولد وبلغ الحنث،وعقل الضر والنفع ،وفهم الوعد والوعيد والثواب والعقاب صار كأن الله تعالى أخذ عليه الميثاق فى التوحيد بما ركب فيه من العقل ، وأراه من الآيات والدلائل على حدوثه ، وأنه لايجوز أن يكون قد خلق نفسه وإذا لم يجز ذلك فلا بد له من خالق هو غيره ليس من مخلوق يبلغ هذا المبلغ، ولم يقدح فيه مانع إلا إذا حزبه أمر يفزع إلى الله عز وجل حين يرفع رأسه إلى السماء ويشير اليها بأصبعه علما منه بأن خالقه تعالى فوقه، وإذا كان العقل الذىمنه الفهم والإفهام مؤديا إلى معرفة ماذكرنا ودالا عليه فكل من بلغ هذا المبلغ فقد أخذ عليه العهد والميثاق إذ جعل فيه السبب والأدلة اللذين بهما يؤخذ العهد والميثاق ، وجائز أن يقال له قد أقر وأذعن وأسلم ، كما قال الله عز وجل « ولله يسجد من فى السموات والأرض طوعا وكرها » .واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم« رفع القلم عن ثلاثة : عن الصبى حتى يحتلم ، وعن المجنون، حتى يفيق وعن النائم حتى ينتبه .

وقوله عز وجل « إنا عرضنا الأمانة على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها » ثم قال « وحملها الإنسان » الأمانة هى عهد وميثاق فامتناع السموات والأرض والجبال من حمل الأمانة خلوها من العقل الذى يكون به الفهم والإفهام ، وحمل الإنسان إياها لمكان العقل فيه وقال هذا القائل إن فى قوله تعالى«إن تقولوا يوم القيامة إنا كنا عن هذا غافلين أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم » دليلا على هذا التأويل ؛ لأنه عز وجل أعلم أن هذا الأخذ للعهد عليهم لئلا يقولوا يوم القيامة: إنا كنا عن هذا غافلين . والغفلة ههنا لاتخلو من أحد وجهين : إما أن تكون عن يوم

القيامة أو عن أخذ الميثاق فأما يوم القيامة فلم يذكر سبحانه فى كتابه أنه أخذ عليهم عهداً وميثاقاً بمعرفة البعث والحساب، وإنما ذكر معرفته فقط ، وأما أخذ الميثاق فالأطفال والأسقاط إن كان هذا العهد مأخوذاً عليهم كما قال المخالف ، فهم لم يبلغوا بعدما أخذ هذا الميثاق عليهم مبلغاً يكون منهم غفلة عنه فيجحدونه وينكرونه ، فمتى تكون هذه الغفلة منهم وهو عز وجل لا يؤاخذهم بما لم يكن منهم ، وذكر مالا يجوز ولا يكون محال وقوله تعالى . أو تقولوا إنما أشرك آباؤنا من قبل وكنا ذرية من بعدهم ، فلا يخلو هذا الشرك الذى يؤاخذون به أنفسهم أن يكون منهم أو من آبائهم ، فان كان منهم فلا يجوز أن يكون ذلك إلا بعد البلوغ . وثبوت الحجة عليهم ؛ إذ الطفل لا يكون منه شرك ولا غيره وإن كان من غيرهم فالأمة مجمعة على أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، كما قال عز وجل فى الكتاب ، وليس هذا بمخالف لما روى عن النبى صلى الله عليه وسلم: « إن الله مسح ظهر آدم وأخرج منه ذريته فأخذ عليهم العهد ، لأنه صلى الله عليه وسلم اقتص قول الله عز وجل فجاء مثل نظمه ، فوضع الماضى من اللفظ موضع المستقبل .

٣ — التعجب من كفر الكافرين بعدما أنزل الله من الآيات ونصب من دلائل على التدين والتوحيد ، وتمثيل الكافر بالكلب ، فهو دائما يلهث ويخرج نفسه بشده مع إخراج لسانه ، وكذلك شأن الكافر يصيبه الإعياء والإجهاد دائما أبدا ، فكل شدة تؤرقه ، وكل خطب يسقمه ويضنيه ، لأنه يعيش وحده، أما المؤمن فيعيش ومعه الله وجند الله وكون عظيم هو من خلق الله الذى أحسن كل شيء صنعا .. والكافر كذلك يعيش ذليلا مخفوض الرأس ، يخلد إلى الأرض ، لأنه يعيش وحده فى الحياة ، أما المؤمن فيعيش شامخ الأنف ، مرفوع الرأس، لأنه مع الله رب الكون والحياة .. إن الإيمان استجابة لنداء الفطرة الإنسانية فى التدين وفى اليقين بعقيدة ، ولو لم يؤمن الإنسان لوصل بعقله إلى وجوب أن يؤمن وأن يختار له دينا من الأديان يعتنقه ويتبع تعاليمه، وأمامنا الحياة الحاضرة بما وصلت إليه من مادية وكفر وإلحاد ، فقد عادت الحياة وعاد العلم الحديث ينشدان الدين .

نعم إن العلم ينشد دينا ، ديناً لا ينافى ما هدى إليه من مصادر المعرفة ، ولا يناقض ما وصل إليه من مقررات يقينية ، ويكون مع ذلك متكاتفا وإياه على إبلاغ الشخصية الإنسانية كمالها المنشود . وإنما يعاود العلم البحث فى الدين ، لأن المعارف اليقينية التى جدت فيه من ناحية الدراسات النفسية ، والتجارب العملية فى الشخصية الإنسانية ، دلت على أن الآفاق المحدودة التى يعيش فيها الإنسان فى حياته المادية هو والحيوانات على حد سواء ، تضيق مَنادحها عما يشعر به من الحاجة الملحة إلى أجواء تناسب قواه المعنوية الكامنة فى صميم روحه . كان العلم يعتبر هذا الولوع منه باجتياز الحدود ، إلى عهد قريب ، اندفاعا منه وراء الخيال ، وكان يعد ذلك ضارا بارتقائه ، ولكنه بعدأن رأى أن للإنسان عقلا أرفع من عقله العادى ، محجوبا وراء حياته العادية، وشاهد من سمو مداركه الباطنة ما سمحت له به التجارب المحدودة ، أدرك أن الإنسان معذور فى تبرمه بالحدود المضروبة عليه ، وأدرك سر تحطيمه لأقوى السياجات التى يحاط بها فى أدوار وجوده ، وفهم معنى قول الفيلسوف العالمى أرنست رينان فى كتابه «تاريخ الأديان» : «من الممكن أن يضمحل ويتلاشى كل شىء نحبه ، وكل شىء نعده من ملاذ الحياة ونعيمها ؛ ومن الممكن أن تبطل حرية استعمال القوة العقلية والعلم والفن ؛ ولكن يستحيل أن يبطل التدين أو يتلاشى، بل سيبقى أبد الآبدين حجة ناطقة على بطلان المذهب المادى الذى يود أن يحصر الفكر الإنسانى فى المضايق الدنيئة للحياة الطينية » .

كل هذا وما كشفه العلم حديثا من قيام المذهب المادى على مقررات ثبت فسادها ، وعلى حدود اتضح أنها تضيق عن تعليل ظواهر قامت الأدلة المحسوسة على صحتها ، اضطر العلماء أن يواتوا الميل الفطرى فى الإنسان بالاعتراف بالعاطفة الدينية . ولكن مجرد الاعتراف بالعاطفة لا يوفى بحاجتها ، فلا بد من دين تسكن إليه ، وتسبح فى الآفاق العليا التى تحن إليها على جناحيه ؛ ومعنى هذا أن العلماء اضطروا لأن يعملوا فى عالم الدين ، ما عملوه قبل ثلاثة قرون فى عالم العلم ، وهو تخليصه مما علق به من الآراء العاطلة ،

والشروح الباطلة ، والنظريات البعيدة عن التحقيق ، وأفضى ذلك بهم إلى وضع دستور له يقوم عليه ، فيحفظه من تسرب الخيالات إليه ، واندساس الضلالات فيه . فلم ينظر العلماء فى الأديان الموجودة ، بل قام منهم جمهور ، فألفوا دينا سموه « الدين الطبيعى » ، أساسه الاعتقاد بوجود خالق حكيم للكون ، خلقه وحكمه بنواميس عامة ، وبوجود حياة أخرى للإنسان يجازى فيها بما عمله من خير أو شر . قال الفيلسوف « جول سيمون » الفرنسى ، وهو أحد الذين وضعوا هذه الديانة : « إنا نؤدى فى أثناء هذه الحياة الواجب الذى رسمه الخالق لنا تحت رعايته وعنايته ، وعندما ينتهى بقاؤنا الدنيوى فهو إما أن يثيبنا أو يعاقبنا » . ثم ذكر الأمر الذى يقتضى المثوبة أو العقوبة فقال : « أما الأمر الذى يقتضى المثوبة الحسنة فهو طاعة الإنسان لقانونه الخاص وعمل الخير . ومؤدى قانون الإنسان الخاص هذا هو حفظ ذاته ، وترقية خصائصه المودعة فيه ، ثم هو محبة وخدمة إخوانه ، ومحبة وعبادة خالق ذاته . ولكن ما هى الطريقة التى يعبد بها الإنسان ربه ؟ إن أداء الواجب وعمل الخير هو عين العبادة ، والحب والعمل والإخلاص هى لب العبادة وحقيقة الصلاة . والإخلاص للوطن هو خدمة الله . هذه هى الديانة الطبيعية ، وهذه هى العبادة الطبيعية . « كل أصول مذهبنا هذا واضحة لا رموز فيها » . « أما أصوله فهى الاعتقاد بوجود إله قادر على كل شىء ، لا يغيره شىء ، خلق العوالم وحكمها بقوانين عامة ، ووجود حياة أخرى تؤدى لنا كل وعود هذه الحياة ، وتكافىء الظالم بالجزاء الأوفى . هذا هو اعتقادنا . أما صلاتنا فهى أن يكون قلبنا مملوءا بمحبة الله » .

وأئمة الديانة الطبيعية من العلماء الأوربيين ، لا يكرهون العبادة الجسمية إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، كما يؤخذ من أقوال « جول سيمون » ، فهم على حد قول « كانت » : « العبادة الخارجية لا تكون رديئة إلا إذا اعتبرت غاية لا وسيلة ، بل هى تعتبر نافعة ومجدية إذا لم تعتبر إلا وسيلة لإيقاظ وتقوية العواطف الفاضلة فى النفس البشرية » .

فالعلم شرع منذ أكثر من خمسين سنة يعمل فى سبيل تمحيص الدين ، مثل ما فعله فى سبيل تمحيص العلم ، وهو تخليصه مما شيب به من الآراء البشرية ، والأوهام الطائفية ، وقد بلغ منه ما أراد بتأسيسه الديانة الطبيعية . عمل ذلك وهو لا يعلم أن الإسلام سبقه إلى هذا الإصلاح بنحو ثلاثة عشر قرنا ؛ فإن الإسلام لم يشرع باعتبار أنه ديانة جديدة ، ولكن باعتبار أنه الدين المطلق الذى أنزله الله على جميع أنبيائه ورسله فى جميع العصور ، لحرفته الأمم ، وأفسدت أصوله القيمة بأوهام وشروح وتأويلات ، خالتها تفيده وتخدم أعراضه ، وجهلت أنها أخرجته عن دائرته ، وأحالته إلى علم بشرى مناسب لعقلية العهد الذى كان فيه . وقد صرح الإسلام بهذا الأصل الخطير فى قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذى أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبى إليه من يشاء ويهدى إليه من ينيب » ، « قولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون » ، « وما يتبع أكثرهم إلا ظنا إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً » ، « وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله ، قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا ، أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئاً ولا يهتدون » ، « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم (بغير علم) فمن يهدى من أضل الله وما لهم من ناصرين » ، « إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصا له الدين ، ألا لله الدين الخالص ، والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى ، إن الله يحكم بينهم فيما هم فيه يختلفون » ، « ولا تقف ما ليس لك به علم » ، « قل هذه سبيلى أدعو إلى الله على بصيرة ، أنا ومن اتبعنى ، وسبحان الله وما أنا من المشركين » ، « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ، ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون » ، « قل هاتوا برهانكم ن كنتم صادقين » .

وقد جرى الإسلام فى هذا المجال إلى حده الأقصى الذى ليس بعده مذهب فى التجريد ، فحصر الدين فيما فطرت عليه كل نفس من وجدان لا يتعدى منطقة الشعور الغريزى ، فقال تعالى : « بل اتبع الذين ظلموا أهواءهم (بغير علم) ، فمن يهدى من أضل الله ، وما لهم من ناصرين . فأقم وجهك للدين حنيفا (فطرة الله) التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك (الدين القيم) ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه ، وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين . من الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا ، كل حزب بما لديهم فرحون » . . هذه غاية فى تجريد الدين لم تصل اليها أية فلسفة فى الأرض ، وتسام فى النظر إلى أفق لم يحلق فيه أبصر بصير ، وإسناد للغريزة الموجبة للدين إلى مستقر من النفس لا يتطرق إليه وهم ، بحيث يجده كل إنسان فى صميم إنسانيته لا يجرده منه كفر ، ولا يضعف من تسلطه عليه شك . وقد شرح النبى صلى الله عليه وسلم الفطرة بقوله : « كل مولود ولد على الفطرة ، وإنما أبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمجسانه » . وهـــذا يعنى أن الدين هو الوجدان الغريزى الذى لا يحتاج إلى تلقين ملقن ، ولا إلى تعليم معلم ، وأن كل ما يزاد عليه يفسده ، ويخرجه عن حده .

إذا علم كل هذا فما يحاوله العلم اليوم من تجريد الدين من الأوهام والأهواء والظنون ، قد شرع فيه الإسلام من أول ظهوره ووصل به إلى غايته القصوى وقرنه بالعمل على جمع الإنسانية برمتها عليه . ولبس أحد فى حاجة لأن أقول له : إن الإنسانية إن أجمعت على قبول شىء فهى لا تجمع إلا على ما هو أشبه بالعلم الضرورى ، لا على ما تزيده العقول عليه ، وهذا الشرط لا يتوافر إلا فى هذا الدين ، والآيات الواردة فى تدعيمه وتثبيته فى العقول تعد بالعشرات ، وفيها من روعة الجلاء والوضوح ما لا سبيل إلى صرفه والتلاعب فيه ، والمسلمون يستطيعون أن يعرضوا بضاعتهم هذه على العالم خالية من كل شرح ، فان الآيات الواردة فيه بينة إلى حد أن كل بيان تقرن به يعتبر تزيدا لا حاجة اليه .

٤ — الكافرون والمكذبون بآيات الله إنما يظلمون أنفسهم ، ويعرضونها لسوء المصير ، والله عز وجل لم يوفقهم لشيء ، ولو وفقوا لهداهم الله ، ومن يهد الله فهو المهتدى ، ومن يضلله الله فأولئك هم الخاسرون . . ولقد خلق الله الكافرين لجهنم وجهنم دائما لهم بالمرصاد ، وهم حريون بها ، لأنهم أناسي وليسوا بأناسي جسما ، وإن فقدوا العقل الذى به يحكمون على الأشياء ، ولقد وهبهم الله قلوبا ، ولكنهم لا يفقهون بها ووهبهم أعينا ولكنهم لا يبصرون بها ، ووهبهم آذانا ولكنهم لا يسمعون بها ، فهم كالأنعام ، بل هم أضل ، لأن الأنعام لن تجلب لنفسها العذاب الدائم فى النار ، وأولئك هم الغافلون .

٥ — الله عز وجل هو الإله الحق المعبود ، وله الأسماء الحسنى ، وهو الذى يجب أن نتوجه إليه بالعبادة والإخلاص والتضرع .

٦ — من الناس سعيد وشقى ، سعيد لأنه يهدى إلى الحق ، ويعدل بالحق ويؤمن بالله ، وشقى لأنه كذب بآيات الله وكفر بها وهؤلاء لهم عقاب الله وسخطه وغضبه الشديد ، ولو أنهم نظروا بعقولهم لرأوا الدلائل على وجود الله وقدرته ماثلة فى الأرض والسماء .

٧ — إن الله سيحاسب الكافرين والضالين ، وسوف يعاقبهم على مااقترفوا من سيئات فى يوم القيامة ، ويوم القيامة علمه عند الله ، وما أدراك مايوم القيامة ، يوم الهول والفزع الأكبر ، ولن يجىء إلا بغتة . . والرسول صلى الله عليه وسلم لن يملك للكافرين فيه من الله شيئاً .

٨ — بيان الحقيقة الواضحة فى أمر الرسول ، وأنه لايملك لنفسه من الله نفعا ولا ضرا ، ولو أراد الله ، لاستكثر من الخير ولدفع عن نفسه السوء . .

إن الرسول ماهو إلا بشير ونذير لقوم يؤمنون . . وصدق الله العظيم .

الربع السادس

١٨٩ — هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا
لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ
فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَّعَوَا اللهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءاتَيْتَنَا صَالِحًا لَّنَكُونَنَّ مِنَ
الشَّاكِرِينَ .
١٩٠ — فَلَمَّآ ءاتَاهُمَا صَالِحًا جَعَلَا لَهُ شُرَكَاء فِيمَآ ءاتَاهُمَا فَتَعَالَى اللهُ
عَمَّا يُشْرِكُونَ .
١٩١ — أَيُشْرِكُونَ مَالاَ يَخْلُقُ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ .
١٩٢ — وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلآ أَنْفُسَهُمْ يَنصُرُونَ .
١٩٣ — وَإِنْ تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لَا يَتَّبِعُوكُمْ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ
أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَامِتُونَ .
١٩٤ — إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ .
١٩٥ — أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ
أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ أَمْ لَهُمْ ءاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا قُلِ ادْعُوا
شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونَ .
١٩٦ — إِنَّ وَلِيِّيَ اللهُ الَّذِى نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ .
١٩٧ — وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ
وَلآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ .

١٩٨ — وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لاَ يُبْصِرُونَ .

هذه الآيات العشر الكريمة هن مطلع الربع السادس من هذا الجزء الكريم، وفيها يذكر الله عز وجل نعمته على الناس بخلقهم وإيجادهم وتكوينهم سواء بصنيعه الكريم فى خلق آدم وحواء، أم بصنيعه فى خلق ذرية آدم.. ومن عجب أن لا يعبدوا ولا يشكروا، وأن يكفروا بالله، ويتخذوا شركاء له يعبدونها من دونه، فتعالى الله عما يشركون .. ثم يبين الله عز وجل سفه المشركين حين يشركون بالله ماليس له حول ولا طول ولا قوة ولا قدرة، وما لايخلق شيئاً وهم يخلقون، وحين يشركون بالله لايستطيعون لأتباعهم نصرا ولا لأنفسهم كذلك .. ومن عجب أن يدعوا إلى الهدى والخير والرشاد والتوحيد فيعرضوا فسواء عليهم أدعوتموهم إلى الإيمان والتوحيد أم لم تدعوهم. ثم يوبخ الله عز وجل هؤلاء المشركين توبيخا شديدا فيقول لهم: إن الذين تعبدون من دون الله ماهم إلا خلق مثلكم، فادعوهم، لتعرفوا أيقدرون لكم على ضر أو نفع أم لايقدرون . . ثم يبين الله عز وجل كذلك سفه المشركين بعبادة الأوثان والأصنام، ويلفت نظرهم وعقولهم إلى أنها لاتستطيع شيئا ولا تقدر على شىء، فليس لها أيد تبطش بها، ولا أرجل تمشى عليها، ولا أعين تبصر بها، ولا آذان للسمع بها. ثم يبالغ الله عز وجل فى توبيخ المشركين فطلب من رسوله الكريم أن يقول لهم: دعوا الأصنام أن تكيد لى ثم انظروا هل تستطيع ذلك أم لا .. ويطلب كذلك من رسوله العظيم أن يعلن فى وجوههم كلمة التوحيد خالصة؛ وأنه إن اعتزوا هم بالأوثان والأصنام فهو يعتز بالله وبعبادته، والله هو وليه ونصيره ومعبوده ، الله الذى نزل القرآن على محمد عليه السلام، والذى يشمل الصالحين برعايته .. ثم يكرر الله عز وجل الحجة التى ذكرها من قبل فى مناهضة الشرك والمشركين تثبيتا لها فى الأذهان، وهى أن الإله الحق لابد أن يكون قادرا على نصرة أتباعه، وهذه الأصنام لاتستطيع

لنفسها ولا لأتباعها نصراً .. ومن عجب أن لايسمع المشركون دعوة محمد لهم إلى التوحيد سماع قبول وإذعان ، وتراهم ينظرون إليك وكأنهم لايبصرون ، فهم لايسمعون ولا يبصرون الحق ، ولا يهتدون إلى سواء السبيل .. يقول الله عز وجل : « هو الذى خلقكم » أى ولم تكونوا شيئا « من نفس واحدة » أى خلقها ابتداء من تراب وهى آدم عليه السلام «وجعل منها» أى من جسدها من ضلع من أضلاعها ، وقيل من جنسها كقوله تعالى « وجعل لكم من أنفسكم أزواجا » . . « زوجها » أى حواء ، قالوا : والحكمة فى كونها خلقت منه أن الجنس إلى الجنس أميل « ليسكن إليها » أى ليأنس بها ، ويطمئن إليها اطمئنان الشيء إلى جزئه أو جنسه « فلما تغشاها » أى جامعها « حملت حملا خفيفا » أى خف عليها ولم تلق منه مايلقى الحوامل غالبا من الأذى ، أو محمولا خفيفا وهو النطفة « فمرت به » أى فعالجت به أعمالها وقامت وقعدت ولم يعقها عن شيء من ذلك لخفته « فلما أثقلت » أى صارت ذا ثقل بكبر الولد فى بطنها «دعوا الله» أى آدم وحواء عليهما السلام «ربهما» مقسمين « لئن آتيتنا صالحا » أى ولدا سويا لاعيب فيه « لنكونن من الشاكرين » أى نحن وأولادنا على نعمتك علينا ، وذلك أنهما جوزا أن يكون غير سوى لقدرة الله تعالى على كل مايريد، لأنه الفاعل المختار « فلما آتاهما صالحا » أى جنس الولد الصالح فى تمام الخلق بدنا وقوة وعقلا فكثروا فى الأرض وانتشروا فى نواحيها ذكورا وإناثا « جعلا » أى النوعان من أولادهما الذكور والإناث، لأن صالحا صفة الولد وهو الجنس فيشمل الذكر والأنثى والقليل والكثير ، فكأنه قيل: فلما آتاهما أولادا صالحى الخلقة من الذكور والإناث جعل النوعان « له شركاء » أى بعضهم أصناما وبعضهم نارا وبعضهم شمسا وبعضهم غير ذلك ، وقيل: جعلا أولادهما له شركاء «فيما آتاهما» أى فيما آتى أولادهما فسموه: عبدالعزى وعبدمناف «فتعالى الله عما يشركون. أيشركون مالا يخلق شيئا وهم يخلقون» أى الأصنام فإن قيل: كيف ، ولفظ « ما » يقع على الواحد والإثنين والجمع فوحد بحسب

ظاهر اللفظ وجمع باعتبار المعنى ، وجمع بالواو والنون لمن لا يعقل وهو جمع من يعقل من الناس، لأنه اعتقد عابد الأصنام أنها تعقل، وتميز ورد هذا الجمع على ما يعتقدونه ، وقيل : لما حملت حواء أتاها إبليس فى صورة رجل ، فقال لها : مايدريك مافى بطنك ، ولعله بهيمة أو كلب ومايدريك من أين تخرج ، فخافت من ذلك وذكرت لآدم فارتاعا منه وحزنا ، ثم عاد إليه وقال : إنى من الله بمنزلة، فإن دعوت الله على أن يجعله خلقا مثلك وليسهل عليك خروجه كان لذلك ماله ، فولد لهما ثم ولد لذريتهما ، وسمت الذرية عبد الحارث وعبد قصى وعبد الدار . . وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : لما ولدت حواء طاف بها إبليس وكان لا يعيش لها ولد ، فقال: سميه عبد الحارث فإنه يعيش فسمته فعاش ، فكان ذلك من وحى الشيطان وأمره . وروىّ عن ابن عباس انه قال : كانت حواء تلد لآدم فتسميه عبد الله وعبيد الله وعبد الرحمن فيصيبهم الموت ، فأتاهما إبليس فقال: إن سركا أن يعيش لكما ولد فسمياه عبد الحارث فسمياه فعاش ، وجاء فى حديث : خدعهما إبليس مرتين: مرة فى الجنة ومرة فى الأرض ، وهو قول كثير كمجاهد وسعيد بن المسيب وهذا كما قال البغوى ليس إشراكا فى العبادة وليس معناه الحارث ربهما ، فإن آدم كان نبيا معصوما من الشرك ، ولكن قصد إلى أن الحارث كان سبب نجاة الولد وسلامة أمه ، وقد يطلق اسم العبد على من لا يراد به أنه مملوك كما يطلق اسم الرب على من لا يراد أنه معبود، هذا الرجل إذا نزل به ضيف يسمى نفسه عبد الضيف على وجه الخضوع لا على وجه أن الضيف يملكه، وتقول للغير: أنا عبدك ، وقال يوسف عليه السلام لعزيز مصر : إنه ربى ولم يرد به معبوده . . فقوله تعالى « تعالى الله عما يشركون» ابتداء كلام وأريد به إشراك أهل مكة هذا والمطاع إبليس ، والتعبير بالجمع لأن من أطاع إبليس فقد أطاع جميع الشياطين، هذا إن حملت هذه الآية على القصة المشهورة أما إذا لم تقل به فلا حاجة إلى التأويل « ولا تستطيعون » أى الأصنام « لهم » أى لعابديهم « نصرا » أى لا تقدر على نصر من أطاعها وعبدها ولا تضر من عصاها ، والمعبود الذى تجب عبادته يكون قادرا على

إيصال النفع والضر ، وهذه الأصنام ليست كذلك فكيف يليق بالعاقل أن يعبدها « ولا أنفسهم ينصرون » أى وهى لا تقدر أن تدفع عن نفسها مكروها فإن من أراد كسرها قدر عليه وهى لا تقدر على دفعه عنها ، والاستفهام للتوبيخ ثم خاطب الله المؤمنين بقوله تعالى « وإن تدعوهم » أى المشركين « إلى الهدى » أى الإسلام « لا يتبعوكم » أى لأن الله تعالى حكم عليهم بالضلالة فلا يقبلون الهداية « سواء عليكم أدعوتموهم » إلى الهدى « أم أنتم صامتون » أى ساكتون عن دعائهم ، فهم فى كلا الحالتين لا يؤمنون ، وقيل : الضمير فى « تدعوهم » للأصنام أى هذه الأصنام التى يعبدها المشركون معلوم من حالها أنها لا تضر ولا تنفع ولا تسمع لمن دعاها إلى خير وهدى وذلك أن المشركين كانوا إذا وقعوا فى شدة وبلاء تضرعوا إلى أصنامهم وإذا لم يكن لهم إلى الأصنام حاجة سكتوا ، فقيل لهم : لا فرق بين دعائكم الأصنام وسكوتكم عنها فإنها عاجزة فى كل حال « إن الذين تدعون » أى تعبدون « من دون الله عباد » أى مملوكة « أمثالكم » فهى لا تملك ضرا ولا نفعا ووصفها بأنها عباد مع أنها جماد لأن المشركين لما ادعوا بأن الأصنام تضر وتنفع وجب أن يعتقدوا فيها كونها عاقلة فاهمة ، فوردت هذه الألفاظ على وفق معتقدهم تبكيتا لهم وتوبيخا لهم ، ولذلك قال « فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » فى كونها آلهة ولم يقل فادعوهم فليستجبن ، وقال « إن الذين » ولم يقل التى . على أن هذا اللفظ إنما ورد فى معرض الاستهزاء بالمشركين لأنهم لما نحتها الأناسى قال لهم : إن قصارى أمرهم أن يكونوا أحياء عقلاء أمثالكم فلا يستحقون عبادتكم كما لا يستحق بعضكم عبادة بعض ، فلم جعلتم أنفسكم عبيدا وجعلتموها آلهة وأربابا ، ثم أبطل أن يكونوا عبادا أمثالكم بقوله تعالى « ألهم أرجل يمشون بها أم » أى بل « لهم أيد يبطشون بها أم » أى بل « لهم أعين يبصرون بها أم » أى بل « لهم آذان يسمعون بها » ، وهذا استفهام إنكارى .. أى ليس لهم شىء من ذلك مما هو لكم ، فكيف تعبدونهم وأنتم أتم حالا منهم ، إذ لا يليق بالإنسان العاقل أن يشتغل بعبادة الأخس الأحقر الأرذل ، ونظير

هذا قول إبراهيم الخليل عليه السلام لأبيه : لم تعبد مالا يسمع ولا يبصر ولا يغنى عنك شيئا ؟ وقيل : تعلق بعض الجهال بهذه الآية فى إثبات هذه الأعضاء لله تعالى فقال : إن الله تعالى جعل عدم هذه الأعضاء لهذه الأصنام دليلا على عدم ألوهيتها ، فلو لم تكن هذه الأعضاء موجودة لله لكان عدمها دليلا على عدم الألوهية وذلك باطل ، فوجب القول بإثبات هذه الأعضاء لله تعالى ، والجواب أن المقصود من هذه الآية بيان أن الإنسان أفضل وأحسن حالا من الصنم ، لأن الإنسان له رجل ماشية ويد باطشة وعين باصرة وأذن سامعة ، والصنم رجله غير ماشية ويده غير باطشة وعينه غير مبصرة وأذنه غير سامعة ، فكان الإنسان أفضل وأكمل حالا من الصنم ، واشتغال الأفضل الأكمل بحال الأخس الأدون جهل ، وهذا هو المقصود من ذكر هذا الكلام « قل ادعوا » أى قل يا محمد لهؤلاء المشركين ادعوا « شركاءكم » أى إلى هلاكى « ثم كيدونى » قال الحسن كانوا يخوفونه صلى الله عليه وسلم بآلهتهم ، فقال الله تعالى له : قل ادعوا شركاءكم ثم كيدونى ـ أى ليظهر لكم أنها لا قدرة لها على إيصال المضار إلى بوجه ، ثم تهكم عليهم صلى الله عليه وسلم بقوله « فلا تنظرون » أى فاعجلوا فى كيدى أنتم وشركاؤكم فإنكم لا تقدرون على ذلك . وعلل عدم قدرتهم على ذلك بقوله « إن وليى الله » أى الذى يتولى حفظى ونصرى هو الله « الذى نزل الكتاب » المشتمل على هذه العلوم العظيمة النافعة فى الدين وهو القرآن « وهو » أى الله سبحانه وتعالى « يتولى الصالحين » أى بنصره وحفظه فلا يضرهم عداوة من عاداهم ، قال ابن عباس : يريد بالصالحين الذين لا يعدلون بالله شيئاً ولا يعصونه ، فمن عادته تعالى أن يتولى الصالحين من عباده فضلا عن أنبيائه ، وفى هذا مدح للصالحين ، وإن من تولاه الله تعالى . يحفظه ولا يضره شىء ، وعن عمر بن عبد العزيز أنه ما كان يدخر لأولاده شيئا ، فقيل له فيه ، فقال : ولدى إما أن يكون من الصالحين أو من المجرمين ، فإن كان من الصالحين فوليه الله تعالى ، ومن كان الله وليه فلا حاجة له إلى مالى ، وإن كان من المجرمين فقد قال الله تعالى : فلن أكون ظهيرا للمجرمين ، ومن رده الله تعالى لم أكن

مشتغلا بمهماته «والذين تدعون من دونه» أى الله «لا يستطيعـون نصركم ولاأنفسهم ينصرون» أى فكيف أبالى بهم، وتكريرهذا لأن الأول مذكور على جهة التقريع وهذا مذكور على جهة الفرق بين من تجوز له العبادة وبين من لا تجوز له ،كأنه قيل: الإله المعبود يجب أن يكون بحيث يتولى الصالحين وهذه الأصنام ليست كذلك فلا تكون صالحة للألوهية «وإن تدعوهم» أى الأصنام «إلى الهدى لا يسمعوا» دعاءكم «وتراهم» يا محمد «ينظرون إليك» أى يقابلونك كالناظر «وهم لا يبصرون» لأنهم صوروا بصورة من ينظر إلى من يواجهه، وقال الحسن: المراد بهذا المشركون، ومعناه: إن تدعوا أيها المؤمنون المشركين إلى الهدى لايسمعوا دعاءكم؛ لأن آذانهم قد صمت عن سماع الحق وتراهم ينظرون إليك يا محمد وهم لا يبصرون أى ببصائر قلوبهم.

وهكذا نجد السورة افتتحت بدعوة القرآن إلى دين التوحيد والأمر باتباع ما أنزل الله. والنهى عن اتباع أولياء من دونه، وتلاه التذكير بنشأة الإنسان الأولى فى الخلق والتكوين، والعداوة بينه وبين الشيطان، ثم اختتمت بهذه المعانى وهو التذكير بالنشأة الأولى والنهى عن الشرك واتباع وسوسة الشيطان، والأمر بالتوحيد واتباع القرآن.

١٩٩ — خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ.

٢٠٠ — وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.

٢٠١ — إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ.

٢٠٢ — وَإِخْوَٰنُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ فِى ٱلْغَىِّ ثُمَّ لَا يُقْصِرُونَ.

٢٠٣ — وَإِذَا لَمْ تَأْتِهِم بِـَٔايَةٍ قَالُوا۟ لَوْلَا ٱجْتَبَيْتَهَا قُلْ إِنَّمَآ أَتَّبِعُ

مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ مِن رَّبِّي هَٰذَا بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ .

هذه الآيات الخمس الكريمة المخاطب بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، والمراد أمته ، وأن تتبع ما أمر به ، وأن تقلده فيما هو عليه من أخلاق كريمة ومثل شريفة . . . وقد أمر صلى الله عليه وسلم بأن يأخذ العفو من الأمور ، وأن يأمر بالعرف ، وأن يعرض عن الجاهلين .. يقول صاحب تفسير المنار : إن الرسول صلوات الله عليه قد أمر بثلاثة أشياء ، هى أصول كلية للقواعد الشرعية والآداب النفسية والأحكام العملية :

١ — فالأصل الأول العفو : وهو يطلق فى اللغة على خالص الشيء وجيده ، وعلى الفضل الزائد فيه أو منه ، وعلى السهل الذى لا كلفة فيه ، وعلى ما يأتى بدون طلب أو بدون إحفاء ومبالغة فى الطلب ، وهذه المعانى متقاربة وهى وجودية ، ومن معانيه السلبية إزالة الشيء كعفت الرياح الديار والآثار ، أو إزالة أثره كالعفو عن الذنب وهو منع ما يترتب عليه من العقاب ، وقد ورد عن مفسرى السلف فى تفسير العفو هنا أقوال : كلها ترجع إلى هذه المعانى ، فرواية العوفى عن ابن عباس فى تفسير «خذ العفو» : خذ ما عفا لك من أموالهم ، أى ما فضل وما أتوك به من شيء . وكان هذا قبل أن تنزل براءة بفرائض الصدقات وتفصيلها ، وبذلك قال السدى وزعم أنها نسخت بآية الزكاة — وفى رواية الضحاك عنه : أنفق الفضل ، ومثلها عن سعيد بن جبير وعن عبد الله بن الزبير أن معناها خذ العفو من أخلاق الناس ، ومثله وفى رواية لهشام عن عروة عن خالته عائشة أم المؤمنين مثل ذلك ، وبه قال مجاهد ، وروى عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم أن العفو هنا : الصفح عن المشركين ، وكان عشر سنين فنسخ بآية السيف ، وهذا ضعيف لأن العفو بهذا المعنى لا يعبر عنه بالأخذ لأنه أمر عدمى هو بالإعطاء أشبه ، ولا بالقبول لأنه لم يطلب . وأحسن الزمخشرى ما شاء فى تصويره معنى العفو بما تعطيه اللغة فقال :

والعفو ضد الجهد أى خذ ماعفا لك من أفعال الناس وأخلاقهم وما أتى منهم وتسهل من غير كلفة ، وقيل : خذ الفضل وما تسهل من صدقاتهم ، والمختار أن العفو يشمل هذا وذاك ، فالمراد به أن من أصول آداب هذا الدين وقواعد شرعه اليسر وتجنب الحرج وما يشق على الناس .

٢ — والثانى الأمر بالعرف وهو ما تعارفه الناس من الخير وفسروه بالمعروف ، وفى اللسان المعروف ضد المنكر والعرف ضد النكر ، وهو كل ما تعرفه النفس من الخير وتطمئن إليه . والمعروف اسم جامع لكل ما عرف من طاعة الله والتقرب إليه ، والإحسان إلى الناس وكل ماندب إليه ونهى عنه من المحسنات والمقبحات وهو من الصفات الغالبة ، أى أمر معروف بين الناس إذا رأوه لاينكرونه ، والمعروف النصفة وحسن الصحبة مع الأهل وغيرهم ، والمنكر ضد ذلك جميعه . والقول الجامع أن العرب تطلق المعروف على ضد المنكر وعلى ضد المجهول ، والمنكر هو المستقبح عند الناس الذى ينفرون منه لقبحه أوضرره ويذمونه ويذمون أهله . والأمر به فى هذه السورة المكية التى نزلت فى أصول الدين وكليات التشريع الإسلامى ، وهو على اعتبار عادات الأمة الحسنة وما تتواطأ عليه من الأمور النافعة . وقد تقدم فى هذه السورة «الأعراف» وصف النبى فى بشارة التوراة والإنجيل بأنه «يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر» ، وورد ذكر الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فيما حكاه تعالى من وصية لقمان فى السورة المسماة باسمه ، وهى مكية كالأعراف ، ثم تكرر ذكر المعروف فى السور المدنية وأكثرها فى بيان الأحكام الشرعية العملية ، وذلك فى عشرات من الآيات بعضها فى صفة الأمة الإسلامية وحكومتها ، وأكثرها فى الأحكام الزوجية والمالية . فمن النوع الأول قوله تعالى : فى تعليل الإذن للمسلمين بالقتال من سورة الحج ؛ فذكر من صفات المؤذون لهم به أنهم ظلموا وأخرجوا من ديارهم بغير حق لأجل توحيد الله تعالى ثم قال : « الذين إن مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا

الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولله عاقبة الأمور » ، ومنه قوله تعالى فى سورة آل عمران : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون » وقوله بعدها : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله » وقوله عز وجل فى سورة التوبة « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر » وغير ذلك من آيات هى أصول يجب العمل بها .. ومن النوع الثانى وهو ماورد فى الأحكام الفرعية قوله تعالى فى الحقوق الزوجية من سورة البقرة : « ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف وللرجال عليهن درجة » وهذه الآية ركن من أركان الحقوق الزوجية يفضل بها الإسلام جميع الشرائع والقوانين فى العدل والمصلحة ، ولم تنل النساء مثله فى أمة من الأمم ، ومنها قوله فى أحكام الطلاق : « فإمساك بمعروف أو تسريح بإحسان » ، وقوله بعده : « فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف » ، ومثلها « فلا تعضلوهن أن ينكحن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف » ، وقوله بعدها فيهن إذ كن مرضعات : « وعلى المولود له رزقهن وكسوتهن بالمعروف » فأنت ترى أن المعروف فى هذه الآيات معتبر فى هذه الأحكام المهمة ، وأن المعروف فيها هو المعهود بين الناس فى المعاملات والعادات ، ومن المعلوم بالضرورة أنه يختلف باختلاف الشعوب والبيوت والبلاد والأوقات .

٣ - والأصل الثالث الإعراض عن الجاهلين وهم السفهاء بترك معاشرتهم وعدم مماراتهم ، ولا علاج أوقى لأذاهم من الإعراض عنهم . فقد بين الله تعالى أفضل ما يعامل البشر به بعضهم بعضا من الوصايا الثلاث ، ولو عمل الناس بهذه الوصايا لصلحت أحوالهم ولم يجد الفساد إليهم سبيلا — ثم أوصى الله عز وجل رسوله باتقاء إفساد الشيطان ، أى جنسه لجنس البشر ، والمراد هنا شياطين الجن المستترة . فالتناسب القريب بينهن وبين ماقبلهن المقابلة بين معاملة البشر ومعاملة الجن ، ومن فروعه التناسب بين الجاهلين أى السفهاء

الذين أمرت الآية السابقة بالإعراض عنهم اتقاء لشرهم ، وبين الشياطين التى أمرت هـــذه الآيات بالاستعاذة بالله منهم اتقاء لشرهم ، وبعبارة أخرى : اتقاء شر شياطين الإنس وشياطين الجن ، فإن الشيطان هو الشرير المفسد من الفريقين .

وتجد أن سورة الأعراف قد افتتحت بذكر إغواء الشيطان لآدم وحواء فى الجنة ، ثم ختمت بالأمر بالاستعاذة من الشياطين .

هذا ومن شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة الجاهلين والخوض معهم ، وعلى غير ذلك من المعاصى والفساد تذكروا فأبصروا فحذروا وسلموا ، وإن زلوا تابوا وأنابوا ، وكذلك إخوان الشياطين وهم الجاهلون غير المتقين يتمكن الشياطين من أهوائهم فيمدونهم فى غيهم وفسادهم لأنهم لايذكرون الله تعالى إذا شعروا فى أنفسهم بالنزوع إلى الشر والباطل والفساد فى الأرض ، ولا يستعيذون به سبحانه من نزغ الشيطان ومسه فيبصروا ويتقوا ، إما لأنهم لايؤمنون بالله ، وإما لأنهم لايؤمنون بأن للإنسان شيطانا من الجن يوسوس إليه ويغريه بالشر ثم لايقصرون ولا يكفون عن إغوائهم وإفسادهم ، ولذلك يصرون على الشرور والفساد لفقد الوازع النفسى والواعظ القلبى ، وفى هذا التفسير عود الضمير إلى الشيطان بالجمع لأن المراد به الجنس لا الشخص كما تقدم ، وهو استعمال عربى معروف ، ومنه «والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت» ، وقيل إن الضمير يعود على الجاهلين ، أى وإخوان أولئك الجاهلين من الإنس وهم شياطينهم يمدونهم فى غيهم وفسادهم ، فيكونون أعوانا لشياطين الجن فى ذلك ، ثم يبين الله عز وجل صنيع هؤلاء الجاهلين فى الحديث مع الرسول ، يقولون له : إذا لم يأتهم الرسول بآية من القرآن : هلا أنشأتها واخترتها . . ونسوا أن القرآن منزل من عند الله ، وأنه وحى الله على رسوله العظيم ، وأنه بصائر من الله وهدى ورحمة للمؤمنين به . . يقول الله عز وجل فى هذه الآيات الخمس الكريمة البليغة . .

« خذ العفو » أى اقبل الميسور من أخلاق الناس وأعمالهم ، وذلك مثل

قبول الاعتذار ويدخل فى ذلك ترك التشديد فى كل ما يتعلق بالحقوق المالية ، ويدخل أيضا التخلق مع الناس بالخلق الطيب وترك الغلظة والفظاظة ، قال تعالى : ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك ، وقال صلى الله عليه وسلم : يسروا ولا تعسروا وبشروا ولا تنفروا وقال عكرمة لما نزلت هذه الآية قال عليه الصلاة والسلام : يا جبريل ما هذا ؟ قال : لا أدرى حتى أسأل ثم رجع فقال : إن الله تعالى يأمرك أن تصل من قطعك وتعطى من حرمك وتعفو عمن ظلمك ، وأمر بالعرف ، بالمعروف ، وقال عطاء : بلا إله إلا الله «وأعرض عن الجاهلين» أى فلا تقابلهم بالسفه ، وذلك مثل قوله تعالى: «وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما» وقال جعفر الصادق رضى الله تعالى عنه : ليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية . وعن عائشة رضى الله تعالى عنها أنها قالت : لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً ولا متفحشاً ولا صخابا فى الأسواق ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولكن يعفو ويصفح. وعن جابر رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله بعثنى بمكارم الأخلاق وتمام محاسن الأفعال ؛ قال أبو زيد : لما نزل قوله تعالى : « وأعرض عن الجاهلين » قال النبى صلى الله عليه وسلم : كيف يا رب والغضب فنزل « وإما ينزغنك من الشيطان نزغ » أى وسوسة « فاستعذ » أى استنجد « بالله » أن يدفعه عنك ، وقد احتج الطاعنون فى عصمة الأنبياء بهذه الآية ، وقالوا : لولا أنه يجوز من النبى الإقدام على المعصية والذنب لم يحتج إلى الاستعاذة ، وأجيب عن ذلك بأجوبة عديدة :

١ — إن معنى هذا الكلام إن حصل فى قليل نزغ فاستعذ بالله كما أنه تعالى قال : « لئن أشركت ليحبطن عملك » ولم يدل ذلك على أنه أشرك » .

٢ — الكلام على تقدير أنه لو حصل وسوسة من الشيطان .. ولكن الله تعالى قد عصم قلبه صلى الله عليه وسلم من قبولها ، وإنما القادح لو قبل صلى الله عليه وسلم وسوسة ، والآية لا تدل على ذلك ، وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال : ما من إنسان إلا ومعه شيطان ، وفى رواية : ما منكم من أحد إلا وقد

وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة ، قالوا : وإياك يارسول الله؟ قال: وإياى إلا أن الله تعالى أعانني عليه فأسلم فلا يأمرني إلا بخير . وفي رواية : لكنه أسلم بعون الله .

٣ — إن الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد به غيره أي وإما ينزغنك أيها الإنسان من الشيطان نزغ فاستعذ بالله كقوله تعالى « وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله » . « إنه سميع » للقول « عليم » بالفعل ، وفي الآية دلالة على أن الاستعاذة باللسان لاتفيد إلا إذا حضر في القلب العلم بمعنى الاستعاذة ، فكأنه تعالى قال : اذكر لفظ الاستعاذة بلسانك فإني سميع، واستحضر معنى الاستعاذة بعقلك وقلبك فإني عليم بما في ضميرك « إن الذين اتقوا إذا مسهم » أي أصابهم « طيف » أي شيء ألم بهم « من الشيطان تذكروا » عقاب الله وثوابه « فإذا هم مبصرون » الحق من غيره فيرجعون « وإخوانهم » أي وإخوان الشياطين من الكفار « يمدونهم » أي يمدهم الشيطان « في الغي » أي يزيدونهم في الضلالة بالتزيين والحمل عليها « ثم لايقصرون » أي لا يكفون عن الضلالة ولا يتركونها، وهذا بخلاف حال المؤمنين المتقين لأن المؤمن إذا أصابه طيف الشيطان تذكر وعرف ذلك فنزع عنه وتاب واستغفر ، والكافر مستمر في ضلاله لا يتذكر ولا يرعوى « وإذا لم تأتهم » أي أهل مكة « بآية » أي بما اقترحوها « قالوا لولا اجتبيتها » أي هلا تقولتها من عند نفسك كسائر ماتقرؤه فإنهم كانوا يقولون « إن هذا إلا إفك مفترى » تقول العرب اجتبيت الكلام اختلقته وافتعلته وأنشأته من عندك ، وهلا طلبتها من ربك منزلة عليك مقترحة ، قال الله تعالى « قل » يا محمد لهؤلاء المشركين الذين سألوا الآيات « إنما أتبع ما يوحى إلى من ربى » أي ليس لى أن أقترح على ربى في أمر من الأمور ، إنما أنتظر الوحي « هذا بصائر من ربكم » أي هذا القرآن فيه حجة وبرهان ، وأصل البصائر الإبصار وهو ظهور الشيء حتى يبصره الإنسان ، ولما كان القرآن سببا لبصائر العقول في دلائل التوحيد والنبوة والمعاد أطلق عليه لفظ البصيرة « وهدى » أي وهو هدى « ورحمة » أي وهو رحمة « لقوم

يؤمنون ، أى بآدابه وشرائعه وحكمته . . وقد كانت أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الذروة من الرفعة والجلال ، وكان خلقه القرآن كما روى عن عائشة رضى الله عنها ، وكانت شمائله خير مصدقة لما وصف به صلوات الله عليه فى القرآن الكريم .. والأحاديث فى ذلك كثيرة متضافرة . .

كان صلى الله عليه وسلم أحلم الناس وأرغبهم فى العفو مع القدرة ، فمن ذلك أن رجلا من أهل البادية وقف — والمصطفى يقسم قلائد من ذهب وفضة بين أصحابه — وقال : يا محمد ؛ والله لئن أمرك الله أن تعدل فما أراك تعدل ، فقال المصطفى : ويحك فمن يعدل عليك بعدى ، فلما ولى الأعرابى قال : ردوه على رويداً . وحدث أنه لما كان المصطفى يقسم بعض الغنائم يوم خيبر قال له رجل يارسول الله : أعدل، فقال له المصطفى : ويحك فمن يعدل إذا لم أعدل فقد خبت إذا وخسرت إن كنت لا أعدل، فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق ؟ فقال : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى .

وكان صلى الله عليه وسلم يعجل بالإحسان والصدقة والمعروف ، ولذلك كان أشرح الخلق صدراً وأطيبهم نفسا ، وكان عالى الهمم وافر الفضل والكرم كريم الشمائل جميل العواطف جليل العوارف مطبوعا على السخاء سهل الإنفاق جزل الإرفاق مهتما بوصل الأرزاق ، يحقق الوسائل ، ولا يخيب أمل الآمل ، يبذل الرغائب ويعين على النوائب ، يحمل الكل ويكسب المعدم ، يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة ، لا يدخر شيئا من يومه لغده، أسخى من الغمائم المثقلة وأجرى بالخير من الريح المرسلة ، ما سئل عن شىء فقال : لا ، ولا أعرض عن طالبه، وحسبك شاهد أنه رد سبايا هوازن وكانوا ستة آلاف ، وكان يجود بكل موجود ، ولذلك لما توفى كانت درعه مرهونة عند يهودى على مقدار من شعير لطعام أهله، مع أنه قد ملك جزيرة العرب وكان فيها كثير من الملوك والأقيال لهم خزائن وأموال يقتنونها ويتباهون بها، وقد حاز ملك جميعهم فما اقتنى ديناراً ولا درهما ؛ وكان إذا سئل وهو معدم وعد ولم يرد وانتظر ما يفتح الله به، وكان على رضى الله عنه إذا وصف النبى صلى الله عليه

وسلم قال : كان أجود الناس كفاً وأوسع الناس صدرا وأصدق الناس لهجة وأوفاهم ذمة وألينهم عريكة وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ومن خالطه معرفة أحبه . حمل إليه تسعون ألف درهم فوضعها على حصير ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها ، وجاء رجل فسأله فقال : ماعندى شيء ولكن ابتع علي فإذا جاءنا شيء قضيناه ، فقال عمر : يا رسول الله ماكلفك الله مالا تقتدر عليه ، فكره النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ، فقال رجل : أنفق ولاتخش من ذى العرش إقلالا ؛ فتبسم النبي صلى الله عليه وسلم وظهر السرور فى وجهه . ولما قفل من حنين جاءت الأعراب يسألونه حتى اضطروه إلى شجرة فخطفت رداءه ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال : أعطونى ردائى . قال صفوان بن أمية : « لقد أعطانى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما أعطانى وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما برح يعطينى حتى إنه لأحب الناس إليَّ ، إنى أشهد ما طابت بهذا إلا نفس نبى » ؛ وجاء فى البخارى أنه صلى الله عليه وسلم أتى بمال من البحرين ، فقال : انثروه ، وكان أكثر مال أتى به ، فخرج صلى الله عليه وسلم إلى المسجد ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فما كان يرى أحدا إلا أعطاه ، وما قام عليه الصلاة والسلام وثمَّ منها درهم . وأتته امرأة ببردة فقالت : يا رسول الله أكسوك هذه ، فأخذها صلى الله عليه وسلم محتاجا إليها ، فلبسها فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يارسول الله ما أحسن هذه فاكسنيها فقال : نعم ، فلما قام عليه الصلاة والسلام لام الصحابة هذا السائل قائلين له : إنك تعرف أن النبي محتاج إليها وأنه لا يسأل عن شيء فيمنعه . وقد شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من خدمة البيت وطلبت منه خادما يكفيها مؤونة بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد وقال : لا أعطيك وأدع أهل الصفة تطوى بطونهم من الجوع .. وروى حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أخفت فى الله وما يخاف أحد ، ولقد أوذيت فى الله وما يؤذى أحد ، ولقد أتت على ثلاثون يوما بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام يأكله ذو كبد إلا شيء يواريه

إبط بلال .. وقد ملك أقصى الحجاز إلى عذار بالفرات ومن أقصى اليمن إلى شحر عمان ؛ وهو صلى الله عليه وسلم أزهد الناس فيما يقتنى ويدخر وأعرضهم عما يستفاد ويحتكر ، لم يخلف عينا ولم يورث أهله وولده متاعا ولا مالا ليصرفهم عن الرغبة فى الدنيا كما صرف نفسه عنها . ولقد جاءت فاطمة رضى الله عنها إلى أبى بكر رضى الله عنه تريد الميراث ؛ فقال لها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « إنا لا نورث ، ما تركنا فهو صدقة » ، ثم قال لها : من كان رسول الله يعوله فأنا أعوله ، ومن كان ينفق عليه فأنا أنفق عليه ..

وروى أنس رضى الله عنه أن شابا كان على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم يسمى علقمة فرض واشتد مرضه ، فقيل له : قل لا إله إلا الله ، فلم ينطق لسانه ، فأخبر بذلك النبى صلى الله عليه وسلم فقال : هل له أبوان ؟ فقيل : مات أبوه وله أم كبيرة ، فأرسل إليها الرسول فجاءت فسألها عن حال ابنها قالت : كان يصلى كذا وكذا وكان يصوم كذا وكذا وكان يتصدق بجملة دراهم ما ندرى ما وزنها ولا عددها ، قال : ما حالك وحاله ؟ قالت : أنا عليه ساخطة واجدة ، قال لها : ولم ذلك ؟ قالت : كان يؤثر على امرأته ويطيعها فى الأشياء ، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم : سخط أمه حجب لسانه عن شهادة لا إله إلا الله ، ثم قال لبلال : انطلق واجمع حطبا كثيرا حتى أحرقه بالنار ، فقالت أمه : يا رسول الله ابنى وثمرة فؤادى تحرقه بالنار بين يدى وهل يحتمل قلبى ذلك ؟ فقال الرسول : يسرك أن يغفر الله له فارضى عنه . فوالذى نفسى بيده لا ينتفع بصلاته ولا بصدقته ولا بصومه ما دمت عليه ساخطة ؛ فرفعت يدها وقالت : أشهد الله فى سمائه وأنت يا رسول الله ومن حضر أنى قد رضيت عنه . فقال الرسول : انطلق يا بلال فانظر . هل يستطيع علقمة أن يقول : لا إله إلا الله فلعل أمه تكلمت بما ليس فى قلبها حياء من رسول الله صلى الله عليه وسلم . فانطلق بلال فلما انتهى إلى الباب سمع علقمة يقول : لا إله إلا الله .. ومات من يومه .

٢٠٤ — وَإِذَا قُرِئَ ٱلْقُرْءَانُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ .

٢٠٥ — وَاذْكُر رَّبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ ٱلْجَهْرِ مِنَ ٱلْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلْغَافِلِينَ .

٢٠٦ — إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيُسَبِّحُونَهُ وَلَهُ يَسْجُدُونَ .

فى هذه الآيات الثلاث ، يأمر الله عز وجل رسوله الكريم والمؤمنين من عباده بالإنصات عند سماع القرآن وسماعه سماع تدبر وإمعان ، كما يأمره ويأمرهم الله عز وجل بذكر الله تضرعا وخيفة بالغدو والآصال ، وينوه بشأن الملائكة والصديقين الذين لا يستكبرون عن عبادة الله ويسبحونه وله يسجدون..

«وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا» أى عن الكلام «لعلكم ترحمون» أى لكى يرحمكم ربكم باتباعكم ما أمرتم به من أوامر ، واختلفوا فى سبب نزول هذه الآية : فذهب قوم إلى أنها نزلت فى الصلاة كانوا يتكلمون فيها فأمروا باستماع قراءة الإمام والإنصات ، وروى عن أبى هريرة رضى الله عنه أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة بحوائجهم فأمروا بالسكوت والاستماع إلى قراءة القرآن ، وقال قوم : نزلت فى ترك الجهر بالقراءة خلف الإمام ، وروى زيد ابن أسلم عن أبيه عن أبى هريرة قال : نزلت هذه الآية فى رفع الأصوات وهم خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الصلاة ، وقال الكلبى : كانوا يرفعون أصواتهم فى الصلاة حين يسمعون ذكر الجنة والنار .. وعن ابن مسعود أنه سمع ناسا يقرأون مع الإمام فلما انصرفوا قال : أما آن لكم أن تتفقهوا ، وإذا قرىء القرآن فاستمعوا له وأنصتوا كما أمركم الله . وقيل : الآية نزلت فى القرآن فى الصلاة ، وقال سعيد بن جبير وعطاء ومجاهد : إن الآية نزلت فى

الخطبة أمروا بالإنصات لخطبة الإمام يوم الجمعة ، وقال عمر بن عبد العزيز : الإنصات لكل واعظ ، وقيل معناه: وإذا تلا عليكم الرسول القرآن عند نزوله فاستمعوا له وأنصتوا ، وقيل: معنى فاستمعوا له فاعملوا بما فيه ولا تجاوزوه .

وهذا دلالة على الطريقة الموصلة لنيل الرحمة بالقرآن ، والحصانة من نزغ الشيطان ، وهى الاستماع له إذا قرىء والإنصات مدة القراءة ، والاستماع أبلغ من السمع ، ولأنه إنما يكون بقصد ونية وتوجيه الحاسة إلى الكلام لإدراكه ، والسمع ما يحصل ولو بغير قصد ، والإنصات السكوت لأجل الاستماع حتى لا يكون شاغلا عن الإحاطة بكل ما يقرأ . فمن استمع وأنصت كان جديراً بأن يفهم ويتـــدبر ، وهو الذى يرجى أن يرحم . والآية تدل على وجوب الاستماع والإنصات للقرآن إذا قرىء ، قيل : مطلقا سواء كانت القراءة فى الصلاة أو خارجها ، وهو مروى عن الحسن البصرى ، وعليه أهل الظاهر ، وخصه الجمهور بقراءة الرسول فى عهده وبقراءة الصلاة والخطبة من بعده ، وزعم بعضهم أن الآية نزلت فى خطبة الجمعة ، وهو خطأ ، فإن الآية مكية وصلاة الجمعة شرعت بعد الهجرة ، وقال بعضهم : إن الأمر للندب لا للوجوب ، ولكن روى أنهم كانوا يتكلمون فى الصلاة فحرم بنزولها الكلام فيها .

وتأثير القرآن عظيم ، وكان هو الذى يدع الكافر المعاند مؤمنا صادق الإيمان ، روى أن عتبة بن ربيعة العبشمى من بنى عبد شمس بن عبد مناف كان سيدا مطاعا فى قومه ، فنادى فى قريش : يامعشر قريش ألا أقوم لمحمد فأكلمه وأعرض عليه أمورا عله يقبل بعضها فنعطيه إياها ويكف عنا ؟ فقالوا : لك ذلك ، فذهب إلى رسول الله وهو يصلى فى المسجد وقال: ياابن أخى إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبا ونسبا وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم وكفرت من مضى من آبائهم فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، فقال عليه الصلاة والسلام: قل ياأبا الوليد، فقال: ياابن أخى، إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد شرفا

سودناك علينا حتى لانقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد ملكا ملكناك علينا، وإن كان الذى يأتيك رئيا من الجن لاتستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فقال المصطفى صلى الله عليه وسلم: لقد فرغت يا أبا الوليد، قال: نعم؟ قال: فاسمع منى، فقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم أول سورة فصلت «بسم الله الرحمن الرحيم، حم تنزيل من الرحمن الرحيم، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون بشيرا ونذيرا، فأعرض أكثرهم فهم لايسمعون، وقالوا قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه وفى آذاننا وقر ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون، قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد فاستقيموا إليه واستغفروه، وويل للمشركين الذين لا يؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم كافرون، إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم أجر غير ممنون قل أئنكم لتكفرون بالذى خلق الأرض فى يومين وتجعلون له أندادا ذلك رب العالمين، وجعل فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها فى أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين، فقضاهن سبع سموات فى يومين وأوحى فى كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظا ذلك تقدير العزيز العليم، فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود، إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم ألا تعبدوا إلا الله قالوا لو شاء ربنا لأنزل ملائكة فانا بما أرسلتم به كافرون» عند ذلك أمسك عتبة بفيه وناشده الرحم أن يكف عن ذلك، فلما رجع عتبة سألوه فقال: والله لقد سمعت قولا ماسمعت مثله قط والله ماهو بالشعر ولا بالكهانة ولا بالسحر يامعشر قريش أطيعونى فاجعلوها لى. خلوا بين الرجل وما هو فيه: فاعتزلوه. فوالله ليكونن لكلامه الذى سمعت نبأ: فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم، وإن يظهر على العرب فعزه عزكم، فقالوا: لقد سحرك محمد، فقال: هذا رأيى.

«واذكر ربك فى نفسك» عام فى الإذكار من القراءة والدعاء وغيرهما، والمراد بالذكر فى النفس أن يستحضر الذاكر فى قلبه عظمة الله تعالى

لأن الذكر باللسان إذا كان عاريا عن ذكر القلب كان عديم الفائدة لأن فائدة ، الذكر حضور القلب وإشعاره عظمة المذكور تعالى ، تضرعا ، أى تذللا ، وخيفة ، أى خوفا منه وإنما قال تعالى (واذكر ربك) ولم يقل (واذكر إلهك) ولا غيره من الأسماء ، وإنما سماه فى هذا المقام باسم كونه ربا وأضاف نفسه إليه ليدل على نهاية الرحمة والتقريب والفضل والإحسان، والمقصود منه أن يصير العبد فرحا مبتهجا عند سماع هذا الإسم، لأن لفظ الرب مشعر بالتربية والفضل وعند سماع هذا الإسم يتذكر العبد إنعام الله تعالى عليه ، ودون الجهر من القول ، أى ومتكلما كلاما فوق السر ودون الجهر أى قصدا بينهما فانه أدخل فى الخشوع والإخلاص ، بالغدو ، جمع غدوة ، والآصال ، جمع أصيل، وهو مابين صلاة العصر إلى الغروب ، وإنما خص هذين الوقتين بالذكر لأنهما طرفا النهار، والمراد بهما جميع الأوقات أى اذكره فى كل وقت ، ولا تكن من الغافلين، عن ذكر الله تعالى واستحب للعبد أن يذكر الله تعالى فيها ليكون فى جميع أوقاته مشتغلا بما يقربه إلى الله تعالى من صلاة وذكر، وقيل: إن أعمال العباد تصعد أول النهار وآخره فيصعد عمل الليل عند صلاة الفجر ويصعد عمل النهار بعد العصر إلى الغروب ، فاستحب له الذكر فيهما ليكون ابتداء عمله بالذكر وختامه بالذكر ، إن الذين عند ربك ، أى الملائكة المقربين بالفضل والكرامة ، لا يستكبرون ، أى لا يتكبرون ، عن عبادته ، لأنهم عبيده خاضعون لعظمته وكبريائه ، ويسبحونه ، أى وينزهونه عن جميع النقائص ويقولون: سبحان الله ربنا ، وله يسجدون ، أى يخضعون له بالعبادة والتذلل لا يشركون به غيره، وفى هذا إشارة إلى أن الأعمال تنقسم إلى قسمين : أعمال القلوب وأعمال الجوارح ، فأعمال القلوب هى تنزيه الله تعالى عن كل سوء وهو الاعتقاد القلبى ، وعبر عنه بقوله (ويسبحونه) وعبر عن أعمال الجوارح بقوله (وله يسجدون) ليوافق الملائكة المقربين فى عبادتهم .. وكان رسول الله يقول : عليك بكثرة السجود لله فانك لا تسجد سجدة إلا رفعك الله بها درجة وحط عنك بها خطيئة ، وعن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما قال : كان رسول

الله صلى الله عليه وسلم يقرأ القرآن فيقرأ سورة فيها سجدة فيسجد ونسجد معه حتى ما يجد بعضنا موضعا لمكان جبهته فى غير وقت صلاة ، وعن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا قرأ ابن آدم السجدة فسجد اعتزل الشيطان يبكى ويقول: ياويلتى ، أمر ابن آدم بالسجود فسجد فله الجنة وأمرت بالسجود فأبيت فلى النار .

* * *

وبهذا ينتهى الربع السادس من هذا الجزء . . وقد تضمن من الأصول الكريمة مايلى :

١ — تذكير البشر بنعمة الله عليهم فى الخلق والإيجاد والتكوين ، وبنعمة خلق أبيهم آدم الذى تناسلت منه ذريته ؛ جيلا بعد جيل ، وأمة بعد أمة . . وفى هذا التذكير حفز على الإيمان بالله وعبادته حق العبادة ، وترك الإشراك به .

٢ — بيان أن الكثيرين من البشر يقابلون نعمة الله عليهم بالكفر والجحود والشرك ، والله عز وجل وتبارك وتعالى منزه عما يشركون .

٣ — تسفيه عقول المشركين ، وجدالهم فى الشرك بالمنطق والحق والعقل . فآلهتهم التى يعبدونها من دون الله لا يخلقون شيئا ، والتنكير فى (شىء) للتقليل والتحضير ؛ فهم لايستطيعون أن يخلقوا أقل الأشياء وأحقرها فضلا عن أكثرها وأجلها ، وهذه الآلهة كذلك لاتستطيع أن تنصر أحدا ممن يلوذون بها ، ولا أن تنصر نفسها كذلك فى مواقف الخصام واللجاج .

ومع ذلك فهؤلاء المشركون لايستمعون لداعى التوحيد ، ولا يستجيبون لنداء الخير أبدا ، وسواء عليك ، أدعوتهم أم لا ؟ ويلفت الله عز وجل نظر المشركين إلى أن آلهتهم التى يعبدونها عاجزة كل العجز عن أى شىء ، حتى أنه ليس لها أيد تبطش بها ، ولا أرجل تمشى بها ، ولا عين تبصر بها ، ولا أذن تسمع بها .

٤ - تقرير أن الله عز وجل هو ولى الرسول والمؤمنين برسالة الإسلام وهو يتولى الصالحين دائما بفضله ورعايته .

٥ - أمر الرسول بأصول الفضائل ، وجوامع مكارم الأخلاق : من أخذ العفو ، ومن الأمر بالعرف ، ومن الإعراض عن الجاهلين ، ومن الاستعاذة بالله من نزغات الشيطان .

٦ - الرد على المشركين فى اقتراحهم للآيات .

٧ - الأمر بالاستماع للقرآن عند تلاوته ، وبذكر الله فى كل وقت ، وبالتضرع له وعدم الاستكبار عن عبادته ، وبتسبيحه والسجود له . .

* * *

وبهذا تنتهى سورة الأعراف الكريمة .. هذه السورة المكية الطويلة المشتملة على ٢٠٦ آية من طوال الآيات ، والتى تضمنت من حجاج الشرك والمشركين ما تضمنت ، وخلاصة موضوعات السورة هى كما يلى :

١ - الآيات ١ و ٢ و ٣ فى التنويه بالقرآن الكريم ووجوب العمل به.

٢ - الإشارة إلى مصارع الأمم البائدة ، وإلى حساب المسئولين عنها فى الآخرة ، وذلك فى الآيات ٤ - ٩ .

٣ - الامتنان على البشر بتمكين الله إياهم فى الأرض وتسخيرها للإنسان وبجعل الإنسان سيد الحياة فى الأرض ؛ وبنعمة أخرى هى نعمة الخلق والتصوير ، وذلك فى الآيات ١٠ وبعض آية ١١ .

٤ - ذكر خلق الله لآدم ، وقصته فى الجنة من سجود الملائكة له ، وإباء إبليس وعصيانه ، وطرد الله له من رحمته ، ووسوسة إبليس لآدم ، وهبوط آدم إلى الأرض (آية ١١ - ٢٥) .

٥ - الامتنان على بنى آدم بنعم الله عليهم ، وفى مقدمتها هدايتهم لاتخاذ الثياب ونصح بنى آدم بألا يفتنهم الشيطان كما فتن أبويهم من قبل، وذلك فى الآيات ٢٦ و ٢٧ .

٦ — شرائع الله لا تأمر إلا بكل ما هو حق وخير ، وإلا بعبادة الله عز وجل والإخلاص له فى العبادة - الآيات ٢٨ - ٣٠ .

٧ — أمر بنى آدم بحسن المظهر وخاصة عند الصلاة ، وبالقصد وعدم الإسراف . . وإباحة الطيبات للإنسان يأكلها ويتمتع بها ، وتقرير أن الله عز وجل إنما حرم الخبائث والفواحش على الإنسان كما حرم البغى بغير الحق ، والشرك بالله والافتراء على الله ، وذلك فى الآيات ٣١ - ٣٣ .

٨ — للأمم آجال مكتوبة كآجال الأفراد ، وسوف تحاسب على ما تعمل ، فلماذا لا تؤمن برسلها ، إن للمؤمنين النعيم ، وللكافرين والمكذبين الجحيم ٣٤ - ٣٦ . .

٩ — بيان عظم جريرة المكذبين بآيات الله وبالرسل والرسالات ، وعذابهم الشديد فى الآخرة ، وحجاجهم بعضهم مع بعض فى النار . . وذلك من الآية ٣٧ حتى آية ٣٩ .

١٠ — المكذبون بالرسالات أخطر طبقة على الحق وعلى مستقبل الحياة البشرية ، ولذلك كان جزاءهم أليما عند الله فى الآخرة ، من حيث كان النعيم كل النعيم للمؤمنين والذين عملوا عملا صالحا ، وذلك فى الآيات ٤٠ - ٤٣ .

١١ — بيان حوار أهل النار والجنة والأعراف بعضهم مع البعض الآخر يوم القيامة ٤٤ - ٥١ .

١٢ — المشركون المكذبون برسالة محمد عليه السلام وبالقرآن الكريم سوف يندمون ٥٢ - ٥٣ .

١٣ — بيان عظمة خلق الله للسموات والأرض، وبدء تكوين الحياة، واستواء الله على العرش ، وخلق الشمس والقمر والنجوم .. مما يكون التفكير فيه داعيا إلى الإيمان وإلى التضرع إلى الله ، وإلى ترك الشرك والفساد ، ثم بيان كمال قدرة الله عز وجل بإرساله الرياح مبشرات ، وبتصريف الرياح للسحب ، وبإنزال المطر على ما يشاء الله من بلاد ، وبخروج النبات والثمرات على المطر ، أفلا

يكون القادر على كل ذلك قادرا على إحياء الموتى وبعثهم وإخراجهم من القبور ؟ فليعتبر المشركون بذلك كله ، ففرق بين المؤمنين والكافرين ، وهنا يضرب الله المثل للمؤمنين بالبلد الطيب يخرج نباته سهلا كريما بإذن ربه ، وللكافرين بالبلد الخبيث الذى لا يخرج نباته إلا نكدا ٥٤ ـ ٥٨ .

١٤ — ذكر قصة نوح مع قومه وما فيها من عبر وعظات ٥٩ ـ ٦٤ .

١٥ — ذكر قصة هود مع قومه عاد ، وتكذيبهم له ومصرعهم الأليم ٦٥ - ٧٢ .

١٦ — ذكر قصة صالح مع قومه ثمود ، وتكذيبهم لرسالته ، ومصرعهم الدامى (٧٣ - ٧٩) .

١٧ — ذكر قصة لوط مع قومه وتكذيبهم له والعذاب الذى نزل بهم ٨٠ - ٨٤ .

١٨ — ذكر قصة شعيب مع قومه من آل مدين ، وتكذيبهم ومصرعهم ٨٥ - ٩٣ . . وقد جاءت الإشارة إلى شعيب فى العهد القديم بإيجاز بمناسبة ذكر موسى . فنى سفر الخروج الإصحاح الثانى يذكر هرب موسى من فرعون ، ولجوءه إلى مدين ، وجلوسه عند بئرها ، وسقياه الرعاء لبنات كاهن مدين السبع ، وقصهن على أبيهن راعوئيل قصة موسى ، واستدعاء شعيب ـ راعوئيل ـ لموسى ومصاهرته إياه ، ورعى موسى الغنم لحميه راعوئيل ، وهو (يثرون) ، حتى اصطفاه الله برسالته[1] ، وذهاب موسى إلى فرعون . . ثم عودته إلى مدين بعد غرق فرعون ونجاة بنى إسرائيل ، واستقبال شعيب له[2] .

١٩ — ذكر موطن العبرة والعظة من قصص الأنبياء السابقين على محمد وعلى المشركين من قومه ٩٤ - ١٠٢ .

٢٠ — ذكر قصة موسى مع فرعون ومع قومه بتفصيل ١٠٣ - ١٧١ وما فى هذه القصة من عبر وعظات .

---

(١) الإصحاح الثانى من سفر الخروج . (٢) الإصحاح الثامن عشر من سفر الخروج .

٢١ — إقرار الخلق منذ بدء الخليقة بالتوحيد والإيمان بالرسل ١٧٢ - ١٧٤ .

٢٢ — ضرب الأمثال للمؤمن والكافر والعبرة من ذلك ١٧٥ - ١٧٩ .

٢٣ — وجوب الإيمان بالله وعبادته وتقديسه فله الأسماء الحسنى ، وبيان فضل المهتدين ، وعذاب الله للمكذبين ١٨٠ - ١٨٣ .

٢٤ — دعوة مشركي مكة إلى التدبر وإمعان النظر فى رسالة محمد عليه السلام ، وفى محمد وصدقه ، وفى ملكوت السموات والأرض لعلهم يؤمنون ١٨٤ - ١٨٦ .

٢٥ — بيان أمر الساعة وإنذارهم بها ، وتقرير الحقيقة فى شأن الرسالة ووظيفتها فى صدق وبساطة وجلال ١٨٧ - ١٨٨ .

٢٦ — نعمة الخلق الإنسانى وتذكير مشركى مكة به وتحذيرهم من الشرك وبما يعبدون من دون الله ؛ وتوبيخهم على عبادتهم آلهة وأوثانا دون الله ١٨٩ - ١٩٥ .

٢٧ — جهر الرسول فى المشركين بأن وليه وإلهه هو الله وحده الذى نزل القرآن وهو يتولى الصالحين وتفنيد الرسول لعباداتهم ١٩٦ - ١٩٨ .

٢٨ — ذكر الرسول وما أمره القرآن الكريم به من أخلاق وآداب ، وجهره فى قومه بأنه إنما يتبع ما يوحى إليه من ربه ، وخضوعه لله وعبادته إياه ، وأوصاف للقرآن الكريم - إلى غير ذلك ١٩٩ - ٢٠٦ .

وخلاصة ما اشتملت عليه سورة الأعراف كما يقول الشيخ رشيد رضا فى تفسيره « المنار » هى :

١ — توحيد الله تعالى إيماناً وعبادة وتشريعا ، وصفاته وشؤون ربوبيته .

٢ — الوحى والكتب والرسالة والرسل .

٣ — الآخرة والبعث والجزاء .

٤ — أصول التشريع وبعض قواعد الشرع العامة .

٥ — آيات الله وسننه فى الخلق والتكوين .

٦ — سنن الله تعالى فى الاجتماع والعمران البشري وشؤون الأمم ، المعبر عنه فى عرف عصرنا بعلم الاجتماع .

ومما جاء بشأن القرآن فى هذه السورة الكريمة :

١ — إنزال القرآن على خاتم الرسل محمد للانذار به وذكرى للمؤمنين، وهو فى الآية الأولى من السورة ، وفيها نهى الرسول أن يكون فى صدره حرج منه . .

٢ — أمر المؤمنين باتباع المنزل إليهم من ربهم وهو القرآن ، وأن لا يتبعوا من دونه أولياء وهو الآية الثانية ، وبيان أنهم إذا لم يؤمنوا به فلا يرجى أن يؤمنوا بكتاب غيره ، كما قال فى آخر الآية ١٨٥ «فبأى حديث بعده يؤمنون؟» .

٣ — وصفه تعالى للقرآن بأنه فصله على علم وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ، وهو نص الآية ٥١ .

٤ — بيانه تعالى لما سيكون عند إتيان تأويل القرآن أى ظهور صدقه بوقوع ما أخبر بوقوعه من أمر الغيب ، وهو أن الذين نسوه فلم يؤمنوا به فى الدنيا يؤمنون يومئذ ويشهدون لجميع الرسل بأنهم جاءوا بالحق ويتمنون الشفعاء أو الرد إلى الدنيا ليعملوا غير ما كانوا يعملون . وهو فى الآية ٥٢

٥ — ولاية الله ورسوله بإنزاله الكتاب عليه فى الآية ١٩٦

٦ — الأمر بالاستماع لقراءة القرآن والإنصات له رجاء الرحمة بسماعه والاهتداء به .

ومما جاء فيها خاصا بمحمد صلوات الله عليه :

١ — قوله تعالى فى الآية الأولى «فلا يكن فى صدرك حرج منه» أى الكتاب، وهو نهى عن ضيق الصدر بعظمة القرآن ، وجلال الأمر الذى أنزل لأجله ، وشدة وقع سلطانه فى القلب ، أو عن ضيقه بمشقة الإنذار به والتصدى لهداية

جميع البشر ، وقد غلب عليهم الشرك والضلال ، أو بما يتوقع من شدة معارضة الكفار وعداوتهم — وقيل : هو دعاء ، وقيل : هو حكم منه تعالى بمضمونه .

٢ — أمره تعالى له بأن يعتز بأنه هو وليه وناصره وبأنه تعالى يتولى الصالحين فلا خوف على أتباعه من اضطهاد الكفار لهم ، وهو فى الآية ١٩٦

٣ — قوله تعالى فى الآية ١٨٤ « أو لم يتفكروا ما بصاحبهم من جنة » الآية. وهى تفنيد لرمى بعض مشركى مكة إياه بالجنون يعنى أن التفكر الصحيح فى حاله من أخلاقه وهديه وسيرته ، وفيما جاء به من العلم والهدى ، ينفى أن يكون به أدنى مس من الجنون كما زعموا ، فما عليهم إلا أن يتفكروا .

٤ — بيان أنه صلوات الله عليه لم يعط علم الساعة أيان مرساها ومتى تقوم ؟ بل هو من علم الغيب الخاص بالله تعالى وذلك نص الآية ١٨٧

٥ — بيان أنه صلوات الله وسلامه عليه لا يملك لنفسه — أى ولا لغيره بالأولى — نفعاً ولا ضراً — إلا ما مكنه الله منه بتسخير الأسباب من الأعمال الاختيارية — وبيان أنه لا يعلم الغيب ، وذلك قوله تعالى « قل لا أملك لنفسى نفعا ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون » .

٦ — بيان عموم بعثته وشمول رسالته لجميع الأمم والشعوب ، ومنهم أهل الكتاب والشهادة له فى كتبهم يدل عليه فى الآية الأولى حذف مفعول « لتنذر به » فهو يدل على العموم ، وكذلك الخطاب العام بعده فى الأمر باتباع الناس ما أنزل إليهم من ربهم وهو القرآن المذكور فى الآية الأولى . والنص فى إرساله إلى أهل الكتاب قوله تعالى فيمن يكتب لهم رحمته : « الذين يتبعون الرسول النبى الأمى الذى يجدونه مكتوبا عندهم فى التوراة والإنجيل » الخ .

وأما النص الصريح فى عموم الرسالة فهو قوله تعالى « قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعا » الآية ، وكذا كل خطاب خوطب به بنو آدم فى

الآيات ٢٥ و ٢٦ و وما بعدها من آيات التشريع العام ، ولكن هذا كله مشترك بين أمة خاتم النبيين وأمم الأنبياء قبله ، وأصرح منه فى الاشتراك العام ما ترى فى أول الكلام فى الرسالة العامة .

أما ما ورد فى الرسالة العامة والرسل فهو كثير ، ومنه :

١ — بعثة الرسل إلى جميع بنى آدم فى قوله تعالى : « يا بنى آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى » الخ ، ويدل على إرسالهم إلى الأمم المختلفة قوله تعالى : « وكم من قرية أهلكناها » ، إلى آخر الآية الخامسة . فالمراد بالقرى الكثيرة أمم الرسل بدليل ما بعده .

٢ — سؤاله الرسل يوم القيامة عن التبليغ وسؤال الأمم عن الإجابة ، وهو نص الآية الخامسة .

٣ — جزاء بنى آدم على اتباع الرسل وطاعتهم وعلى تكذيبهم إياهم واستكبارهم عن اتباعهم ، وهو فى الآيتين ٣٥ و ٣٦ .

٤ — وظيفة الرسل تبليغ رسالات ربهم : بشارة وإنذارا ، قولا وعملا ، وهو صريح فى الآيات : ١ و ٦٢ و ٩٣ و ١٨٨ .

٥ — أول ما دعا إليه الرسل توحيد الألوهية بالأمر بعبادة الله وحده ونفى عبادة إله غيره ؛ كما هو صريح فى الآيات ٥٩ و ٦٥ و ٧٠ و ٧٣ و ٨٥ .

٦ — مجىء الرسل بالبينات من الله تعالى ، وهى تشمل الآيات الكونية والحجج العقلية ، كما ترى فى الآيات ١٣ و ٨٥ و ١٠٣ و ١٠٥ و ١٠٧ و ١٠٨ .

٧ — الآيات الكونية التى أيد الله تعالى بها رسله هى حجة لهم على الأمم ، وهى غير مقتضية للإيمان اقتضاء عقليا ولا ملجئة إليه طبعا ، ولو كانت مقتضية له قطعا أو ملجئة إليه طبعاً لما تخلف عنها ، ولكان خلاف مقتضى التكليف المبنى على الاختيار ، والملجأ لا يستحق جزاء . ونحن نرى فى قصة موسى مع فرعون وقومه من هذه السورة وغيرها أن السحرة قد آمنوا إيمانا يقينيا على علم ، وأن الجماهير من قومه ظلوا على كفرهم ، ولكن الله تعالى أخبرنا فى سورة النمل أنه لما جاءتهم الآية الكبرى قالوا : إنها لسحر مبين « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا » أى عاندوا موسى عليه السلام عنادا بإظهار الكفر بها فى الظاهر مع استيقانها فى الباطن ، وأن سبب هذا الجحود هو الظلم والعلو والكبرياء فى الأرض

وهذا وصف فرعون وملئه أى كبار رجال دولته ، إذ من المعلوم أن سائر الشعب كان مستذلا . وهو مقلد للرؤساء لجهله ، وقد صدقهم فى قولهم إن موسى ساحر وإن السحرة كانوا متواطئين معه ، ولذلك أظهروا الإيمان به لأجل إخراج فرعون ورجال دولته من مصر والتمتع بكبرياء الملك بدلا منهم . كما تدل عليه آيات أخرى، ولو فهم جمهور الشعب من الآيات ما فهموا لآمن كما آمنوا ، لأنه لم يكن لديه من عتو العلو والكبرياء ما يصرفه عن الإيمان ، ولا شك أن السحرة كانوا أكرم منزلة فى الدولة من سائر الشعب ، ولكن كرامتهم لم تكن بالغة درجة العظمة والعلو المانعة لصاحبها من تركها لأجل الحق . وقد امتاز خاتم النبيين بأن جعل الله آية نبوته الكبرى علمية لا صعوبة فى فهم دلالتها على عامى ولا خاصى على أنه أيده فى زمنه بعدة آيات كونية .

٨ — نصيحة الرسل للأمم وأمرهم بالحق والفضيلة ونهيهم عن ضدهما كما فى الآيات ٦٢ و ٦٣ ٦٨ و ٧٤ و ٧٩ و ٨٢ و ٨٥ و ٨٦ و ٩٣ .

٩ — شبهة الأمم على الرسل التى أثارت تعجبهم واستنكارهم هى كون مدعى الرسالة رجلا مثلهم ، كما فى الآية ٦٣ و ٦٩ .

١٠ — اتهام الكفار رسل الله بالسحر كما فعل فرعون والملأ من قومه باتهام موسى فى الآية ١٠٩ وما يليها من الآيات فى قصة سحرة المصريين مع موسى . وهى شبهة جميع أقوام الرسل على آياتهم من حيث إن كلا منهما أمر غريب لا يعرفون سببه ، ومن خطأ المتكلمين التفرقة بين المعجزة والسحر باختلاف حال الأشخاص .

١١ — عقاب الأمم على تكذيب الرسل ، وهو فى الآيات ٦٤ و ٧٣ و ٧٨ و ٨٤ و ٩١ و ٩٢ و ١٣٣ و ١٣٦ و ١٣٧ .

١٢ — قصص نوح وهود وصالح ولوط وشعيب . وهى من آية ٥٩ إلى ٩٣ ، وقصة موسى مع فرعون وقومه وسحرته من آية ١٠٣ إلى ١٣٧ وقصته مع قومه وحدهم من ١٣٨ - ١٧١ ، وفيها من العبر والفوائد ما ذكر بعضه فى أبواب من هذه الخلاصة وبقى ما سبب إنزالها وإنزال غيرها من المقاصد المصرح بها فى غير هذه السورة ، ككونها من أخبار الغيب الماضية الدالة على كون القرآن وحيا من الله تعالى « تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا » ، وكونها تسلية للنبى عما يلاقى من إعراض المشركين وأذاهم وتثبيتا لقلبه فى النهوض بأعباء الرسالة ، كما قال تعالى : « وكلا نقص عليك من أنباء الرسل

ما نثبت به فؤادك » ، وكونها موعظة وذكرى للمؤمنين ، كما قال تعالى - فى تتمة هذه الآية « وموعظة وذكرى للمؤمنين » ، وكونها عبرة عامة للعقلاء من المؤمنين والـكافرين المستعدين للاعتبار كما قال تعالى : « لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب » . .

ومما ورد فى هذه السورة من تحريم التقليد فى الدين والأخذ فيه بآراء البشر . ما جاء فيها من النهى فى الآية الثانية معطوفا على الأمر باتباع ما أنزل إلى الناس من ربهم وهو « ولا تتبعوا من دونه أولياء » ، وقد صرح بذلك المفسرون . ومن النصوص فى بطلانه الإنكار على احتجاج المشركين به فى الآية « وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها » الآية ، وفى الآية ١٧٣ .

ومما ورد فيها من تعظيم شأن النظر العقلى والتفـكر لتحصيل العلم بما يجب الإيمان به ومعرفة آيات الله وسننه فى خلقه وفضله على عباده ، ما جاء فيها من قوله تعالى : « وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا » ، والسلطان البرهان ، فتقييد تحريم الشرك بانتفائه تعظيم لشأنه . ومنه قوله فى آخر الآية ١٦٩ « أفلا تعقلون ؟ » ومنه قوله تعالى - بعد ضرب المثل للمـكذبين بآياته من آية ١٧٦ : « فاقصص القصص لعلهم يتفكرون » ، ومنه قوله فى الآية ١٨٤ : « أولم يتفكروا ؟ ما بصاحبهم من جنة » ; وفى الآية ١٨٥ « أو لم ينظروا فى ملـكوت السموات والأرض وما خلق الله من شىء ؟ » الخ ، والآية الجامعة فى هذا المعنى قوله تعالى : « ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بها ، ولهم آذان لا يسمعون بها . أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ، وهى شاملة للنظر العقلى المحض ولـكل ما كان مصدره الرؤية والسماع وهما أعم وأكثر مصادر العلم .

ومما جاء فيها من تعظيم شأن العلم الشامل للعلم النقلى وهو ما أنزل الله من الكتاب والحكمة ، وما بينه به رسول الله من سنة ، والعلم المستفاد من الحس والعقل ، والمراد من العلم هنا متعلق المصدر وهو المعلومات ، ففارق ما قبله . ومن الآيات فى ذلك قوله فى آخر الآية السابعة والعشرين « أتقولون على الله ما لا تعلمون » ، وقوله فى آخر الآية الحادية والثلاثين : « كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون » ، وهى من النوع الثانى ، لأن موضوع الآية مسألة الأمر بالأكل من الطيبات وبالزينة والإنكار على من حرمهما وهى من مسائل علم الاجتماع والمصالح البشرية ، وقوله

تعالى فى آخر آية ٣٣ التى بين فيها أنواع المحرمات العامة « وإن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانا وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون » والسلطان هنا هو البرهان — وقوله تعالى : فى آخر آية ١٣٠ « ولكن أكثرهم لا يعلمون » ، وهو فى زعم آل فرعون وخرافاتهم أن ما ينالهم من الحسنات والخيرات فهو حق لهم وأن ما ينالهم من السيئات فهو بشؤم موسى وقومه وتطيرهم بهم ، والعلم المنفى عنهم هنا هو العلم بسنن الله فى طباع البشر والأسباب والمسببات فى العالم ؛ وقوله تعالى — فى حكاية توبيخ موسى لقومه على مطالبتهم إياه بأن يجعل لهم إلها كالآلهة الذين رأوهم يعكفون على أصنام لهم من آخر الآية ١٣٨ : « إنكم قوم تجهلون » ، وما علل به الحكم بجهلهم فى الآيتين بعدها ، فهذه جامعة لبيان فضل العلم النقلى والعلم العقلى وذم الجهل بهما معا ، فإن موسى . علل تجهيلهم أولا بعلة عقلية وثانيا بعلة دينية عقلية . وقوله تعالى فى الآية ١٦٩ : « ألم يؤخذ عليهم ميثاق الكتاب أن لا يقولوا على الله إلا الحق ودرسوا ما فيه » ، وهو من العلم النقلى ، ولكنه أيد بالعقلى فى ختم الآية بقوله : « أفلا تعقلون » . فهذه الشواهد على هذا الأصل وما قبله المؤيدة بأضعافها فى السور الأخرى تثبت تعظيم القرآن لشأن التفكر والنظر والاستدلال لتحصيل العلم بالله وشرائعه المنزلة ، وبسننه وآياته فى خلقه ونعمه على عباده ، وتعظيم شأن جميع العلوم النافعة من نقلية وعقلية ، وهى حجة على نقص أهل الجهل بها .

ومما جاء فى هذه السورة من سنن الله تعالى فى الاجتماع والعمران البشرى :

١ — إهلاك الأمم بظلمها لنفسها ولغيرها ، كما فى الآيتين ٣ و ٤ ومصداقه فى خلق آدم الذى هو عنوان البشرية ، وجعله تعالى المعصية بالأكل من الشجرة ظلما للنفس فى الآية ١٩ ، واعترف آدم وحواء فى دعاء توبتهما بذلك فى قولهما « ربنا ظلمنا أنفسنا » ، وبأن شأن المعصية من الأفراد أن تغفر بالتوبة فيعفى عن عقابها وهو خسران النفس كما فى قولهما « وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاسرين » ، وأما خسارة الأمم فهى إضاعة استقلالها وسلطان أمة أخرى عليها تستذلها . وجملة ذلك أن العقوبة أثر طبيعى لازم للعمل ، وأن ذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأما ظلم الأفراد وعقابهم عليه فى الآخرة .

٢ — بيان أن للأمم آجالا لا تتقدم ولا تتأخر عن أسبابها التى اقتضتها السنن الإلهية العامة ، وهو نص الآية ٣٤ ، وكونها إذا كانت جاهلة بهذه السنن تؤخذ

بغتة وعلى غفلة ليلا أو نهارا كما يؤخذ من الآيات ٩٤ - ١٠٠ ، وهذه الآيات وردت فى عقاب الأمم التى عاندت الرسل وكان عقابها وضعيا لا اجتماعيا .

والعقاب الإلهى للأفراد وللأمم نوعان :

أولا : العقاب بما توعد الله تعالى به على مخالفة رسله ومعاندتهم ، وهو من قبيل عقاب الحكام لرعاياهم على مخالفة شرائع أمتهم وقوانينها ونظمها .

ثانيا : العقاب الذى هو أثر طبيعى للجرائم ، وهو من قبيل ما يعاقب به المريض على مخالفة أمر طبيبه فى معالجته له من الحمية والاقتصار على كذا من الغذاء . والتزام كذا من الدواء .

٣ — ابتلاء الله الأمم بالبأساء والضراء تارة وبضدها من الرخاء والنعماء تارة أخرى ، فإما أن تعتبر بذلك فيكون تربية لها وإما أن تغى وتغفل فيكون مهلكة لها ، كما فى الآيات ٩٤ وما بعدها .

٤ — بيان أن الإيمان بما دعا الله إليه والتقوى فى العمل بشرعه فعلا وتركا سبب اجتماعى طبيعى لسعة بركات السماء والأرض وخيراتها على الأمة ، كما فى قوله تعالى « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » وهو موافق لآيات أخرى فى سور أخرى ؛ والآيات ١٢٣ - ١٢٧ من سياق بيان سنته تعالى فى النشأة البشرية من سورة طه ، ومثله فى الآيات ١٠ - ١٢ من سورة نوح ، والآيتين ١٦ - و١٧ من سورة الجن بعدها وغيرها .

٥ — استدراجه تعالى للمكذبين والمجرمين وإملاؤه لهم كما فى الآيتين ١٨٢ و١٨٣ ، وهو فى معنى ما سبقه من سنة أخذ الله للأمم بذنوبها ومن سنة ابتلائها بالحسنات والسيئات ، فإن من لا يعتبر بذلك ولا يتربى يصر على ذنبه ولا يرجع عنه ، وذنوب الأمم لا بد من العقاب عليها .

٦ — سنة الله فى إرث الأرض واستخلاف الأمم فيها والاستيلاء والسيادة على الأمم والشعوب . فقد بين الله تعالى لنا فى قصة موسى مع قومه أن وطأة فرعون وقومه اشتدت على بنى إسرائيل ، وصرح بوجوب الاستمرار على تقتيل أبنائهم واستحياء نسائهم لأجل أن تنقرض الأمة بعد استذلال من يبقى من النساء . إلى أن ينقرض الرجال وما ازدادوا إلا ذلا وخنوعا - وهم مئات الألوف - كما هو شأن الشعوب الجاهلة المستضعفة ، ولكن الله تعالى أمر رسوله موسى أن يمتلخ

ذلك اليأس من قلوبهم بقوة الإيمان بما حكاه عنه بقوله « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا ، إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين » ، أي بين لهم أن الأرض ليست رهن تصرف الملوك والدول بقدرتهم الذاتية فتدوم لهم وإنما هي لله ، وله سبحانه وتعالى سنة في سلبها من قوم وجعلها إرثا لقوم آخرين بمحض مشيئته وسلطانه ، ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنازع بين الأمم على الأرض التي تعيش فيها أو تستعمرها للمتقين ، أي الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والهلاك كاليأس من روح الله والتخاذل والتنازع والفساد في الأرض والظلم والفسق ، ويتلبسون بضدها وبسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال ، وأعلاها الاستعانة بالله الذي بيده ملكوت كل شيء والصبر على المكاره مهما عظمت ، وهذان الأمران هما أعظم ما تتفاضل به الأمم من القوى المعنوية باتفاق الملاحدة والماديين من علماء الاجتماع وقواد الحروب . وقد تكررت هذه القاعدة في القرآن الحكيم وفي معناها قوله تعالى من سورة الأنبياء « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر أن الأرض يرثها عبادي الصالحون » ، وإنما الصالحون هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل وسائر شرائع الله وسننه في العمران ، وهي بمعنى ما يسميه علماء الاجتماع « بقاء الأصلح أو الأمثل في كل تنازع » ، ويدل عليه المثل المشهور في سورة الرعد « أنزل من السماء ماء » ـ إلى قوله ـ : « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » .

إن سورة الأعراف بجدالها وحجاجها للمشركين ، وبنفيها للشرك ، وبإثباتها لعقيدة التوحيد ، وتصويرها للفطرة الإنسانية السليمة التي آمنت بالله منذ بدء الخلقة الإنسانية ، وبتحذيرها للأمم من الطغيان والشرك والخروج على رسالات الله ، وبما قصت من قصص الأنبياء والرسل ، وبدعوتها إلى الإمعان في ملكوت الله في السماء والأرض ؛ هي في كل ذلك مثل رفيع من أمثلة البلاغة القرآنية المتدفقة المعجزة .

ووحدة الفكرة والموضوع ، وتسلسل المعاني والعبر والعظات في السورة ، يدلك على إعجاز حقيقي ، وعلى أن هذا البيان المشرق الأخاذ إنما هو من السماء ، وهو وحي الله الصادق على لسان خاتم الأنبياء ، محمد صلوات الله وسلامه عليه ..

نظرة عامة فى هذا الجزء

(١)

يستغرق هذا الجزء من تفسيرنا لكتاب الله ستة أرباع من أواخر سورة الأعراف ، وقد آثرنا الكلام على سورة الأنفال كلها فى الجزء العاشر من هذا التفسير بإذن الله ...

١ — فى الربع الأول من هذا الجزء تكملة لقصة شعيب مع قومه ، وهلاك قومه بكفرهم وعنادهم وطغيانهم ، ثم يتحدث الله عز وجل حديثاً جليلا عن الرسالات والرسل والأمم ، حديثا كله عبرة وعظة وتوجيه ، وهو إلى فلسفة التاريخ أقرب ، وانظر إلى قوله تعالى : « ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض » ، وإلى قوله : « أفأمن أهل القرى أن يأتيهم بأسنا بياتا وهم نائمون؟ » الخ ... ثم يتحدث الله عز وجل عن قصة موسى مع فرعون والمعجزات التى أظهرها موسى له ، وعناد فرعون وجمعه السحرة ليغلبوا موسى فى سحره كما تصور فرعون وأعوانه ..

٢ — وفى الربع الثانى يتحدث الذكر الحكيم عن ظهور معجزة موسى واضحة كالشمس وإيمان السحرة به ، والعقاب الذى أنزله فرعون بالسحرة ، ثم زيادة استعباد فرعون لبنى إسرائيل ، وقتله أطفالهم من الذكور ، ووصية موسى لقومه بالصبر والاستعانة بالله ، والمحن التى أنزلها الله بفرعون وقومه ، وعقاب الله لهم بإغراقهم فى البحر وإنجاء موسى وقومه وتدمير قصور فرعون ومصانعه وحدائقه الجميلة ، كما تضمن هذا الربع ذكر تمرد بنى إسرائيل على موسى ورغبتهم فى الوثنية وعبادة الأصنام وترك دين التوحيد الذى نزل على رسولهم موسى ، وتذكير موسى لهم بنعم الله عليهم ووجوب عبادتهم له وحده لا شريك له ..

٣ — وفى الربع الثالث ذكر لموعد موسى مع الله بأن ينزل عليه التوراة ،

واستخلافه أخاه هرون على قومه ، وذهابه لمناجاة ربه ، ونزول التوراة عليه جملة واحدة ، وعبادة قومه بعده للتماثيل والأصنام المصنوعة من الذهب ، وعودة موسى وغضبه على قومه وعلى أخيه هرون لما حدث من بنى إسرائيل بعد ذهابه لمناجاة الله . . واختيار موسى لبعض بنى إسرائيل لإعلان توبة قومه لله .

٤ — وفى الربع الرابع ذكر لدعوة موسى لله بالرضاء عن قومه ، ورد الله عليه بأن رضاءه ورحمته للصالحين ، كما أن عذابه للعاصين ، دون محاباة أو أثرة ، وأن رحمة الله لن ينالها إلا المتقون المؤمنون الذين يؤدون الزكاة ، ويتبعون الرسول النبي الأمى محمدا عليه الصلاة والسلام عند بعثته ، والذى تضمنت التوراة البشارة به ، والذى يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ، ويحل الطيبات ، ويحرم الخبائث ، ويرفع عن قومه التشريعات الصعبة الشديدة التى كلفت بها الأمم قبلهم ، ويعد الله عز وجل المؤمنين بمحمد صلى الله عليه وسلم وبالكتاب المنير الذى نزل عليه ، بالفوز والفلاح فى الدنيا والآخرة ... وفى هذا الربع كذلك إعلان إلهى برسالة محمد إلى الناس كافة ، وإلى الإنسانية كلها ، وإلى الامم قاطبة ، وبوجوب الإيمان به وبرسالته .. كما تضمن هذا الربع كذلك الحديث عن بنى إسرائيل وكفرهم ولجاجهم ، وتضمن كذلك أن الله عز وجل قد أخذ العهد على نفسه بأن يبعث على بنى إسرائيل من يسومهم سوء العذاب حتى يوم القيامة . . وتضمن هذا الربع أن من بنى إسرائيل جماعة من الصالحين ، ومنهم الفاسقون الذين يؤثرون عرض الدنيا على الآخرة ، ويفترون على الله الكذب ، وهؤلاء لهم عذاب شديد . . أما الصالحون منهم ، فأجرهم على الله ، والله لا يضيع أجر المصلحين .

٥ — وفى الربع الخامس ذكر لبعض المعجزات التى كان موسى يظهرها لقومه ، ومدى كفرهم وعصيانهم ولجاجهم ، ثم يذكر الله عز وجل أن الإيمان بالله فطرى فى النفس الإنسانية ، وأن الله عز وجل قد أخذ منذ الأزل العهد على بنى آدم بأن يؤمنوا به وبرسالاته ورسله ، وأن منهم رغم ذلك كله من

يكفرون بالله ، وقد بعث الله لهم الرسل بالآيات والشرائع والأحكام ، التى تركوها وانسلخوا منها ، ولم يعملوا بما فيها ، وضرب الله للكافرين أسوأ الأمثال ، وذكر أن الله عز وجل خلق لهم ولأمثالهم جهنم . . كما أمر الله تعالى بعبادته وحده لا شريك له ، وباتباع رسوله محمد صلوات الله عليه ، وبالإقلاع عما وصفوه به من السحر والجنون ، فليس به من جنة ولا سحر ، إن هو نذير مبين ، ويذكر أن الإيمان بالله شواهده موجودة فى السماء والأرض ، وبراهينه قائمة ، وأن الساعة التى يستعجلونها علمها عند الله ، وأن الرسول لا يملك لنفسه ولا لقومه ضرا ولا نفعاً ، وأنه لا يعلم من الغيب شيئا ، ولو علم منه شيئا لكانت له قدرة شبيهة بقدرة الله يستطيع أن يستكثر بها من الخير لنفسه ، ولما مسه سوء ومحن ..

٦ — وفى الربع السادس يتحدث الله عز وجل عن نعمة الله على بنى آدم بالخلق والإيجاد ، ثم كفرهم به ، واتخاذهم شركاء له ، وتضمن هذا الربع كذلك السخرية من عقائد الشرك التى لا يستسيغها عقل ، ولا يفهمها عاقل ، ويدعو الله عز وجل إلى عبادة الله وحده ، والاعتزاز بولايته وحده ، فهو ولى الصالحين ؛ ويوصى الله عز وجل رسوله العظيم بمكارم الأخلاق ، وأصول الفضائل ، ويأمر بطرد نزغات الشيطان من النفس ، والايمان وقوة العقيدة من شأنهما أن يطردا كل وساوس الشيطان من نفس المؤمن بالله وبرسالاته ـ أما الكافرون والجاحدون فلا تزول من نفوسهم الشبهات ، ولا تنتهى من صدورهم نزعات الشر ، ونزغات الشيطان .. ويدعو الله عز وجل إلى تعظيم القرآن والاستماع له وذكر الله وعبادته وطاعته ، ويصف القرآن الكريم بأنه بصائر من الله وهدى ورحمة . . وما أروع هذه الأوصاف الجليلة لكتاب الله الحكيم ، وفرقانه الكريم . . الذى هو مصباح الإنسانية ، ومشعل النور والحياة للبشر جميعا .. وبذلك ينتهى الربع السادس من هذا الجزء الكريم ، وتنتهى بانتهائه سورة الأعراف التى نزلت فى حرب الشرك والمشركين ، وفى قصص الأنبياء للعظة والعبرة والذكرى ..

(٢)

ومن الجدير بالذكر أن نشير إلى عظمة القرآن الكريم وروعته وجلاله وبلاغته ، وإيجازه وإعجازه ، وسموه وإحكامه ، وأن نقف مليا متعجبين من صدقه ، ومتأملين للحق الذى اشتمل عليه ، وأن نسجد إيمانا بالله الذى أنزله ، وتصديقا للرسول الذى بعث به ..

وحقا إنه نور وهدى ورحمة وبصائر للناس ، وسلام وأمن للحائرين ، وروح وراح وريحان للمؤمنين ، وطمأنينة للمرتاعين الخائفين .

وما أعجب ما اشتمل عليه القرآن من تاريخ مفصل للأمم والشعوب ، ومن ذكر للحضارات والمدنيات ، ومن تصوير بليغ للصراع بين الحق والباطل ، بين الخير والشر ، بين داعى الله وداعى الشيطان ..

وانظروا متعجبين إلى هذا الإعجاز الكريم ، إلى هذا الإيجاز العظيم ، إلى وصف القرآن الكريم لحضارة مصر القديمة ، ومدنيتها الماضية ، الممثلة فى عظمة معابدها وقصورها ، وفى زروعها وكرومها ؛ فى حضارتها فى المصانع والمعابد والتماثيل والآثار ، وفى الزراعة والحدائق والأشجار ، فيما يصح أن نسميه الحضارة الصناعية والحضارة الزراعية .. انظروا إلى قوله تعالى فى أواخر الربع الثانى من هذا الجزء : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » .. المراد : أن الله عز وجل قد دمر بعد هلاك فرعون وقومه غرقا ما كانوا يصنعون من مبان وقصور وتماثيل وآثار ، وما كانوا يعرشون من حدائق وأشجار وكروم ، أى أن الله عز وجل دمر مصر تدميرا فى عهد فرعون موسى بسبب وثنيتها وشركها ومقاومتها للتوحيد والنبوة ورسالة السماء .. وأنه عز وجل لم يبق شيئا مرفوعا إلا هدمه ، ولا قائما إلا دمره ؛ وهذا – أى النص على المبانى والحدائق – يدل على تفوق المصريين القدماء فيهما ، ويدل على أن حضارة مصر كانت قائمة على النبوغ فى بناء المعابد والتماثيل والقصور ، وفى مجال الزراعة .. أى أن الله عز وجل قد دمر حضارة

مصر بعد غرق فرعون ، وهذه الحضارة كانت مركزة فى المبانى وفى الزراعة ، فهل سمعتم بوصف لحضارة مصر القديمة أروع من هذا الوصف ؟ وهل بلغكم تصوير عجيب للمدينة المصرية الفرعونية أعظم من هذا التصوير القرآنى الغريب ، ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه وما كانوا يعرشون .

اللهم إنى أومن بأن القرآن كتابك ، وأن هذا البيان المعجز من نسج حكمتك ، وأن ما اشتمل عليه من تاريخ وحكم وآداب وشرائع إنما هو من تنزيلك ووحيك ، وهو رسالتك إلى نبيك العظيم ، ورسولك الكريم ، محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه أجمعين . . أيها المسلمون : هل سمعتم ببليغ قد أبدع فى تصوير حضارة أمة من الأمم فى كلمتين ؟ وهل قرأتم أن فيلسوفا من فلاسفة التاريخ استطاع أن ينفذ إلى أعماق مدنية شعب من الشعوب فيلخصها فى جملتين ؟ اقرأوا ما وصف الله به عز وجل حضارة الفراعنة ، ممثلا فى هذه الآية الكريمة : « ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه ، وما كانوا يعرشون » ، ثم اقرأوا ما كتبه علماء التاريخ المصرى القديم من أسفار ومجلدات لتروا كيف بلغ القرآن الكريم كل مبلغ ، وأجاد فى تصوير الحضارة المصرية القديمة فى وادى النيل أية إجادة . .

وبعد : فإنه ليطول بنا الوقت لو حاولنا تأييد ما قاله القرآن الكريم بما كتبه علماء التاريخ والحضارات عن تاريخ مصر القديمة وحضارتها ، فلنكتف بذلك الآن ، . وفيما أشرنا إليه مقنع للقانعين ، وعبرة للمعتبرين .

(٣)

وبعد فقد كان العزم مقصودا على أن يكون هذا الجزء من أجزاء تفسير القرآن الحكيم شاملا لنهاية الجزء التاسع ، ومحتويا على الربعين الباقيين منه ،

وهما من مطلع سورة الأنفال إلى قوله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم ». لولا أننا أردنا من تأخير الحديث عن الربعين الباقيين إلى الجزء العاشر ، أن يكون الجزء العاشر كله فى تفسير سورة الأنفال والجزء الحادى عشر فى تفسير سورة التوبة ، والجزء الثانى عشر فى تفسير سورتى هود ويوسف .. وبالله التوفيق ، وما توفيق إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

المؤلف

خاتمة هـــذا الجزء

— ١ —

بسم الله الرحمن الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله أجمين ، وبعد . . .

فهذا الجزء من تفسير كتاب الله الحكيم ، وهو الجزء التاسع ، صورة ناطقة ، ومثل حى ، على ضرورة نشر هذا التفسير وأهميته معا . . وعند ما يأذن الله تعالى بالانتهاء من طبع أجزاء هـذا التفسير ، التى تبلغ الثلاثين جزءا ، سوف يدرك الناس جميعا أن معجزة قد حدثت ، وأن عملا جليلا قد كان ، وأن خدمة صادقة مخلصة لكتاب الله قد بذلت ، فى تفسير نشر هداية القرآن الكريم فى الآفاق ، وتقريب رسالته إلى الأسماع والقلوب ، وحمل دعوته إلى البشر جميعاً ، ليزداد المؤمنون إيمانا ، وليقف الجاحدون موقف المتأمل الواعى لدعوة الإسلام وكتابه الحكيم من جديد .

— ٢ —

وكلما مضى بنا المجال فى البحث والدرس لكتاب الله ، كلما ازددنا إيمانا بعظمة القرآن وجلاله وإعجازه ، وبأنه منزل من السماء بشيراً ونذيرا وداعياً إلى الله ، وبأنه الكتاب الذى لا تستقيم أمور البشر إلا بهدايته ، ولا تنتظم أحوال العالم إلا بحكمته ، ولا تستعيد الإنسانية رشدها وأمنها وسلامتها إلا بتعاليمه ، وما أصدق ما قال رسول الإسلام محمد بن عبد الله : « إن هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا من مأدبته ما استطعتم . إن هذا القرآن حبل الله ، والنور المبين ، والشفاء الناجع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن تبعه ، لا يزيغ فيستعتب ، ولا يعوج فيقوم ، ولا تنقضى عجائبه ، ولا يخلق من كثرة الرد . اتلوه فإن الله يأجركم على تلاوته كل حرف عشر حسنات » .

إن القرآن الكريم أعظم دليل على صدق رسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، ولا يزال حتى اليوم سراً من الأسرار التى يتعذر فك طلاسمها ، ولن يسير

غور هذا السر المكنون إلا من يؤمن بأنه منزل من عند الله . والقرآن الكريم آية في البلاغة ، ومع ذلك فهو فى الوقت نفسه دستور رفيع للشريعة وللحياة جميعاً ، إنه الدستور الأساسى لأصول الإسلام ، وللأحكام الجنائية والمدنية فيه ، بل وللشرائع التى عليها مدار حياة النوع الإنسانى وترتيب شئونه ، وهو القانون العام للعالم الإسلامى ، القانون الذى شمل فى ثناياه شتى القوانين المدنية والتجارية والحربية والقضائية والجنائية والسياسية والاجتماعية .

— ٣ —

والقرآن الكريم قبل ذلك وبعد ذلك هو أساس القومية الإسلامية للمسلمين ، ومن ثم فإن أول واجب على كل مسلم أن يفهمه ويتدبر معانيه ، ويتأدب بآدابه ، ويتخلق بأخلاقه ، ولقد روى عن سعد بن هشام أنه قال : دخلت على عائشة رضى الله عنها . فسألتها عن أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم ، فقالت : « أما تقرأ القرآن ، قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن » ، وعند ما يكتمل الوعى الجديد فى نفوس المسلمين ، سوف يفرضون بأنفسهم تعاليم الإسلام على أنفسهم ، وعلى مجتمعاتهم التى يعيشون فيها ، وعلى كل شىء فى حياتهم التى يحيونها ؛ وسوف تندثر دعوات المادية والإباحية والوجودية والشيوعية من بين صفوفهم ، وسوف لا يجرؤ ضال أو جاحد أو مسنود بقوة الاستعمار وسلطانه على أن يرفع صوته داعيا إلى مادية أو إلحاد فى الدين ، ولن يكون هناك إلا صوت واحد يدوى فى الآفاق : نحن عرب ، ونحن مسلمون ، ونحن حملة رسالة الإخاء والسلام إلى العالم جميعا . .

ونحن إذ نكتب هذا التفسير وننشره ، فإنما نريد أن تصل دعوة القرآن الكريم ورسالته إلى آذان البشر جميعا ، وإلى قلب الشباب المسلم وعقله فى كل مكان ، وإلى موطن العقيدة والإيمان عند كل مسلم يؤمن أن لا إله إلا الله ، وأن محمداً عبده ورسوله إلى الناس كافة . وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ؟

محمد عبد المنعم خفاجى

فهرست الجزء التاسع

من القرآن الكريم

ظهر حديثا

بين الشيوعية والإسلام

دراسة علمية ، وموازنات دقيقة ، وكشف عن عظمة
الإسلام وخلوده وعموم رسالته

بقلم

محمود النواوى ، محمد عبد المنعم خفاجى

يطلب من

إدارة مجلة الإسلام بشارع القلعة (محمد على سابقاً)
ومن المكتبات المشهورة

للمؤلف

قصة الأدب في مصر - ٥ أجزاء
» » الأندلس - ٥ »
» » المعاصر - ٤ »
الأزهر في ألف عام - ٣ »
صور من الأدب الحديث - ٤ »
رائد الشعر الحديث - جزءان
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية ٨٠٠ صفحة
الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية ٥١٠ »
دراسات في الأدب والنقد
مع الشعراء المعاصرين
الذكر الحكيم
الشعر والتجديد
مواكب الحرية في مصر الإسلامية
في ظلال الإسلام - بالاشتراك
التراث الروحي للتصوف الإسلامي في مصر
تفسير القرآن الحكيم - ٣٠ جزءاً